دور الشيعة
في تطور العراق السياسي الحديث

عبد الله فهد النفيسي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٩٠

الناشر
ذات السلاسل
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت

الإدارة العامة
مجمع الأوقاف - برج ١٠
شقة ١٥ - الدور السابع

ص.ب: ١٢٠٤١ الشامية - الكويت تلفون: ٢٤٦٦٢٥٥ / ٢٤٦٦٢٦٦

عبد الله فهد النفيسي

دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث

الطبعة الثانية
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

محتويات الكتاب

المقدّمة ٩

عقائد الشيعة السياسية الدينية ١٥
القانون العرفي الذي به تُحسَم الخصومات بين العشائر الشيعية في جنوب العراق ٣٢
النجف : المركز الثقافي السياسي الشيعي في العراق ٤٧
السياسة عند الشيعة في العراق ٦٩

المقاومة الشيعية المسلّحة ضدّ الحملة البريطانية (١٩١٤–١٩١٨) ٨٠
دور الشيعة في الاستفتاء الشعبي (١٩١٨–١٩١٩) ١١١
اضطرابات سنة ١٩٢٠: ذروة النشاط السياسي الشيعي ١٣٠
معارضة الشيعة للحكومة الموقتة
تتويج فيصل ملكاً على عرش العراق ١٦١

الشيعة والسياسة البريطانية: تحليل وتقييم ١٨٥

ملاحق ٢٠٣
مراجع ٢٢٧

مُقَدِّمَة

ان الدور الذي لعبته الشيعة في تطوّر العراق الحديث السياسي صفحة مهمة جداً في التاريخ السياسي لهذا القطر . ووجه اهميته انه اتخذ شكله النهائي في اثناء الفترة التكوينية الأولى في نشأة الدولة العراقية الحديثة . ولأن الشيعة كانت اكثرية مغلوبة على امرها في العراق فان أدباء الشيعة وعلماءها في العراق لم يُعنَوا بدراسة هذه الناحية، فلم تظهر لهم مؤلفات في هذا الحقل . غير ان بعضهم عالجوا نواحي هذه القضية بطريقة خفيّة مبطّنة خشية ان يتّهموا بالميول الطائفية . ونذكر على سبيل المثال في معالجة هذا الموضوع ما كتبه السيد جعفر باقر المحبوبة في مؤلّفه الموسوم بـ « ماضي النجف وحاضرها » (النجف ، ١٩٥٨) والسيد عبد الرزاق الوهاب في مؤلّفه « كربلاء في التاريخ » (النجف، ١٩٣٥) والسيد عباس علي في « زعماء الثورة العراقية » (بغداد ١٩٥٠) وهو كتاب يتناول سيرة السيد محمد حسن الصدر مبعوث المجتهد الاكبر الى لواء الدليم في أثناء اضطرابات سنة ١٩٢٠ . ونذكر اخيراً دراسة السيد عبد الرزاق الحلي الموسومة بـ « الشاعر محمد باقر الشبيبي » الذي عُرف بشاعر الثورة ، وذلك لقصائده الحماسية ، ولدوره الرئيسي في اضطرابات ١٩٢٠ . وهذه الدراسات التي جئنا على ذكرها تعالج نواحي مختلفة للدور الذي لعبته الشيعة في التطوّر السياسي في العراق الحديث ، ولكن واحداً منهم لم يعالج القضية من جميع جوانبها في صورة شاملة. ولذا أعتبر نفسي سعيداً ان يُتاح لي المجال لأن اكرّس بحثي هذا لمعالجة هذه القضية . وانه من الضروري لا بل من الممتع ان يتصدّى مؤلّفٌ لمعالجة هذا الموضوع .

لقد قمت بالبحث الأوّلي الذي يقتضيه الموضوع في العراق ذاته ، وذلك في اثناء صيف ١٩٦٨ . فقد حظي المؤلف بمقابلة المغفور له السيد محسن الحكيم ، المجتهد الاكبر ، في النجف الأشرف . وقد تلطّف فأوعز الى اعوانه ان يقدّموا لي كل عون في وسعهم كي احصل على ما أبتغيه في بحثي هذا . ومن جملة من قابلتهم وحصلت منهم على معلومات معيّنة اذكر الدكتور فاضل الجمالي رئيس وزارة عراقية سابقاً ، والدكتور مهدي البصير ، وهو مؤلّف له مصنّفات عديدة تُعنى بشؤون الفترة التي

نحن في صددها وأحد شعراء العراق، والسيد رايح عطية ، وهو زعيم قبيلة الحميدات في منطقة الشامية واحد المندوبين الذين قابلوا ويلسون في الثاني من شهر حزيران سنة ١٩٢٠ . اما في انكلترا فاني قابلت السير هويل (Howell E.B) (وكان سابقاً حاكم البصرة من سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ ، وحاكم بغداد سنة ١٩١٨ . والامين العام للواردات في بغداد من سنة ١٩١٨ - ١٩٢٠) . كذلك قابلت قائد اللواء لونغرغ (Longrigg S.H.) وكان في حكومة العراق من سنة ١٩١٨-١٩٣١ . والأمين العام للواردات من ١٩٢٧-١٩٣١ . والذي عمل ايضاً في شركة النفط العراقية من سنة ١٩٣١-١٩٥١ . وحصلت على معلومات بالمراسلة من السيد ادمونز الضابط السياسي المساعد في العراق سنة ١٩١٥ ، والذي كان المستشار والمفتش الاداري في كركوك والسليمانية في الحكومة العراقية سنة ١٩٢٢ . والضابط السياسي في فرق الجيش في منطقة كردستان سنة ١٩٢٤ . كذلك قابلت السير وينغايت (Wingate R.E.) الذي عمل في العراق من سنة ١٩١٧-١٩١٩، والسير بولارد (Boullard R.W.) القنصل البريطاني في البصرة سنة ١٩١٤ ، والمستشار المدني للحاكم العسكري في البصرة سنة ١٩١٤ ، ونائب الأمين العام للواردات في بغداد سنة ١٩١٩ . والحاكم العسكري في بغداد سنة ١٩٢٠ . كما انه عمل في دائرة الشرق الاوسط التابعة لوزارة المستعمرات سنة ١٩٢١ . وكانت زيارتي للمدارس الدينية في النجف الاشرف ذات فائدة عظيمة . هذا الى جانب كونها زيارة ممتعة فتحت امامي آفاقاً لفهم الشيعة والتعرّف الى دواخلها . كذلك قمت بزيارة للكوفة حيث شنقت السلطات العسكرية الانكليزية في شهر نيسان من العام ١٩١٨ أحد عشر زعيماً شيعياً من النجف الاشرف . وقابلت فيها اثنين من علماء الكوفة الدينيين . وفي « مدينة العلم » - وهي كلية شيعية في الكاظمين - وعلى رأسها الشيخ الخالصي . وفي مكتبتها الخاصة ، استطعت ان اتقصى اعيان الشيعة كي أجري معهم اتصالات ذات فائدة لبحثي هذا . وقد انتفعت كثيراً بالدراسات التي قمت بها في مختلف المكتبات العامة والخاصة اخص منها بالذكر مكتبة مديرية الآثار ، ومكتبة الوثائق ، ومكتبة المجمع العلمي العراقي في بغداد ، ومكتبة الحكيم الخاصة في النجف الأشرف . ورأيت لزاماً علي ان اقوم بزيارة لمناطق القبائل الشيعية الضاربة في الفرات الاوسط والأسفل كي اطّلع على شؤونها عن كثب . وقد اصطحبني الشيخ صالح زعيم قبيلة الجميلة الضاربة في منطقة الفلّوجة في زيارة قمت بها لخان ضاري حيث اغتيل الكولونيل ليشمان (Leachman G.E,) في ١٢ آب من العام ١٩٢٠ بيد ضاري المحمود، زعيم قبيلة الزوبع. وقد تكرّم ايضاً فاصطحبني في زيارة قمت بها لزعماء قبائل لواء الدليم حيث وجدت ان عدداً منهم لا يزالون يذكرون ليشمان وما قام به من اعمال ضدّهم.

وحيث انّ معظم الشيعة يقطنون جميع المناطق جنوب بغداد حتى الفاو ، عند مصب شطّ العرب ، فاني قصرت زياراتي لمضارب هذه القبائل . وعلى ضفتّي دجلة من الفاو الى القرنة ، حيث يلتقي دجلة الفرات ، تقطن قبائل شيعيّة عربية متحضرّة في قرى يقيمون بها إمّا على سبيل الايجار ، وإما لأنهم يملكون الارض. فهم من هذه الناحية قد اعتادوا العيش في ظلّ الادارة والقانون ، وملاّكو الارض في معظمهم من زعماء القبائل المحليين . وهذا القول يصحّ على السكان القاطنين على ضفتي الفرات بين القرنة وسوق الشيوخ . اما سكان مناطق المستنقعات في المثلّث الواقع بين سوق الشيوخ والقرنة وكرمة علي فهم اقوام بدائيون قلّما يهتمون بالدين كقانون اخلاقي سلوكي . غير انهم يحترمون السلطة الدينية . كذلك لا تربطهم روابط سياسية ، فهم من هذه الناحية على نقيض القبائل التي تقطن ضفتّي دجلة وروافده من القرنة حتّى العزيزية . انهم بدو عرب نصف متحضّرين . وهم في معظمهم من الشيعة يعيشون الآن في طور انتقال من الحياة البدوية الرعائية الى الحياة الزراعية المستقرّة . اما في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية فهم يمرّون الآن بطور انتقال من القبلية والعشائرية الى حياة زراعية ، إمّا على سبيل الايجار وإما على سبيل الملكية. وهنالك مناطق متفرّقة على ضفتي دجلة ، شرقاً وغرباً ، وعلى ضفتّي شط الغرّاف ، تقطنها قبائل بدوية رُحّلية تعيش على الانتجاع .

اما سكان المنطقة التي تضمّ المسيّب ومدينة كربلاء وقصر رحيّم وتل معجة وامّ ذوكان وخور المفتّح فهم من السكان الذين يقطنون قرىً ومدناً . وهم شديدو التعلّق بالمدينتين المقدّستين كربلاء والنجف . اما سكان هاتين المدينتين فمزيج بشري من عرب وفُرس وهنود وجميعهم ينتمون الى الجناح الشيعي المحافظ ، كما ان المدينتين تعتبران مركزين للشعور الديني الشيعي المتشدّد . واما سكان الارياف المحيطة بهما فانهم يتأثرون كثيراً بالمجتمع الديني في هاتين المدينتين . والعامل الرئيسي الأول الذي يؤثّر في كل نوع من التطوّر في هذه المنطقة هو طبيعة الحياة الشيعية السائدة في هاتين المدينتين . ولكي يدرك القارىء هذه الحقيقة ينبغي له ان يعود بالذاكرة ، ولو قليلاً ، الى الحقب التاريخية التي مرّت بها المنطقة . فان الكوفة وكربلاء كانتـا مركزين لخلافة أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ، كما انهما كانتا الحصن المنيع الذي تركّزت فيه قضية العلويين بعد وفاة عليّ المفجعة . بعد ذلك أصبح جنوب العراق مركز ثورة دائمة ومسرحاً لحوادث الاضطهاد المتكرّرة في كـلا العهدين الاموي والعباسي . كذلك اصبحت هذه المنطقة محجّاً لجميع الحجّاج من الشيعة الذين يؤمّون المزارات المقدّسة حيث دُفِن فيها جماعة من الأئمة . وبعد غيبة الأمام الثاني عشر ، وبعد أن شاع في اوساط الشيعة امر رجعته أصبحت الشيعة في جنوب العراق جماعة

ثورية ترفُض الاعتراف بأي سلطة قائمة . غير انه لم تكن لديهم سياسة واضحة المعالم ، اذ ان الامام الغائب لم يكن ليظهر الا عند قيام الساعة . ولم يكن للحركة العربية التي بدأت في اثناء سنوات الحرب الاولى أثر عميق في نفوس سكان هذه المنطقة ، ولم يكن للشريف حسين أي أتباع بينهم . وفي الفترة الاولى من الحرب العالمية الاولى سعى الاتراك ، على الرغم من انهم من السُنّة ، لأثارة الشيعة وكسب عطفها على اساس انهم كانوا يحاربون الكفّار الذين كانوا يعملون على تدنيس مدنهم المقدّسة .

ان شيعة العراق تؤلف جماعة بشرية اكثر انسجاماً وقرابةً عرقية من اهل السنة ، وذلك بفضل زيارة الأماكن المقدّسة في النجف وكربلاء سنة بعد اخرى .

ان اهل المدن يتثاقلون عند مغادرة مدنهم اما اهل القبائل فيقبلون على زيارة هذه الأماكن المقدسة ، واحياناً اكثر من مرّة واحدة في السنة ، مما يعرّضهم الى العوامل غير القبلية . اما السُنّة في العراق فانهم يختلفون عنهم كثيراً . فان الرجل السنيّ العراقي يُبدي ولاءً علمانياً وروحياً لسلطة الدولة . اذ ليس هناك قادة دينيون على ما في المسيحية من اكليروس . فان الدولة تعيّن الموظّف الديني ، وتدفع له مرتّباً ، وهذا الموظّف يعتبر القيّم على الاوقاف الدينية . ولذا فان الفروقات السياسية بين السنيّ والشيعي عميقة الجذور ، وتنسحب على جميع نواحي الحياة اليومية . فنشأت بينهما فروقات وراثية في نظرتهم الفلسفية الى الحياة . وهو امر على جانب من الخطورة لا يمكن تغافله . وقد كان معظم موظفي الحكومة في العهد التركي من جماعة السنّة ، فكانت تغص بهم المدارس والمحاكم ، وكان منهم المدرّسون والقضاة . فقد كان الشيعيّ يُحذّر من قبل شيخه انه محرّم عليه ان يتوظّف في حكومة غريبة عنه ، كما انه كان يُلقّن ان الحكومات العلمانية ، سواء أكانت حكومات انتداب اجنبي ام حكومات وطنية ، تفتقر الى السلطة الدينية . لذا نشأ الرجل الشيعي يجانب السلطة ويحاذر الانخراط فيها ، حتى انه في حكومة الملك فيصل الاولى لم يدخلها شيعي مرموق يحتل مركزاً عالياً سوى رجلٍ واحد فقط ، بينما كان سائر الوزراء من السنّيين ، وكان وزير المال يهودياً . وحيث ان الشيعة كانت بطبيعتها تشك في السلطة الزمنية ، اي في سلطة الدولة العراقية ، فانها كانت دوماً عرضة لتأثيرات التيارات الفكرية المتضاربة ، كما انها كانت دوماً تربة خصبة تنمو فيها الافكار الثورية .

بما ان الشيعي من سكان المدن يختلف عن الشيعي العشائري كان لزاماً علي ان ادرس العقائد السياسية الدينية التي يتمسّك بها المدَني بصورة تقليدية اكثر مما يتمسك بها العشائري . بينما نجد ان الشيعة العشائرية تتمسّك بالسوالف ، اي بالقانون الجزائي والمدني الذي له علاقة بالخصومات العشائرية . ولكن على الرغم من هذا الاختلاف الأساسي نجد ان كلا الفريقين من الشيعة الذين يقطنون المُدن ومن اهل القبائل يعتبران

الطاعة والولاء المخلص للسلطة الدينية ، اي للمجتهد الاكبر ممثّل الأمام في زمانه — والذي يقيم بالنجف الاشرف — امر مفروض على كلّ شيعي . وهذا التعلّق الشديد من قبل الشيعة بالنجف الاشرف وبمقامها الديني ، والانفصال عن بغداد أمران بارزان يتميّز بهما الفرات الاوسط والاسفل . ان هذه القبائل الشيعية الضاربة في هذه المنطقة تختلف عن القبائل السنية الضاربة في لواء الدليم في انها لا تدين بشيء من الولاء لبغداد ، بل انها تولي ولاءها للنجف الاشرف . وعندما قدم المعتمد البريطاني كوكس (Cox) في شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٠ ليهدّىء البلاد حاملاً معه برنامجاً للتسوية لم يفلح في مهمته فوراً بل تأخرت المفاوضات مدّة من الزمن لان شيعة الفرات أبت إلقاء السلاح الى ان تُرفع اسس المفاوضات الى المجتهد الاكبر اولاً لينظر فيها ، لانهم كانوا يعتبرونه زعيمهم وممثّلهم الأوحد . فان شيعة المدن في العراق اشدّ تعلقاً بالعقيدة الشيعية من تعلقهم بالعمل السياسي الذي تقتضيه هذه العقيدة . اما التنظيم الشيعي ، من حيث الاشخاص ، فيتمد العناصر الشيعية المثقفة المتعلّمة التي تقطن المدن . اما اهداف هذا التنظيم الشيعي — وهو التنظيم الذي منه يستمدّ المجتهد الاكبر العون على ضبط امور الشيعة روحياً وسياسياً — فموضوع نبحث فيه بتفصيل في الفصل المعنون بـ«امور السياسة لدى الشيعة في العراق» . وينبغي لي ان اشير الى الفصل المعنون بـ«القانون العرفي الذي يُرجع اليه في فضّ الخصومات العشائرية عند الشيعة في جنوب العراق» فانه في الدرجة الأولى نتيجة إمعاني التي قمت بها ، ونتيجة الاستشارات والمقابلات التي اجريتها شخصياً . ذلك بأن الكتب والمؤلّفات التي تُعنى بهذه الناحية من حياة الشيعة نادرة جداً .

ان هذا المؤلّف يقع في ثلاثة اجزاء يُعنى الجزء الاول منها بتحليل السكان من الشيعة القاطنين منهم المُدُن او الضاربين في مناطق القبائل . ويُعنى الجزء الثاني بالنشاط السياسي الذي قامت به الشيعة في العراق في الفترة الواقعة بين ١٩١٤ و١٩٢١ . ويشتمل هذا الجزء على البحث في المقاومة المسلحة التي ابدتها الشيعة ضدّ الحملة البريطانية في جنوب العراق بدءاً بنزول القوات البريطانية في الفاو في السادس من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حتى احتلال بغداد في الحادي عشر من آذار سنة ١٩١٧ . كذلك يشتمل هذا الجزء على وصف لحصار النجف الذي فرضته القوات البريطانية في اعقاب اغتيال الضابط مارشال في النجف على يد اللجنة الثورية الاسلامية يوم التاسع عشر من شهر آذار سنة ١٩١٨ . ثمّ يشمل هذا القسم ايضاً الحديث عن دور الشيعة القيادي في اثناء اضطرابات سنة ١٩٢٠ ، تلك الاضطرابات التي كلّفت الخزينة البريطانية اربعين مليون جنيه وهو مبلغ ضخمٌ كان سبب مداولات ومشادّات في مجلس العموم البريطاني . وآخر فصل في هذا الجزء الثاني من البحث يتناول مؤتمر القاهرة الذي

عقد سنة ١٩٢١ والذي رأسه السير ونستون تشرشل . في هذا المؤتمر تمّ وضع مشروع للسياسة البريطانية في العراق والتي من شأنها ان تقلّل من النفقات ، وذلك بأقامة حكومة تكون واجهتها عربية . كما ان هذا الفصل يتناول ايضاً المخاوف التي أبدتها الاوساط الشيعية تجاه هذا الحكم المصطنع . اما الجزء الثالث والاخير فمحاولة لتقييم النتائج والاستنتاجات التي توصّل اليها المؤلف ، والتي تتعلق بالسياسة البريطانية المتّبعة في العراق مع نقدٍ موضوعيّ لتلك السياسة .

عبد الله فهد النفيسي

عقائد الشيعة السياسية الدينية

ان الغرض الذي نبتغيه من هذا الفصل درس النواحي العقائدية التي تأخذ بهـا الشيعة الاثني عشرية . وهي دراسة اقرب الى الدراسة لوصفية الموضوعية منها الى الدراسة التحليلية التقابلية . وقد اوليت عنايتي تلك العقائد التي لها اهميتها السياسية ، أي تلك العقائد التي كان لها اثر عميق في السلوك السياسي لدى الشيعة كمجموعـة بشرية . ولكي اكون موضوعياً في بحثي ، بقدر ما يسعني ان اكون موضوعياً ، فاني اعتمدت المصادر الشيعية ذاتها قبل ان اعزو ايّ شيء الى العقائد الاثني عشرية ذاتها . وفي ظني ان اي عالم يتصدّى لدراسة هذا الموضوع لا بُدّ له من ان يشير الى الكتب الاربعة المعترف بها لدى الشيعة ، وهي الكتب التي تعرف ، «كتب الرجال » وهي :

« الكافي في علم الدين » لمصنّفه الكليني

« الاستبصار » لمصنّفه الطوسي

« من لا يحضره الفقيه » لابن بابويه

« تهذيب الاحكام » للطوسي

ان هذه الكتب الاربعة تعتبرها الشيعة ، بصورة عامة ، والأمامية بصورة خاصة ، كتباً صنّفها ثقات ، وهي حرية بان يوثق بما جاء فيها . اما سائر الشروح والتعاليق التي صنّفها رجال من السنّة او من المستشرقين فهي كتب يُرجع اليها وانما لا تعتبر الكتب المراجع الأساسية في دراسة الموضوع .

والعقيدة الشيعية الأولى هي الأمامية . وهي عندهم ، وعند علمائهم الدينيين ، ركن من اركان الايمان (١) . والواقع ان من لا يؤمن بأمامة اهل البيت لا يُعتبر عندهم رجلاً مؤمناً (٢) ، حتى وان كان المسلم يقوم بجميع الفروض والشعائر الدينية ، فانه يظلّ غير مؤمن الى ان يؤمن بالأمام ويطيع اوامره . وقد حدّد فقهاء الأمامية هذا

---

(١) ابن بابويه : رسالات الاعتقادات ، ص ٩٤ . الكليني : الكافي ، الجزء الثاني ، ص ٢١ . ٣٨

(٢) الكليني : الكافي ، الجزء الثاني ، ص ٢٨ .

المُصطلح – الأمامية – بكل دقة ووضوح . فانّ العلاّمة الحلّي في معالجته الفقـه الشيعي (١) يحدّد الأمامة ويعرّفها بأنّها رئاسة عالمية عامّة في الامور الدينية والدنيوية تلقى على عاتق شخص نيابةً عن النبيّ . فمن هذه الناحية يعتبرون الأمامة فرعاً من النبوّة لأنها تستمد سلطتها من النبي . ان هذا التعريف ينفي ، مبدئياً ، مشاركة الأمة في تعيين الأمام . ونقطة اخرى على جانب من الاهمية ما جاء في التعريف من انها « تخص شخصاً » وهذا يسترعي انتباهنا الى امرين : اولاً ان من هو اهلٌ للأمامة رجلٌ يعيّنه الله سبحانه بواسطة نبيّه ، وليس اي رجلٍ كان ... ثانياً : لا يمكن ان يكون هنالك اكثر من شخص آخر في فترة معيّنة من الزمن يستحق هذا المنصب الرفيع .

ان وظيفة الأمام « ان يثأر للمظلوم من ظالمه ، وان يردع الظالم عن ظلمه ، حتى ذلك يرجع الى الصلاح وينصرف عن الفساد (٢) » . ومن المبتذل ان نقول ان كل امرىء نظر في المبادىء السياسية ودرس احوال المجتمع يدرك جيداً انه ينبغي ان يقوم في المجتمع زعيم او قائد تدين له الجماعة بالولاء والطاعة . فانه هو الذي يقف في وجه الظالم ويثأر للمظلوم ، وهو الذي يقودهم الى سواء السبيل ، ويردهم عن الفساد الذي يقوّض النظام في امورهم الدنيوية ، كما انه الرجل الذي يجنّبهم الأضرار الناجمة عن الاثم والفساد ويضمن لهم سعادة الآخرة فيخشى المرء عاقبة الحساب . وهذا مما يقرّبهم من حالة السلام والنظام ويبعدهم عن الفوضى والخصام .

ولكن بسبب ما اريق من دماء في الحروب التي نشأت حول الخلافة أخذ فقهاء المسلمين من ذوي الفكر الرزين يتساءلون عن ضرورة الأمامة . والواقع ان بعضهم أعلن انه ليس من الضروري بمكان ان يكون على المسلمين امام (٣) . وقالت الاشعرية انه بحسب السُنّة ينبغي ان يكون هنالك امام ، وقالت المعتزلة انه بحسب العقل ينبغي ان يكون هناك قائد للأمة .

اما الأمامية الأثني عشرية – وهي موضوع دراستنا هذه – فلها وجهة نظـر خاصة تدافع عنها بحججها الخاصة ، ومنها :

---

(١) هو الحسن بن يوسف بن علي بن مطهر الحلي ، اباب الحادي عشر ، ترجمه الى العربية و.م ملر (miller) ونشرته « الجمعية الملكية الاسيوية » سنة ١٩٢٨ ، ١٢٠ . والمؤلف يعلم ان ترجمة ملر ليست ترجمة دقيقة، ولكن نظراً الى صعوبة الحصول على النص العربي الأصلي للحلي فقد اعتمدنا الترجمة .

(٢) المصدر ذاته ص ٦٢ .

(٣) وهم الخوارج .

لطف الله

واللطف من صفات الله ، ومن اسمائه الحسنى « اللطيف» (١) . ومعنى لطف الله انه يقرّب خلائقه الى الطاعة ويبعدهم عن العصيان ، وهذا يتمّ على يد الأمام . لانه من المعروف انه اذا قام بين الجماعة زعيم وقائد يردعهم بواسطة العقاب ، فانها تقترب من النظام والسلام ، وتبتعد عن الفوضى والخصام . هذا هو معنى اللطف . ولذا فان الله سبحانه لكونه لطيفاً فانّه ينصّ على تعيين إمام ليقوم بهذه الوظيفة التي ذكرناها آنفاً .

الوصي على الشرائع

وتقول الشيعة هناك حاجة ماسّة مستمرة الى قيام وصيّ على الشرع ليقيه من التحريف والتغيير وسوء الفهم والأضافة اليه او الحذف منه . فان آيات القرآن الكريم تتضمّن جوهر الشريعة ومُعظم الأوامر والنواهي ليست واضحة المعنى (٢) . لذا وجب ان يقوم مفسّر من عند الله فيعطي الاستدلالات الشرعية والتفسيرات بناء على نصّ القرآن الكريم . وليس من يستطيع ان يقوم بهذا الأمر الجلل سوى امام الزمان ، لان من القابه « العلم المحيط» اي انه يدرك فوراً الامور التي يريد معرفتها (٣) . وبدون هذا الوصي لا يستطيع مسلم معرفة عبادة الله (٤) . وبدون إمام لا يستطيع الناس ان يميّزوا بين الصواب والخطأ لان القرآن الكريم لا يكفي وحده ان يكون الهادي الى سواء السبيل .

---

(١) المجلسي ، محمد باقر : حياة القلوب ، الجزء الثالث ، ص ١ – ٢٣ .

(٢) يجدر بنا ان نشير هنا الى ان الشيعة يختلفون من السنة في نظرتهم الى تفسير القرآن الكريم . فان اكثر الآيات عندهم تفسر على انها إشارات الى اهل البيت . ويطلب الى القارىء الكريم ان يعود الى الفصل الثاني من مصنف المجلسي الذي سبقت الاشارة اليـه .

(٣) الكليني : الكافي ، الجزء الاول ، ص ٢٥٨ .

(٤) المجلسي : حياة القلوب ، الجزء الثالث .

(٥) الكليني : الكافي ، الجزء الاول ، ص ١٧٨ . يشير الكليني الى قضية الاعتماد على الإمام في معرفة الصواب والخطأ الى انها تتعارض مع رأي عمر بن الخطاب لانه كما تزعم الشيعة – عندما اشرف النبي على الوفاة طلب قلماً وحبراً كي يكتب بلاغاً يلهم الأمة لئلا تضل سواء السبيل رفض عمر الانصياع الى طلبه ، قائلاً « ان الرجل يهذي ، يكفينا كتاب الله » .

النبوّة والأمامة

ان كلّ ما يدلّ على ان النبوّة ضرورية يدلّ على ان الأمامة ضرورية ايضاً . لان الأمامة خلافة النبوّة، وتقوم مقامها في ما عدا تلقّي الوحي من دون وسيط . وكما ان على الله سبحانه وتعالى فلسفياً ان يقيم النبوّة ، عليه ايضاً ان يقيم الأمامة .

اتقاء الاذى

على المسلمين ان يقوا انفسهم من الاذى والشرّ . (ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة . قرآن كريم) . وفي القرآن الكريم آيات لا حصر لها تأمر المؤمن بأن يحيا حياة صالحة طاهرة متقشّفة . ولان المسلمين يعيشون في مجتمعات منظمة – شأنهم في ذلك شأن سائر الناس – فينبغي لهم ان يدينوا بالولاء للأمام او السلطان لكي يدافع عنهم ويحافظ على ممتلكاتهم ولكي يصرف عنهم السوء . بكلام آخر تفرض طبيعة الاجتماع على المسلمين ان يكون لهم إمام . ولكن تجدر الأشارة الى ان تعيين الأمام هنا ليس من الجماعة ، لان الافراد في الجماعة يختلفون في الرأي فيقع الخصام بينهم مما يؤدّي بهم الى التهلكة بَيْدَ ان القصد هو دفع الاذى عن الناس .

وبعد اثبات الحجة على ضرورة قيام الأمام ينتقل فقهاء الشيعة الى ذكر الصفات التي ينبغي ان تتوافر في الأمام ، تلك الصفات الضرورية التي تؤهّله للقيام بوظيفة الأمامة .

العصمة

العصمة من الخطأ هي الصفة الاولى للأمامة. فمن هذه الناحية يكون الأيمة في مستوى الانبياء والرسل وملائكة الله . يقول ابن بابويه – وهو الملقّب عند الشيعة بالشيخ الصدوق (١) – ما معناه : ان عقيدتنا بالانبياء والرسل والأيمة انهم معصومون مُطهّرون من كل دنس ، لا يقترفون إثماً سواء أكان من الكبائر ام الصغائر . ولا يعصون الله في اوامره ويتصرّفون بحسب وصاياه . وكل من ينكر عصمتهم هو جاهل وكافر انا لعلى يقين من عصمتهم . انهم يتحلّون بالكمال والتمام والمعرفة من بَدْء رسالتهم حتى نهاية عمرهم . لا يمكن ان يُعزى اليهم نقص ولا عصيان ولا جهل في جميع الاحوال .

والحجج المنطقية التي يُوردها فقهاء الشيعة اثباتاً لصحة عصمة الأمام ترد في معظم كتبهم وفي كل دقة ووضوح. ويعدّد الحليّ (في الباب الحادي عشر) الأسباب

---

(١) ابن بابويه : رسالات الاعتقادات ، ص ٩٩ .

في اصرار فقهاء الشيعة على ايمانهم الراسخ في عصمة الأمام من الخطأ فيقول :
(١) ان أولى وظائف الأمام ردع الناس عن اقتراف الأثم . فاذا كان هو نفسه غير معصوم وجب ان يكون هنالك امام آخر لردعه عن الخطأ ، فينتج عن ذلك قيام عدد لا حصر له من أيمة يكون الواحد منهم رادعاً الآخر ، وهذا محال .
(٢) إذا احطأ الأمام يترتب على الجماعة إما ان تستنكر وقوعه في الخطأ او ان تتغاضى عنه . فاذا استنكرت الجماعة خطأ امامها فانه لا شك يفقد الثقة التي اولته اياها الجماعة ، وبعد ان يكون هو الرادع يصبح عرضة للردع من قبل الآخرين . وفي هذه الحالة ينتفي شرط تعيينه إماماً ينبغي للناس ان يطيعوه ويقتدوا بسلوكه .
(٣) والعصمة من الخطأ صفة تلازم الأمام لأنه الوصيّ على الشرع . ويعلم كل واحد منا ان مصادر الشرع هي القرآن الكريم ، والحديث المتواتر ، والأجماع ، والقياس . ولكن – يقول فقهاء الشيعة – ان ليس واحدٌ من هذه المصادر بمفرده يصلح لأن يكون الحارس الأمين على سلامة الشرع . وليس القرآن الكريم وحده ولا الحديث الشريف يتضمّنان جميع احكام الله . كذلك الأجماع لا يفي بالغرض لان الناس أئمة وقد يجمعون على الخطأ . وتؤكّد الشيعة صحة الحديث الشريف :
« بعض هذه الامة من بعدي متسلك بموجب الكتاب وبعضهم بموجب الحديث وبعضهم الآخر بموجب القياس ولكنهم يضلّون انفسهم ويضلون الآخرين ولا يبقى من قيّم على الشرع سوى الأمام » .
(٤) ان مَن لا يكون معصوماً من الخطأ فهو ظالم ، ولا يليق بالأمام ان يكون ظالماً . لذا لا يصلح ان يكون إماماً من ليس بمعصوم من الخطأ .
وقد كثر الكلام عن العصمة لدى الأيمة . غير ان الاسباب التي تحمل الشيعة على الايمان بعصمة الأمام لا تعدو الأسباب الاربعة التي جئنا على ذكرها آنفاً .
وقد أفلح فقهاء الشيعة في الربط بين عصمة الأمام وشرط التعيين بواسطة النبيّ . والتعيين هو الصفة الثانية التي تلازم الأمام .

التعيين بالنص

العصمة من الخطأ امر يخفى عن الناس . ولا يعلمه سوى الله سبحانه . ولكن كيف يُعرّف الأمام ، وكيف يُعيّن ؟ وقد أجاب العلاّمة الحلّي في مُصنّفه عن فقه الشيعة (١) عن هذا السؤال بقوله : ينبغي ان يكون الأمام منصوصاً على إمامته لان العصمة من الخطأ امر من القلب والنفس ولا يعلم خفايا النفس سوى الله سبحانه .

---

(١) المصدر ذاته ، ص ٦٣ .

وعليه ينبغي ان يكون التعيين من الله الذي يعلم ان الأمام معصوم من الخطأ . او لا فينبغي على الأمام ان يقوم بمعجزة للتدليل على صدق دعواه . ولنا ان نستنتج من كلام العلاّمة الحليّ ان تعيين الأمام يتمّ باحدى طريقتين . وذلك إمّا باظهار امره الى من هو نفسه معصوم من الخطأ ، اي الى النبي الذي يُعلن امر عصمته وتعيينه الى الجماعة ، او بقيام الأمام بمعجزة تظهر اهليّته لمنصب الأمامة (١) .

غير ان الأمامية تشدّد على ضرورة لنصّ على الأمامة . ينبغي ان يكون هنالك نصّ . فقد اوحى الله سبحانه الى نبيه محمد الذي عيّن علياً خليفة له في خطبة الوداع عند غدير خمّ .

الافضل

والصفة الثالثة التي تلازم الأمام هي الافضلية . اي ان الأمام اهلٌ لأن يتبعه الناس . ومعنى هذا ان الأمام ينبغي له ان يتحلّى بالصفات التي تجعل منه قدوة وزعيماً واميراً . يقول الحليّ :

« ينبغي ان يكون الأمام افضل الناس اطلاقاً . » وهذه صفة ملازمة للأمامة لا يستغنى عنها بغيرها . لانه من غير المعقول ومن غير المعروف بالتقليد ان يكـــون « المفضول » أعلى مقاماً ومنصباً من « الأفضل » . واثباتاً لهذا الرأي يستشهد العلاّمة الحليّ بالقرآن الكريم :

« ... أفمن يهدي الى الحق احقّ ان يتّبع أمّن لا يهدي الاّ ان يُهدى فما لكم كيف تحكمون » (سورة يونس الآية ٣٤) لذا فانه واجب ان تتوافر في الأمام صفة الكمال والأفضلية . كما انه واجب ان يكون ارفع الناس مقاماً في زمانه .

وهكذا فان الأمام يبقى افضل الناس في احواله . فلا يعاشر اهل السوء والسوقة من الناس ، وهو رجلٌ تأبى عليه اخلاقه المكر والجهل والحسد والخشونة والفظاظـــة والطمع والجبن . وهو في طبيعته يكون خالياً من كل نقص وعيب كالجنون والخرس والخمول العقلي او أي عاهة جسدية اخرى تفقده اعجاب الناس به وحبّهم ايّاه . وبعد ان تتوافر فيه هذه الخلال وهذه السجايا يُصبح اهلاً لأن يُتّبع

العلم المحيط

ولكون الأمام الوصيّ على الشرع ، والمرجع الثقة في تفسير القرآن الذي منـــه

---

(١) للقارىء ان يعود الى كتاب يعنى بمعجزات الائمة لمصنفه الرووندي وعنوانه « خرائج الجرائح » .

يستمدّ فتاويه واستنتاجاته ، ينبغي له ان يكون ذكيّ الفؤاد ليدرك معاني القرآن الكريم ادراكاً عميقاً ، وهذا ما تسميه الشيعة بالعلم المحيط . ويورد اهل الحديث من الشيعة ومن جملتهم الكليني زعيمهم في رواية الحديث ، في مصنّفه الكافي حديثاً مؤدّاه ان الأئمة يدركون فوراً المعنى الذي يريدونه (١) .

وتعيين الأمام على هذه الصفة ، وعلى هذه السجايا والمواهب ، موضع اختلاف بين الشيعة الأمامية وسائر المذاهب الاسلامية الاخرى . فعند السنّة اذا اقتنعت الجماعة او الأمّة باستعداد احدهم لهذا المنصب الرفيع فانهم يعترفون به زعيماً دينياً عن طريق البيعة ويصبح الأمام عندهم . غير ان الشيعة الأمامية تتحفّظ بصدد الدور الذي تلعبه الجماعة او الأمّة في تعيين الأمام . يقول المجلسي ان الأمامة سلطة من الله ورسوله ، وليست امراً يتمّ بالاتفاق بين الجماعة او باختيارهم . كما انه ينبغي على كل إمام ان يعيّن خلفه .

ويورد العلاّمة الحلي ، والمجلسي ايضاً ، البراهين والأدلّة على ان تعيين الأمام هو من الله سبحانه وتعالى وبواسطة نبيّه :

اولاً : ان الأمامة « خلافة » من الله ورسوله . ولا يمكن ان يحصل التعيين الاّ بنصّ من كليهما . يقول المجلسي ما مؤدّاه انه من غير المعقول الاعتقاد ان الجماعة تستطيع اختيار امامها . وهذا لا يختلف عن القول غير المعقول ان الناس يستطيعون ان يختاروا نبيّهم او ان يعيّنوه . ان هذا محال .

ثانياً : اذا حصل تعيين الأمام بمجرّد الاعتراف بشخص ما لانه يتحلّى بالصفات التي يتحلّى بها الزعيم او القائد فان ذلك يؤدّي حتماً الى قيام الفتنة في الأمة اذ انهم يختلفون في الرأي فتعيّن فئة منهم اماماً ، وتعيّن الاخرى اماماً آخر ، في الوقت الذي تكون فيه مهمة الأمام الاولى الحفاظ على النظام والاستقرار .

ثالثاً : اذا تُرك امر تعيين الأمام الى الأمة فلا شك في ان ذلك يكون سبباً لنشوء الخصومات والمنازعات وقيام حالة من الفساد كما يبدو في الحجة الثانية اعلاه . والخصومة والمنازعة والفساد امور بغيضة مكروهة تتعارض مع مشيئة الله وارادته . فينبغي للخالق سبحانه — وهو الرحيم الذي يمقت الشرّ والفساد — ان يحسم الأمر وذلك بتعيينه شخصاً اهلاً للمنصب الرفيع ، منصب الأمامة ، فيرعى الشرع ويوفّر الخير للأمّة .

رابعاً : ان الله سبحانه تعالى قد علّم المسلمين بواسطة نبيّه ورسوله دقائق امور عيشهم اليومي ، كقص شعر الذقن والشارب ، وامور أخرى تتعلّق بالنظافة وبالحياة الزوجية ، وذلك في وضوح تامّ . اذاً لا شك في ان تعيين خليفة يقوم مقام نبيّه امر

---

(١) الكليني : المرجع ذاته ، الجزء الثاني ، ص ٢١ .

تفوق خطورته تعليمهم اموراً وقضايا ثانوية كالتي ذكرناها . ولان الله سبحانه لا ينسى عباده ولانه لا يهمل امورهم فكيف لنا ان نتصوّر انه يغفل امر تعيين إمام يحتاج اليه الناس في امور ايمانهم ودينهم ؟

خامساً : وكان من عادة النبي (صلعم) انه عندما كان يغادر المدينة لفترة قصيرة كان يعيّن من يقوم بالسلطة مكانه . وقد قام النبي بهذا الأمر مرّة عندما ذهب الى مكّة التي لا تبعد كثيراً عن المدينة . ولم يترك امر تعيينه لاتباعه . إذاً في مثل هذه الحالة هل يمكننا ان نتصوّر ان الرسول اغفل امر تعيين خلف له ، او انه ترك الأمر للجماعة يتدبّرونه في ما بينهم كيفما يشاؤون ؟

سادساً : بما ان جميع الناس عرضة للوقوع في الخطأ فانه من المحتمل جداً ان يقعوا في خطأ اختيار إمام لهم فيعيّنون من ليس بأهل للمنصب . ونحن نعلم ان من وظائف الخليفة ردْع الظالم وحماية المظلوم . وبما انّ الناس قد لختاروا خطأً فان الأمام المختار من قِبل الناس لا يمكن ان يقوم بوظيفته على الشكل الأتمّ . وكذلك لان الأمام ينبغي ان يكون شخصاً بدون خطيئة ، وبما ان العصمة امرٌ خفيٌّ لا يعلمه الاّ الله ، فقد وجب ، اذاً ، ان يكون التعيين من الله سبحانه تعالى لانه وحده يعلم من هو المعصوم .

ان تعيين الأمام من قِبل الله بواسطة رسوله عقيدة اساسية يأخذ بها كل شيعيّ . والواقع ان المجلسي يبعد الى ابعد من هذا فيقول ان الاسلام ذاته تتقوّض اركانــه ويزول بدون امام منصوص عليه . يقول بدون إمام تبقى احوال المسلمين في كل مكان معرّضة للأخطار . وعليه فان الله سبحانه لو لم يعيّن إماماً ، ولو انّه لم يفرض الأمامة ، يكن بعمله هذا قد أزال أثر نبيّه من الوجود ، وفي هذه الحالة يكون الأيمان بالله وبرحمته ناقصاً غير مُكمّل . ومن يقل بهذا فانّه يكذّب القرآن الكريم وينكر رسالة النبي ، وتكذيب القرآن وانكار رسلة النبيّ هما الكفر عينه (١) .

حقّ عليّ في الأمامة

تتجسّد جميع الصفات التي ينبغي ان تتوافر في الأمام في شخص علي بن ابي طالب . ولذا – تزعم الشيعة – كان النبي يولي امرّ تعليمه وتدريبه اهتماماً خاصاً . ويروي ابن بابويه خبراً يسنده الى سُلَيم ابن قيس الهلالي يقول فيه علي عن نفسه (٢) انه كان يزور النبي كلّ ليلة وكل نهار في خلوة خاصة لا يعلم احدٌ بها. «وكان يجيبني

(١) Majlisi, op. Cit. in Donaldson. *The Shi'ite Religion* 319.

(٢) ابن بابويه : رسالات الاعتقدات ، ص ١٢٢ .

عما كنت اسأله . كما اني كنت اتبعه انّى ذهب . وكان الصحابة يعلمون ان النبيّ لم يتصرّف مع احد من الناس كما كان يتصرّف معي . وكانت هذه الاحاديث الخاصة تتمّ في بيتي . وكنت كلما قصدت زيارته في الاماكن التي كان يقيم بها كان يحاول ان احلو معه ، فكان يسأل زوجاته ان يغادرن المكان فلا يبقى في المنزل سوانا نحن الاثنين . كذلك كان النبي عندما يزورني يطلب الى كل احد ان يغادر المكان ، باستثناء فاطمة ، وأحد ابنيّ ، كي نكون وحدنا . وكنت اذا سألته عن امر أجابني . وكنت اذا فرغت من طرح الاسئلة عليه كان يبدأ هو بطرح الاسئلة عليّ حتى لم يبقَ شيء من الوحي الذي اوحي به اليه، او من التعليم الذي علّمه اياه الله سبحانه، او من آيات القرآن ، وكل ما له علاقة بالحلال والحرام والأوامر والنواهي والامور السالفة والعتيدة ، لم يخلِ لي . وكان يعلّمني ويطلب لي ان اقرأها . وكان يملي علي هذه الامور فادوّنها انا بنفسي . وكان يفسّر لي تأويلها وظاهرها وباطنها وكنت استظهرها فلا يفوتني حرفٌ منها » .

وينتهي الخبر الى ان الرسول سمّى الايمة الأحد عشر الذين سيخلفون علياً في الأمامة . ويؤكّد فقهاء الشيعة – ومن جملتهم ابن بابويه – صحة هذا الخبر ، ويشيرون الى لقاء جرى بين سُلَيم ابن قيس الهلالي وبين الحسن والحسين ، إبنَي عليّ ، في عهد معاوية . فقصّ عليهما الخبر عليهما فقالا له انك صادق في قولك . كما ان فقهاء الشيعة يعدّدون الادلة والبراهين على صحة امامة علي في جميع مصنّفاتهم . والواقع ان بعض هذه المصنّفات قد خصّ هذا الموضوع ذاته بمصنّفات لا تبحث سوى في سرد هذه الادلة والبراهين . وقد كان ابن مُطهّر الحلي احدّ أولئك الفقهاء . فانه ألّف كتاباً عالج فيه هذا الموضوع وحده . وعنوان مصنّفه هذا « كتاب الألفين » أي ألفا دليل وبرهان على صحة إمامة علي. وسأحاول ان ألخّص في صورة عامة مقتضبة هذه الادلّة .

اولاً : يورد فقهاء الشيعة عدداً من الاحاديث النبوية حول حقّ علي في الأمامة ، منها « سمّوا عليه بإمرة المؤمنين » ومنها « انك خليفة بعدي » ويستنتجون من هذه الاحاديث انها اشارات واضحة الى ان علياً هو الأمام بعد النبي .

ثانياً : كان علي افضل الناس في زمانه. وهو افضلهم لاسباب عديدة اهمها سببان : (أ) يورد فقهاء الشيعة احاديث عن النبي يقول فيها ان علياً كان مساوياً له . ومن المعلوم ان النبي كان افضل الناس ، اذاً وجب ان يكون المساوي له افضل الناس ، والا – وهذا واضح بيّن – لما كان مساوياً له (ب) وكان علي افضل الناس لانه كان الشخص الوحيد من جماعة الصحابة الذي احتيج اليه في قضية المباهلة . ومن كان يعتقد افضل من الذي لا يُفتَقَدُ اليه . كما انه احتيج الى عليّ عندما جرى الحوار

مع نصارى نجران الذي دار حول صحة نبوّة محمد .

ثالثاً : لم يكن احد من بين الذين طالبوا بالخلافة من كان معصوماً عن الخطأ سوى عليّ . وعليه فانه كان الرجل الوحيد المؤهّل لهذا المنصب الرفيع . وتتفق الشيعة على ان ابا بكر والعباس ــ وهما من اكابر الذين طالبوا بالخلافة بعد وفاة النبي ــ لم يكونا معصومَيْن عن الخطأ . ولم تثبت سوى عصمة علي فكانت الأمامة من حقه .

رابعاً : كان عليٌ أعلم اهل زمانه بعد رسول الله . ويذهب فقهاء الشيعة الى ايراد الاثباتات والادلة على صحة هذا القول ، فيقولون : (أ) كان شديد الحرص على العلم ، كما انه كان قوي الحدس ذكيّ الفؤاد . وعندما تتوافر هذه الصفات والسجايا في شخص واحد ينبغي للمسلمين ان يعتبروه اعلم الناس قاطبة . (ب) ويبدو جلياً لعلماء الشيعة من مطالعتهم كتب التاريخ والسير انّ الصحابة ، ومن بعدهم التابعين ، كانوا يستشيرون علياً في المشكلات الدينية والقضائية التي كانوا يجابهونها . وكانوا في غالب الاحيان يرجعون اليه لإسداء الرأي ، وكانوا يتفقون فيما بينهم مسبقاً على ان يقبلوا بحكمه حتى وان جاء حكمه هذا مخالفاً لرأيهم . وهذا القول في ان علياً كان مرجعاً يرجع اليه في المسائل الدينية والقضائية يأتي موافقاً لما كانت تقول به المعتزلة والأشعرية والأمامية ، فانها كانت ايضاً هي تحترم علمه واقتداره . وكانت المعتزلة تُجلّ علياً لعلمه وتُكبر فيه حكمته ، لانها كانت عادةً ترجع في امورها الى ابي علي الجبّائي ، وهذا كان في امور العلم يرجع الى ابي هاشم بن محمد ابن الحنفية الذي كان يرجع الى ابيه عليّ . اما الاشعرية فلأنها كانت ترجع الى ابي الحسن الاشعري الذي كان تلميذاً لابي علي الجُبّائي . واما سبب رجوع الأمامية الى عليّ فظاهر ، ذلك بأنهم اتباعه . (ج) وقد قال النبي مرّة عن عليّ : « انه افضلكم قاضياً » . وبما ان القضاء يتطلب معرفة علوم مختلفة فان علياً ، كما تقول الشيعة ، كان سيّد القوم في امور القضاء .

خامساً : انّ ما كان عليه عليّ من خلق كريم وزهد في الحياة ــ وقد برهن على ذلك بالفعل لا بالكلام فقط ــ حتى انه « طلّق الدنيا ثلاثاً » (١) يكفي ليجعل منه رجلاً مؤهّلاً لمنصب الأمامة .

ان الادلة على اثبات امامة علي اكثر مما يستطيع احد ان يحصيها في مثل هذا المقام . وكان فقهاء الشيعة يفسّرون آيات قرآنية عديدة ويؤولونها بطريقة تثبت صحة

---

(١) الحلبي ، ابن مطهر في المرجع ذاته ص ٧٠ ويكثر فقهاء الشيعة من ذكر خبر يقول ان الدنيا جاءت اليه بصورة فتاة جميلة فطلقها ثلاثاً فلم تعد تصلح ان تكون له زوجة شرعية .

دعواهم . وخطبة الوداع عند غدير خم اثبات وبرهان قاطع يأخذون به (١) . ومن الادلة على امامته المعجزات التي عملها بيده . ومنها معجزة ازالة البوابة الضخمة في حصن خيبر . والتحدث مع الحيوانات الضارية من على منبر الكوفة ، ورفعه حجراً ثقيلاً عن فم بئر لم يستطع الجيش ان يرفعه . وارجاع الشمس القهقرى ثم اعادتها الى مجراها الطبيعي (٢) .

وبعد اثبات حق علي في الأمامة يأخذ فقهاء الشيعة باثبات حق ابنائه فيها من بعده. ويوردون اثباتاً لذلك احاديث لا يرقى الى صحتها شك جاء فيها ذكر الايمة الأحد عشر الذين سيتعاقبون عليها من بعد الأمام علي (٣) . ويقولون ان في سيرة النبي محمد التي كتبها علماؤهم حديثاً عن النبي انه قال لحسين بن علي ما مؤداه ان هذا هو ابني حسين ، إمام وابن إمام واخو إمام ووالد لتسعة ايمة والتاسع منهم هو القائم وهو افضلهم . ومن الادلة التي يوردونها لاثبات حق ابناء علي في الأمامة الخبر الذي يرويه علماء الشيعة في كتب تفسير القرآن – اي في مصنفاتهم من كتب التفسير – عن جابر بن عبد الله الانصاري بمناسبة تفسير الآية الشريفة : «يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم ...» (سورة النساء ، الآية ٥٨) اذ قال جابر للنبي : يا رسول الله اننا نعرف الله ونطيعه ونعرفك انت ونطيعك ، ولكن من هم اولو الأمر منا الذين يأمرنا الله بطاعتهم ؟ ويزعمون ان الرسول أجاب قائلاً : يا جابر هم خلفائي واصحاب الرياسة من بعدي . واولهم علي ، ومن بعده ابنه الحسن ثم ... ثم ... الى ان جاء النبي على ذكر اسماء الايمة الاثني عشر وآخرهم سيملأ الارض قسطاً وعدلاً بعد ان ملئت جوراً وظلماً (٤) .

الخلاص بشفاعة الأيمة

ان نظرة الشيعة الى مصادر الشريعة الاسلامية تختلف اختلافاً كلياً عن نظرة السنّة اليها . فالسنّة تعتبر المصدر الاوّل للشرع القرآن الكريم ثم الحديث الشريف (السُنّة) والاجماع والقياس . ولكن الشيعة ، في صورة عامة ، يتطلّعون الى إمام بالتعيين من

---

(١) اما في ما يتعلق بغدير خم فان علماء الشيعة يؤكدون ان ابن حنبل ، وهو صاحب المذهب الحنبلي السني ، جاء مراراً على ذكر الحادثة في مسنده كما هو مذكور في كتبهم ولا سيما في الكتب الاربعة المشهورة .

(٢) الراوندي : خرائج الجرائح .

(٣) الحلي ، المرجع ذاته ، ص ٢٧٥ .

(٤) الحلي ، المرجع ذاته ، ص ٧٩ .

قبل الله بواسطة رسوله يستطيع وحده تفسير القرآن ويدرك معناه الباطني (١) .

وبسبب هذا الخلاف الجوهري في النظرة الى الاسلام ، فان الشيعة تنظر الى قضية خلاص الانسان من زاوية تختلف عن نظرة السنة . فان الخلاص البشري ، في نظر الشيعة ، لا يتمّ ، كما ترى السنة ، بواسطة اتباع أحكام القرآن ، اي ان تكون حياة المسلم منسجمة مع اوامر الله ونواهيه كما نصّها الوحي ، وانما بواسطة إمام الزمان . ولذا فانه مفروض على الشيعي ان يعرف إمام زمانه ، وان يتّبعه كقائد مثالي . وهذا الأمام المتّبع يشفع له يوم الحساب كي تُغفر له زلاّته ، لانّ الشفاعة لدى الله هي وقفٌ على الانبياء والايمة . لهم وحدهم حق الشفاعة . اذا كان الأمام في الغيبة يقوم مقامه لدى الشيعة المجتهد الاكبر الذي يمثّله ، والذي يجب ان يُتّبع وان يُطاع . وعليه وجب على كل انسان يبغي الخلاص ان يُقيم بينه وبين الأمام او ممثّله علاقات روحية ، مباشرة او غير مباشرة ، لكي يضمن لنفسه الشفاعة . والعبادات التي يقوم بها العبد وما تنطوي عليه من عناء ومن تكريس للذات لا تغني عن الايمان بأمام الزمان . والرجل الذي لا يعرف إمامه ، يقول الامام باقر ، يشبه حملاً أضاع راعيه ، واضاع قطيعه فسار يومه تائهاً . وينتهي مثل الخروف الضال بان يلقاه ذئب يفترسه . ثم يلي ذلك تحذير خطير يُعزى الى الأمام باقر يقول فيه : هكذا تكون حال الانسان الذي يستيقظ يوماً ليجد نفسه بدون إمام فيسير في الحياة تائهاً الى ان يوافيه اجله فيموت موت الكافرين . وعليه فانه من المستحيل على الانسان معرفة الله وعبادته العبادة الصحيحة ما لم يكن هذا الانسان على معرفة إمامه . ويظهر من هذا القول ان الانسان لا يستطيع ان يحصل على معرفة الله الاّ بواسطة معرفته الأمام (٢) .

ولدى الشيعة كتب ومصنّفات مليئة بالأحاديث والشروح التي تتناول هذه القضية ، والتي تثبت ان خلاص النفس البشرية لا يتمّ الاّ بشفاعة الايمة . يروي ابن بابويه — ويُعرف بالشيخ الصدوق — ان الأمام باقر قال ان رسول الله قال لعلي ما مؤدّاه ان هناك ثلاث حقائق ثابتة ، وهي اولاً انّك وابناءك من بعدك ستكونون شفعاء للناس ، اذ انهم لن يعرفوا الله الاّ بواسطتكم . والحقيقة الثانية انك ستشفع في حضرة الله لأولئك الذين سيدخلون الجنة ، اي اولئك الذين اعترفوا بك واعترفت انت بهم . والحقيقة الثالثة انك الشفيع الاوّل المطلق لان الذين مأواهم جهنّم هم أولئك الذين لم يعترفوا بك اماماً ولا اعترفت انت بهم أتباعاً . ويقول المجلسي (٣)

---

(١) «تحفة الزائرين» ، ص ٣٦٣ .

(٢) راجع الكليني ، الجزء الثاني ، ص ٢١ ، ٢٨ ، ١٨٠ .

(٣) المجلسي ، نقلا عن دونالدسون ، ص ٣٤٥ .

في كتابه «حياة القلوب» نقلاً عن الأمام باقر (١) ، ان الرسول قال ذات مرة لعلي ما مؤدّاه: يا علي انك ستجلس معي يوم القيامة ومع جبرين عند الصراط ولن يستطيع احد ان يعبر الصراط الى الجنة ما لم يرخص له بالدخول ، وما لم يكن من مريديك الاوفياء . ويسمّي ابن بابويه الايمة بقوله انهم ابواب الله ، والسبيل اليه والأدلاء اليه ، ومفسرو وحيه ومستودع علمه (٢) . والايمان لدى الشيعة محبة الايمة ، والكفر كرههم . وكلما زادت محبة الفرد للايمة ارتفع مقامه بين جماعة المؤمنين . ويسرف المجلسي في نظرته عندما يحاول تقرير شروط دخول الجنة والجحيم . فيؤكد ان ذلك يتوقف على ايمان الفرد بالأمام او رفضه له . ويعتقد معظم علماء الدين لدى الشيعة ان الذين يرفضون الايمان بالأمامة ، باستثناء الحمقى والمغفلين منهم ، سيدخلون النار شأنهم في ذلك شأن سائر الكفار . ثم انه يحدد معنى الحمقى والمغفلين بقوله انهم الذين ، بسبب ضعف في عقولهم ، لا يستطيعون ان يميّزوا بين الخير والشر . ومثال على الاحمق المغفل هو ذلك التاعس الحظ الذي وُلد وترعرع في حريم ملك سني .

والصلوات التي تؤديها جموع الشيعة في زياراتهم لاضرحة الايمة في النجف وكربلاء والكاظمين وسامراء ، او في المدينة تحتوي على ادعية وتضرعات تعكس عقيدتهم الثابتة ، والتي تؤكدها هذه الصلوات ، من ان هؤلاء الايمة هم شفعاء يشفعون لهم . ويورد المجلسي في كتابه «تحفة الزائرين» – وهو اشبه بدليل للزائر للأمكنة المقدسة عندهم – عشر صلوات طويلة تصلح لأن تتلى في اثناء زيارة النجف الأشرف . ومعظم هذه الصلوات تعزى الى ايمة مختلفين ، وقد تداولها مئات الالوف من الحجاج على مدى قرون عند زيارتهم مزار علي في النجف الاشرف (٣) . ومن ينظر جيداً في الألقاب التي يغدقونها على الايمة لا يتمالك عن القول إن السبيل الوحيد الذي

---

(١) نذكر القارىء بنظرة الشيعة الى صحة الحديث او عدم صحته . فاذا كان الحديث يسند الى احد الأيمة فهو حديث صحيح ، وليس من الضروري ان يعود الاسناد الى النبي ، لأن الإمام معصوم من الخطأ .

(٢) ابن بابويه ، المرجع ذاته ، ص ٩٦ .

(٣) بعض ما يرددونه في هذا المقام : السلام عليك يا حبيب الله ، السلام عليك يا حجة الله ، السلام عليك يا خليفة الله ، السلام عليك يا حارس الجنة والنار . اشهد انك كلمة التقوى ، وباب الهداية والأسس المتين والطود الراسخ والصراط المستقيم . وأشهد انك حجة الله لخلقه ، والشاهد لعبده ، والوصي على علمه ، ومستودع اسراره ، وموضع حكمته ، وأخو رسول الله ... الخ من العبارات المشابهة لهذه الأقوال .

يؤدّي الى الله، بحسب هذه الصلوات، هو عبر تكريم الايمة ومحبتهم وتقديس ذكرهم. ولا يمكن لمسلم ان يكون رجلاً تقياً ورعاً اذا كان لا يعرف « كلمة التقوى » — وهذا من القاب الأمام — ولا يمكن له ان يهتدي ما لم يمرّ بـ « باب الهداية » وهو الأمام. ومن يدرس الألقاب التي يلقبون بها الايمة يدرك، كما ادركنا نحن، ان السبيل الوحيد الى الله لا يكون الاّ عبر الأمام.

عقائد ثانوية

ان الرجل الذي يؤمن بضرورة الأمامة، وبالصفات التي يتحلّى بها الأمام وبالالقاب التي يُعرَف بها، وان الأمام مُعيّن بالنصّ، وبحق عليّ في الأمامة، نقول ان الرجل الذي يؤمن بهذا كله يُصبح مسلماً شيعياً تقياً ورعاً. هذه الأركان الاربعة للعقيدة الأمامية تشكل المبادىء العظمى الأساسية في مذهب الاثني عشرية. غير ان لدى الاثني عشرية اركاناً اخرى ثانوية منها :

١ ـ المسألة

تعتقد الشيعة ان هناك موتتين مختلفين، الموت في هذه الدنيا، والموت في اللحد. ويروي لنا ابن بابويه في كتابه « رسالات الاعتقادات » خبر دفن فاطمة بنت اسد ام عليّ (١). بعد ان قبضها الله حملها النبي بذراعيه ووضعها في اللحد. ثم انحنى فوق جثمانها واخذ يتمتم بصوت منخفض مدة طويلة من الوقت مردداً قوله : « ابنك، ابنك ». وعندما خرج من القبر سألته الصحابة ان يقول لهم ما الذي كان يردّده. فقال لهم انه عندما كان في القبر راح ملاكان يسألانها عن مولاها، فقالت : الله مولاي. ثم سألاها عن نبيّها فقالت : محمد. ثم سألاها مَن هو إمامها ووليها، فتردّدت وتلعثمت برهة. فذكّرها النبيّ قائلاً لها : « ابنك، ابنك. » بعد ذلك غادر الملاكان القبر قائلَين ان لا سلطة لنا عليها. ثم، يقول ابن بابويه، انها ماتت ميتتها الثانية، والشاهد على هذا قوله عزّ وجل : « قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل » (سورة غافر الآية ١٠) (٢).

٢ ـ الحوض

في الجنة حوضٌ يُعرَف بالكوثر، والساقي يوم القيامة سيكون الأمام علياً بن

---

(١) ابن بابويه : رسالات الاعتقادات، ص ٦٠.
(٢) المصدر ذاته، ص ٥٤.

ابي طالب . وسيسقي اصحابه واتباعه ويمنع اعداءه من الاقتراب اليه . وتعتقد الشيعة ان من يشرب منه مرة لا يعطش ثانية . ويزعمون ان النبي قال مرة عن الحوض ان جماعة من اصحابي سيحرون امامي وانا واقف عند الحوض ويرمون في النار فأصيح هم اصحابي ، هم اصحابي يا الله ! فيجيبني سبحانه انك لا تعلم ماذا فعلوا بعدك(١) .

٣ ـ الأعراف

والأعراف سور بين الجنّة والنار : «وعلى الاعراف رجالٌ يعرفون كـلاً بسيماهم ...» (قرآن كريم ، الاعراف : ٤٥) وتعتقد الشيعة ان أولئك الرجـال الوارد ذكرهم في الآية هم النبي واوصياؤه ، اي أيمة الاثني عشرية . ولا يدخل احدٌ الجنة اذا لم يكن يستطيع ان يعرف الايمة او اذا كان الايمة لا يعرفونه . ولا يدخل النار سوى من ينكر حقّهم في الأمامة ، او من تنكره الايمة . وهكذا نرى ان دخول الجنة او النار امر يتعلّق بالنبي والايمة ، اي انهم هم الذين يقرّرونه . كما انه ظاهر ، بحسب هذا المعتقد ، ان الشيعة هم الوحيدون الذين سينعمون بنعيم الجنة لانهم هم الذين يعرفون بحق الايمة .

٤ ـ الصراط

وهو جسر يمتدُّ فوق جهنم . وهو المكان الذي على البشرية ان تمرّ عليه . وقد ورد ذكره في القرآن الكريم : «وان منكم الاّ واردها كان على ربّك حتمـاً مقضياً» . (سورة مريم : ٧٠) . وتزعم الشيعة ان النبيّ قال ذات يوم لعليّ : يا علي اني سأجلس يوم القيامة عند الجسر معك ومع جبريل ولن يمرّ احد ما لم يبرز سجلاً بالمغفرة بفضل ولائه لك (٢) . وتعترض الجسر عقبات ولكل عقَبة منها اسم تُعرَف به . فهناك عقبة الفرص والأمر والنهي ، وتضيف اليها الشيعة عقبة الولاية وهي محبة الايمة . وعند كل عقبة يمرّ الانسان الذي بُعث من قبره ويستوقف لكي يفي ما عليه من دَيْن لله سبحانه . حتى وان اجتاز المسلم جميع العقبات تظل امامه العقبة الرئيسية الخطيرة ، عقبة الولاية للأيمة . جميع البشر سيستوقفون عند هذه العقبة ليُسألوا عن حبّهم وتعلقهم بأمير المؤمنين علي ، وبالأيمة من بعده . ومن كان لديه الجواب الصحيح نجا وسُمِح له بعبور الجسر (٣) . والرجل السيّء الطالع هو من لا يستطيع

---

(١) المصدر ذاته ، ص ٦٧ .
(٢) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ٧٢ .
(٣) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ٧٣ .

ان يعطي جواباً فيقذف به الى نار جهنم . ولكن يستطيع الأمام عليّ والأئمة ان يشفعوا له ، والله غفور رحيم فيخرجه من النار بشفاعتهم كما يقول الأمام عليّ (١) .

٥ ـ الظالمون

ان معنى الظلم الحرفي وضع الشيء في غير موضعه ، ومثال على ذلك من يدّعي الأمامة وهو ليس بأمام . فان أبا بكر وعمر وعثمان أمثلة على ذلك . فان الشيعة تعتبرهم الغاصبين الثلاثة ، وليس اسهل على الشيعي من ان يفهم معنى الظلم كفهمه هذه القضية ، اي اغتصاب حقّ علي في الأمامة على يد هؤلاء الثلاثة. وتقول الشيعة ان الظالم لا يتردّد في اختلاق الفريّة على الله سبحانه تعالى . ويستشهدون بالآيتين الشريفتين : « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يُعرضون على ربهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون » . (سورة هود : ١٧ ، ١٨) . وتفسّر الشيعة عبارة « سبيل الله » على انها تعني علياً بن ابي طالب والأئمة من بعده . وليس الظالم من يدّعي الأمامة وهو ليس أهلاً لها ، بل الظالم ايضاً مَن ينسب الأمامة الى من هو ليس اهلاً لها (٢) . والظلم عند الشيعة يؤدّي بصاحبه الى الكفر . ولذا تعتبر الشيعة كلّ من حارب علياً كافراً (٣) . ويوجز ابن بابويه قضية الظلم بقوله ان من كان ايمانه يخالف ايماننا (اي الايمان بعليّ وبالأئمة من بعده) ليست له اي صلة بدين الله. ومعنى قوله هذا ان مَن لم يكن شيعياً فهو ليس بمسلم .

٦ ـ التقية

ومعنى التقية تحليل او إعفاء من متطلبات الدين ، اوامره ونواهيه ، تحت الضغط ، او التهديد ، لدفع الأذى (٤). ويعرّف الاستاذ برون بالتقية انها نوع من التخفّي الذي يفرضه التعقيل (٥) في ظروف خاصة . وافضل شاهد على معنى التقية ما ذكره ابن بابويه عن الأمام جعفر الذي قال لقد اسمعُ الرجلَ يسبّني في المسجد فاختبيء وراء عمود كي لا يراني . وقال عاشروا الناس ظاهرياً وخاصموهم باطنياً طالما ان الأمارة

---

(١) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ٥٤ .
(٢) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ١٠٧ .
(٣) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ١٠٨ .
(٤) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ١١٠ .
(٥) E.G. Browne: Persian Literature IV P. 17.

رأي شخصي .

فالتقية اذاً فرض على كل شيعي ينتمي الى الاثني عشرية (١) . وهي وسيلة ينتفع بها في علاقاته مع المرائين والكفّار ، اي المسلمين من غير الشيعيين ، ومن المشركين ، وتجعله حذراً لبقاً في تصرّفه معهم . ويزعمون ان الأمام جعفر قال : «ان الرياء مع المؤمن شرك ومع المنافق من اهل الرجل وبيته عبادة» (٢) . والتقية واجبة الى ان يظهر الأمام القائم .

ويشدّد ابن بابويه على هذه النقطة ذاتها فيقول إن مَن يتخلّى عن ممارسة التقية قبل ظهور قائم الزمان يكون خارجاً عن دين الله ويكون قد عصى الله ورسوله وإمامه (٣) .

نلاحظ من هذا ان الشيعة في عقائدها الأساسية الاولى تركّز على اهمية «إمرة» اهل البيت . اما في عقائدهم الثانوية فانهم يركّزون على نقطتين : (أ) على حتمية شفاعة الأيمة لأهل الشيعة . (ب) وعلى انهم ، من بين البشر ، الفرقة الناجية التي تدخل الجنة بدون حساب وعقاب .

ان أثر هاتين العقيدتين : إمرة اهل البيت وشفاعة الأيمة لهم يوم الحساب ، يبدو جلياً في تصرّفهم السياسي في جميع الأقطار ولا سيما في ايران والعراق . والعقيدة الأولى (إمرة اهل البيت) تفرض على كل شيعي ان يبدي الطاعة التامة والولاء الخالص لممثل الأمام (القائم) . والعقيدة الثانية (شفاعة الأيمة لهم) تجعل من الشيعي رجلا متصلباً عنيداً في مواقفه السياسية . اذ اي بأس عليه اذا وقف مثل هذه المواقف في الحياة الدنيا ما دام الأمام سيشفع له حتماً يوم الحساب ويضمن له الجنة ؟ وقبل ان نحاول تفسير التصرّف او السلوك السياسي لدى الشيعة ينبغي لنا ان نتفهّم عقائدهم الأساسية والثانوية تفهماً عميقاً ، لانّ خلفيّة العقلية الشيعية لا تفرّق اطلاقاً بين السياسة والدين .

---

(١) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ١١٢ .

(٢) نعمان ق ، كتاب الاشربة .

(٣) ابن بابويه ، المصدر ذاته ، ص ١١١ .

القانون العُرفي الذي به تحسم الخصومات بين العشائر الشيعية في جنوبي العراق

ان القوانين غير المدوّنة المتعلّقة بالخصومات الجرائمية الجزائية وبالخصومات المدنية بين العشائر الشيعية تُعرَف « السواني » وهي لفظة عامية مشتقة من « السنّة » . وهذه القوانين تنظّم العلاقات العشائرية بحسب العرف الموروث . ففي كل عشيرة عدد قليل من رجال القبائل الذين يعرفون السواني معرفة جيدة ويُعرَفون لديهم به العوارف ، اي الذين يجيدون معرفة القانون الموروث . وهؤلاء العوارف هم في الواقع قضاة العشيرة الذين تُقبل الاحكام التي يلفظونها على انها احكام عادلة غير منحازة ، لا بل تقبل على انها احكام مُبرَمة لها مسحة من التقديس . ولقد كانت الخصومات التي تقع بين افراد العشيرة ، او بين عشيرة واخرى . تُحسَم بحسب قوانين السواني منذ اقدم الازمنة . ولكن عندما احتلّ الانكليز العراق دوّنوا هذه القوانين وجعلوا منها شريعةً مكتوبة للعشائر . غير ان الانكليز حاولوا عمداً ان يحوّروا قوانين السواني ببراعة كي تكون في ايدي شيوخ العشائر أداةً بها يحافظون على الأمن والنظام بين القبائل (١) . وقد اعترفت الحكومة العراقية الموقتة التي تشكلت سنة ١٩٢١ بالسواني على انها قوانين صالحة لتنظيم المجتمع القبلي في العراق . والعشائر تعتبر الاسلام مصدراً ثانوياً للقانون ، اذ ان السواني تعتبر القانون العُرفي المعترف به بينهم . وفي بعض الحالات اذا وقع تصادُم او تناقض بين السواني والشريعة الاسلامية فان القبائل تؤثر ان تأخذ بالسواني كما سيبدو ذلك للقارىء في سياق الحديث . والواقع ان العشائر تعتبر السواني افضل ضمانة لخيرهم ولسلامتهم واستقرارهم ووحدتهم القبلية (٢) .

نشأت السواني مع نشأة القبائل في التاريخ السحيق . فاذا ، مثلاً ، اصدر العوارف حكمهم في قضية او اكثر فان الحكم هذا يصبح سابقةً يلجأ اليه العوارف من بعدهم

---

(١) في منطقة سوق الشيوخ في لواء المنتفق تعيش احدى وعشرون قبيلة غير ان الادارة الانكليزية المدنية في العراق لم تعترف الا بسلطة شيخ واحد هو سالم الخيون .

(٢) الفرعون : القضاء العشائري ، ص ٣٤ .

عند نظرهم في قضايا مشابهة ، كما أنه يصبح قانوناً معترفاً به ، اي انهم يتبعون القياس في احكام كهذه . ولكن اذ وقعت جريمـــة جديدة غير مألوفة ولا يعلمون كيف يصدرون الاحكام في حق المجرم فان شيخ القبيلة يدعو العوارف الى اجتماع يدرسون فيه القضية درساً وافياً عميقاً قبل اصدار الحكم . وكثيراً ما يطول تداولهم الأمر الى ايام قليلة . ثم يصدرون الحكم النهائي ويعطونه الى رسول ينقله الى القبائل الأخرى ليأخذوا به اذا احتاجوا اليه وعندهم تقليد يعرف « النهوة » وهو عرف يمنـــع زواج بنات الاعمام من شخص لا ينتمي الى العائلة (ويسمّونه اجنبياً) . لان الافضلية في مثل هذا الزواج من حق ابناء اعمام البنت ، ولهم ان يقتلوا منافسهم الاجنبي اذا وقع مثل هذا الزواج . وهذا التقليد يتعارض مع الشريعة الاسلامية ، ولكنه تقليد لا يزالون يعملون بموجبه بين العشائر الى يومنا هذا . فان الدين عندهم هو نوع من التصرف والسلوك الذي يفرض عليهم من الخارج ، بينما يعتبرون السواني قانوناً وعرفاً نشأ معهم . ويتعاطف مع شعورهم وتقاليدهم الموروثة . غير انه حريّ بنا ان نذكر ان العشائر قلّ ان ترفض فتوى اصدرها علماء النجف وذلك لما للنجف عندهم من حرمة ومقام لانها لا تأتمر في مثل هذه الأمور بأمر الحكومة المركزية في بغداد .

فالسواني ، اذاً ، تضع حدوداً للمجتمع القبلي وتضبط تصرفه وسلوكه الاجتماعي فاذا تجرأ احدهم على ان يتجاوز هذه الحدود يعتبر خارجاً يستحق العقاب ، وقلّ مَن ينجو من عقاب كهذا . وقد نشأ قانون جزائي غير مكتوب لمعالجة امر الاعتداءات والجنح والجرائم التي من شأنها ان تعرّض سلامة القبيلة وخيرها ووحدتها . ومن اهم بنود هذا القانون – السواني – نذكر العصبيّة وحق القصير ، والدخالة ، والوجه . اما العصبية فعهد يأخذه الفرد في القبيلة على نفسه ان يهبّ الى السلاح للذود عن قبيلته او للهجوم على قبيلة اخرى . فسلامة القبيلة وضمان وحدة العصبة امر يعود الفضل فيه الى هذه الخلّة : العصبيّة . والعصبية ، اذاً ، هي مسؤولية فرديّة وجماعية نحو القبيلة (١) . و« السودا » هي اي نوع من الجرائم او الجنح التي تمس المرأة بسوء . والمرأة موضع شرف القبيلة . واي شيء ، واي شخص يصيب امرأة باهانة او ضرّ فان شرف القبيلة كلها يكون قد تعرّض للاهانة . كذلك جميع جرائم الجنس تدخل ضمن « السودا » و« السودا » مشتقة من السواد ، واسوداد علامة الغضب والاستياء اللذين تبديهما القبيلة نحو المجرم . واحترام المرأة في القبيلة هو في الواقع احترام شرف

---

(١) ان محاكم العراق تبدل عقوبة الموت اذا كان المتهم قد قام بجريمة القتل خارج نطاق الشيرة ، اذ العصبية القبلية .

القبيلة والحفاظ على سلامتها وامنها (١) . واحترام المرأة دليل آخر على احترام العائلة وقدسيتها بين العشائر . ولذا تُصِرُّ القبائل على انزال الموت عقاباً لمَن يزني باحدى نساء القبيلة . وينتظر من كل فردٍ ان يهبَّ الى نجدة افراد القبيلة في أي خصومة تنشأ فيها باستثناء الفرد الذي يقترف الجريمة السوداء . وللقبيلة ان تُخرج الزاني من عدادها وتجبره على هجر القبيلة ومضاربها . وعلى كل فرد من افراد القبيلة ان يهبَّ الى نجدة المرأة التي « تصيح » اي تستصرخ طالبة المعونة والحماية . واذا ، لسبب ما ، غادر فردٌ قبيلته وارضه فانه يطلب الحماية والحق في اللجوء الى قبيلة أخرى آملاً ان يتقبّلوه كقصير : ولفظة قصير مرادفة للفظة حليف . واذا مُنِح هذا الحق فانــه يُعامل في القبيلة كعضوٍ منها ، وان كان لا يزال يُعتبر غريباً لاجئاً اليها . ومع هذا فانه قد يُعطى أرضاً له ولمواشيه ليقوم بأود عيشه . ولكن لا يجوز للقصير ان يحمل سلاحاً ، ولا يُطلب اليه ان يحارب ذوداً عن العشيرة ، لان شَرَف الدفاع عن القبيلة وَقْف على ابنائها . كذلك اذا اعتُدي عليه او هوجم فان شيخ القبيلة يعتبر هذا التعدّي مُوجّهاً ضد القبيلة المضيفة ، وعليه ينبغي للعشيرة كلها ان تثأر له من المعتدين . وقد وقعت حروبٌ قبلية عديدة بين قبائل العراق سببها حوادث تعدٍ فردية على القصير . فان القصير يعتبر كضيف . غير ان الضيف يكرّم ويحامى عنه في مدة معيّنة مقدارها ثلاثة ايام ، بينما القصير هو ضيف القبيلة الى مدّة طويلة غير محدّدة . وكلُّ من لا يحترم ضيفه ، وكلُّ من لا يحامي عن قصيره لا يستحق كرم الله وفضله . لذا يقال عن الضيف انه « ضيف الله » وتعلم القبيلة ان قبول انضمام القصير الى صفوفها يعني مزيداً من المسؤولية ، وهذا ما يفسر لنا سبب تردُّد القبائل المستضعفة في قبول القصير لاجئاً اليها . واذا تعدّى رجل من القبيلة على ضيفه او على القصير فان شيخ القبيلة قد يأمر بأحراق منزله .

اما القانونان المهمان الباقيان من قوانين العشائر العُرفية فهما الدخالة والوجه . عندما يكون هناك رجلٌ عشائري مستضعَف ينتمي الى قبيلة مستضعفة لا تستطيع توفير الحماية له ، واذا كان مثل هذا الرجل يخشى على نفسه من التعدّي فانه يلجأ الى قبيلة شديدة الشكيمة حيث يُقبَل على انه دَخيل . والدخالة قديمة العهود في القبائل قدم الضيافة والكرم للضيف وللقصير . ولكن وَضْع الدخيل يكون لمدّة معيّنـة تنقضي بانقضاء خطر التعدّي الذي يتعرّض له الدخيل . ولجوء الدخيل الى قبيلة ما معناه اعتراف بقوة القبيلة ومكانتها ، لذا تحرص القبيلة على الحفاظ على هذه السمعة الطيبة . والبدوي العراقي يعتزُّ كثيراً بجبروته وكبريائه ، فقد يسرق ، وقد يقتل ،

(١) الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ٥٥ .

وقد يكذب ما شاءت له السرقة والقتل والكذب طالما ان هذه الموبقات تبرهن على طبيعته المجوسية والحربية . ولكن البدوي العراقي لا يُسيء معاملة دخيل او ضيف او قصير ، لان مثل هذا التصرف يعتبر في السواني خيانة عظمى وجريمة لا تقل فظاعة عن جريمة الزنى بين العشائر . واذا قتل رجل من العشائر رجلاً آخر – ولا سيما في منطقة الفرات الاوسط – فقد تقبل قبيلة القتيل دية بشكل ماشية او حبوب او بنادق . ولكن اذا كانت الجريمة المقترفة زنىً فلا بُدّ من ان يكون عقاب المجرم الموت المحتّم . وتعتبر العشائر جريمتي الزنى والخيانة العظمى اخسّ الجرائم واشدّها فظاعةً .

ان مدّة الدخالة تختلف بين قبيلة واخرى ، وذلك بحسب ما تتمتّع به القبيلة من قوة ومنعة(١) . ولكن عندما تعجز القبيلة عن توفير الحماية للدخيل فله ، عندها ، أن يسأل القبيلة أن توصله الى قبيلة أخرى يظنّ أنه يلقى لديها ما يتوخّاه من حماية ورعاية واذا ما قبلته القبيلة دخيلاً فانه يُجرّد فوراً من سلاحه . ولكنهم يعتنون بجواده ، ويقدّم له شيخ القبيلة ضمانات على حياته وسلامته . وقد استُغِلّ قانون الدخالة العشائري عندما كانت الحكومة التركية تلاحق مجرماً . فكانت القبيلة التي يلجأ اليها الدخيل تفعل وُسعها في اخفائه خشية ان تفقد احترام القبائل لها (٢) .

أمّا « الوجه» فهو عرف أو تقليد عشائري ويعني تعهّداً او اتفاقاً مسبقاً بين عشيرة وأخرى بموجبه يُسمح للقبيلة النازحة عن مضاربها الى مواطن أخرى أن تمرّ مع مواشيها بأراضٍ للعدو ، او عندما تخشى قبيلة نازحة المخاطر التي قد تتعرّض لها في اثناء مرورها بأرضٍ ليست لها . ويتمّ ذلك عبْرَ لقاء مع شيخ القبيلة التي يريدون المرور بأرضه في حضور شهود ، الذي يضمن لهم سلامة المرور حتى يبلغوا الارض التي يريدونها . فيقولون ، في لغتهم ، انهم حصلوا على « وَجْه الشيخ » اي موافقته على مرورهم بأرضه . فيعلنون على الملأ ان القبيلة الفلانية ستمر بأراضي القبيلة الفلانية في حماية « وجه » الشيخ الفلاني . وإذا ، على الرغم من الحصول على « الوجه » او التسيار (اي الاذن بالمرور) تعرّضت القبيلة في أثناء مرورها لغزو او تعدٍّ فان مسؤولية الأخذ بالثأر من المعتدي تقع على الشيخ الذي يمنحهم الوجه . فانه يثأر لهم ويعوض عليهم خسارتهم . وهذا معناه ان شيخ

---

(١) الحسني : الحالة الاجتماعية عند العشائر ، في مجلة لغة العرب ، المجلد السابع ، ص ٨٦٠ .

(٢) ان مدة الدخالة لدى قبيلة حرب ، وهي قبيلة عزيزة الجانب ، شهران وعشرة أيام ، بينما لدى القبائل الاخرى تراوح المدة بين شهر وثلاثة ايام .

القبيلة الذي يمنح « الوجه » لقبيلة أخرى يجب أن يكون غنياً وقوياً لكي يستطيع القيام بما تتطلبه موجبات تعهّده . ويُعرَف « الوجه » بين القبائل الضاربة حول كربلاء بالتسيار (مصدر ثاني من السَيْر) لأن الشيخ لذي يمنح الوجه يبعث بأحد أعوانه ليُرافق القبيلة في اثناء مرورها بأرضه حماية ً لها من الهجوم عليها .

تُصنّف الجرائم ، بحسب قوانين العُرف المعروفة بالسواني ، الى اربعة انواع : اولاً : القتل او الجريمة التي تشكّل اعتداء على النفس . ثانياً : الزنى او جرائم الجنس ويسمّونها « السودا » او « العيبة » . ثالثاً : الجرائم التي تشكّل اعتداء على الاعتبار الاجتماعي . رابعاً : الجرائم التي سببها الاعتداء على المال والملك . هذه الانواع الاربعة من الجرائم تمس ّ الفرد ، ولكن ليس هناك جرائم أخرى من النوع الذي يمس ّ القبيلة ككل ّ وتتعلّق بسياستها العامة ككل . ذلك بأن العصبية تشد ّ افراد القبيلة بعضهم الى بعض ، وان الولاء لا يكون الا ّ للقبيلة ، فلا يمكن ، والحالة هذه ، ان تكون هناك جرائم يقترفها الفرد ضد ّ القبيلة .

أما النوع الاول من الجرائم ــ القتل ــ فيقسّم الى أربعة أقسام : (أ) القتل . (ب) إحداث عاهة مستديمة . (ج) إحداث جرح . (د) إحداث إجهاض . ولكل نوع من هذه الجرائم عقاب معيّن . اما عقاب القتل فيختلف من قبيلة الى أخرى ، كما هي الحال بين القبائل نصف المتحضّرة ، والقبائل المتبدّية ، اي لساكنة في البادية . اما القبائل نصف المتحضرة فانها قد تقبل دية ً عن القتل بما بشكل مال أو ماشية . وأحياناً يصرّون على « الحشَم » اي إعطائهم نساء من قبيلة القاتل ، وذلك ّ بغية إذلال القاتل وإهانته في عرضه . ولا تقبل قبيلة دية ً عن قتيل كالفدية التي وصفناها إلا ّ اذا كانت هذه القبيلة قوية الشكيمة غنية ّ لا تُقاس قوتها بقوة القبيلة التي ينتمي اليها القاتل . وبعض القبائل ترضى بديلاً من المرأة (الحشم) مهرها ولا سيما إذا كان مهرها مبلغاً محترماً من المال . أمّا قبائل البادية المتوغلة في البداوة فتصر على قتل القاتل ، او على قتل أحد انسبائه الأقربين حتى الجيل الخامس من الجد ّ الأعلى للقاتل . ولكن في هذه الأيام ، ونسبة الى حاجتهم الماسة الى المال ، فإنهم قد أخذوا يقبلون الدية بشكل مال او إبل (٥٠ جملاً في مقابل جريمة قتل واحدة) مشترطين أن يُنفى القاتل مدة سنتين على الاقل (١) . وإلا ّ فان القبيلة المتضرّرة تُعلن الحرب على قبيلة القاتل . وعلى الرغم من أن دور المرأة في الحياة العشائرية دور ّ محدود الأثر لا يُقاس بدور الرجل في القبيلة ، فإن الفدية ، اذا كانت مالاً ّ أو ماشية ، واحدة سواء أكان القتيل رجلاً ّ أم امرأة ّ . أما عقاب جريمة

---

(١) لا يطبق النفي على النساء .

إحداث عاهة (ويسمونها سقاط) فيتوقّف على أي عضو من أعضاء الجسد اصابته العاهة، او أحدثت فيه ضرراً، وعلى مدى أهمية العضو المتضرر في حياة الرجل اليومية. ومن عادتهم، في هذا النوع من الجرائم، أن يقبلوا تعويضاً مالياً. أما إذا سبّبت الجريمة فقدان البصر، او العقم فقد تعتبر هذه الجريمة بمثابة جريمة القتل ذاتها. وعقاب الجريمة التي تسبب ضرراً جسدياً تراوح بين الجلد وبين فدية في شكل مال. والذي يقوم بالجلد شيخ القبيلة المُعتدى عليها. أما قبيلة البوحمد، من لواء العمارة، فانها تصرّ على أن يذهب القاتل او المجرم مشياً على قدميه الى بيت المغدور به ويطلب العفو من زوجته، أو من ابنه الأكبر، ويقدّم للعائلة «زبوناً» (اي ثوباً) جديداً هدية للعائلة. وإذا كان الضرر الجسدي مسبّباً عن سلاح أو آلة حديد فان الفدية تتضاعف وطلب العفو من الزوجة ينبغي أن يتمّ بأقصى ما يكون من الاستعجال والتنفيذ(١). ولكن اذا كان الضرر الجسدي مسبّباً عن طلقة بندقية تُصبح البندقية فوراً ملك المغدور به الى جانب مبلغ من المال يُعيّنه العوارف او (الفرّضة). وإذا توفي الرجل في ما بعد بسبب الضرر الجسدي الذي لحق به فان لزوجة الرجل القتيل ان تطلب دية كاملة. وكان اذا أُجبِر رجل من العشائر على حلق لحيته او شاربيه فان ذلك يُعتبر ضرراً جسدياً (الى جانب الإهانة التي تلحق به). والتعويض من هذا الضرر دفع خمس مئة قرش بالعملة التركية عن كل شعرة من شعر لحيته وألف قرش عن كل شعرة من شعر شاربيه(٢). أما إذا سبّب الضرر الجسدي إجهاضاً للمرأة فان العقاب يتوقف على جنس الجنين اذا كان ذكراً أم أنثى. فإذا كان الجنين ذكراً فانهم يطلبون الديةّ كاملة، واذا كان انثى فنصف الدية. وفي حال وفاة المرأة فان الدية تدفع لوالدي المرأة لا لزوجها.

اما الجنح والجرائم التي سببها الجنس فتقسم الى خمسة اقسام (أ) الزنى (ب) الخطف (ج) الاغتصاب (ويسمونه صبحة) (د) النهوة (هـ) اللواط. والزنى، بحسب الشرع الاسلامي جماع بين رجل وامرأة ليست زوجته. لكن الزنى، بحسب العرف العشائري يفترض ان المرأة المزني بها هي امرأة متزوجة غير انها وافقت على الجماع. والاّ فان هذه الجريمة تعتبر اغتصاباً. ومهما يكن من امر فان عقاب الزنى يختلف بين القبائل نصف المتحضّرة وبين قبائل البادية. فبحسب عرف قبائل البادية اذا اغتصبت المرأة وهي تحتطب او تستقي ماء — وهما وظيفتان تقوم بهما المرأة البدوية — وعادت الى مخيّم القبيلة وهي تصيح وتولول «وثوبهاقدايد وخرزها

(١) الفرعون، المصدر ذاته، ص ٦٧ - ٦٨.
(٢) الراوي: البادية، ص ٢٩٢.

بدايد » ـ كما يقولون في لغتهم العامية ـ اي وثوبها قد قدّ وحرز عقدها قد بُدِّد ، مما يدلُ على انها قاومت المغتصب ، فان لقبيلتها الحق في ان تقتل الفاعل او احد انسبائه في مخذه من القبيبة حتى الجدّ الخامس . كما ان للقبيلة الحق في ان تغزو القبيلة المعتدية وتخرّب ممتلكاتها لمدة ثلاثة ايام وربع اليوم الرابع . وبعد ذلك يلاحقون الفاعل . ومما لا شكّ فيه ان العوارف يصدرون ، في هذه الحال حكماً على القبيلة بدفع تعويض للمرأة المُعتدى عليها في شكل ماشية بيضاء اللون او قماش ابيض او فضة . واصرارهم على اللون الابيض في الحكم له معزاه في هذه الحال ، لان المعتدي قد « سوّد » سمعة المرأة ولوّث شرفها ، فعليه إذاً ان يبيّض اسمها وسمعتها . ولكن اذا وقع فعل الزنى بعد الغروب ، وبعد ان تكون الماشية قد عادت الى مرابع القبيلة فان المرأة تعتبر فريقاً ثانياً في الجريمة ، حتى وان ادّعت انها اغتصبت . ومثل هذه المرأة تُعرف في مصطلحهم بـ « عاقبة السرح » اي المرأة التي تعود الى بيتها بعد غروب الشمس . وفي هذه الحال ، فان الرجل المعتدي بحسب قوانين السواني ، لا يعتبر قانونياً مسؤولاً عن فعلته الى ان تقتل القبيلة المرأة لزانية ، عندها يحق للقبيلة ان تلاحق المعتدي . ولا يتردّد رجال قبيلة بدوية في قتل امرأة من نسائهم متهمة بالزنى لانهم اذا لم يتخذوا مثل هذا الاجراء الصارم فانهم يفقدون ما لهم من احترام لدى الغير ، كما ان مثل هذه الفعلة الشنيعة تعرّض سلامة القبيلة وامنها ، تلك السلامة التي حرصوا على الحفاظ عليها مدى العصور والاجيال . بعد ان يكونوا قد قتلوا المرأة الفاعلة يرفعون الدعوى ضد الفاعل فتأمر العوارف قبيلة الرجل ان تقتل الفاعل او ان تنفيه او ان تطرده من عداد القبيلة . وفي هذه الحال يحق لرجال القبيلة المعتدّى عليها ان تتعقّب الرجل وتقتله انى وجدته (١) . ولكن يختلف عقاب الزنى لدى القبائل نصف المتحضرة الضاربة في الارياف . لدى هذه القبائل يحق للرجل إمّا ان يطلّق زوجته وان يطالب اهلها بتعويض مالي مقداره ما قد انفقه عليها من يوم زواجها حتى يوم ارتكابها جريمة الزنى ، او ن يطالب المعتدي بالحشم ، اي ارسال امرأتين له من اقرب انسباء الفاعل . ولكن لا مفرّ للمرأة الزانية من القتل ذلك بأن اهلها واقاربها قد يقتلونها حتى وان كان الزوج قد صفح لها زلّتها . اما في منطقة الاهوار في جنوب الفرات الاسفل ، ولاسيما في شبايش فإذا زنى احد عرّض نفسه للقتل من قبل المُعتدى عليه وليس على القاتل في هذه الحال ان يدفع دية القتيل .

قد تخطف المرأة في مضارب القبائل لاسباب عدّة . ولكن مهما تكن الاسباب فان العقاب يكون قتل الخاطف او اعطاء « الحشم » او التعويض . بعد ان تكون

---

(١) الراوي ، المصدر ذاته ، ص ٢٨٩ .

المرأة قد خطفت تقفل القبيلة بيوت الضيافة وترفض قبول الضيف ، وتمتنع عن كل امور التجارة ورعاية الماشية ويتنادى افراد القبيلة جميعاً للتفتيش عن المرأة المخطوفة وقتلها فوراً من دون تردد . اما الخاطف والمخطوفة فمن المُعتاد ان يلجآ الى قبيلة اخرى وان يطلبا اعتبارهما قصيرين (بحسب حق القصير) من دون ان يعطيا الاسباب التي دفعتهما الى طلب اللجوء هذا لان حق القصير لا يُشرّف الرجل الذي يطلبه — اذ يمكن ان يكونا في نظر القبيلة التي لجآ اليها من الشرفاء الذين ينتمون الى قبيلة عزيزة الجانب قويّة الشكيمة ، وواجب على القبيلة ان تقبلهما كلاجئَيْن . واذا نجحت قبيلة امرأة في أكتشاف مكان لجوئها فان انسباء المرأة يتصلون فوراً بشيخ القبيلة التي قبلتهما كقصيرين ويدلون بتفاصيل القضية ، وبعد ذلك يسلّم الشيخ الخاطف والمخطوفة اليهم . فيقتلونهما . واذا هرب الخاطف فعلى القبيلة ان تجند جميع رجالها للتفتيش عن مكانه ، واذا وجدوه قتلوه . واحياناً يلجأ الخاطف الى وساطة شيخ قبيلة معروفة علّه يفلح في اقناع رجال قبيلة المرأة للعفو عن حياته . فاذا قبلوا شفاعة الشيخ فان الخاطف يعطي احدى اخواته او نسيباته الى اكبر اخوة المرأة المخطوفة — ومفروض ان تكون هذه المرأة عذراء . وفي كل الظروف والأحوال لا يسمح للخاطف ان يدخل بيوت الضيافة في قبيلته ، ولا يعود له احترام حتى عند القصير والدخيل في القبيلة . اما اذا أصرّ على العيش بين قومه وعشيرته بقطع النظر عن المعاملة التي سيلقاها لديهم ، فينبغي له ان يسلّم سلاحه ويبقى طوال حياته أعزل من السلاح ، وهذا امر على غاية من الأهانة والاذلال للرجل عند القبائل . ويجوز ، اذا كانت للخاطف علاقات طيبة تربطه بقبيلة عزيزة الجانب كقبيلة بني حجيم في المنتفق ، فانه قد يلجأ اليها كدخيل ويتزوج بالمرأة المخطوفة وان كانت متزوّجة وهو امر يتعارض مع الشرع الاسلامي . وكثيراً ما اصدرت محاكم بغداد ، عند النظر في حالات مشابهة ، احكاماً بفسخ هذا الزواج واعتباره زواجاً غير قانوني . ولكن في نظر القبائل هو زواج قانوني بحسب عرفهم وتقاليدهم .

ويُعرَف اغتصاب المرأة بين القبائل بـ «الصيحة» . ولا يعني الاغتصاب ان يكون بالضرورة جماعاً وقع بين الرجل والمرأة على طريقة الاغتصاب — أي بالقوة والعُنف . فقد يكون محاولة الرجل ان يأخذ بثوب المرأة ، او قد يكون محاولةً لاغراء المرأة واغوائها لتلبي الى رغباته الجنسية . ففي نظرهم يعتبر مثل هذا التحرش بالمرأة اغتصاباً لها (١) . وتُعرَف عندهم بالصيحة لانه حالما تتعرض المرأة لمثل هذا التحرش ينبغي عليها ان تصبح طالبةً العون والنجدة . كما ينتظر منها ان تمزّق ثوبَ مهاجمها

(١) الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ٩٧ .

فتأخذ منه قدّة تثبت بها انها قد هُوجمت فتصح دعواها لدى اهلها . وعقاب الاغتصاب ، بحسب السواني ، يكون إما بانزال عقوبة الموت او بفرض الحشم عليه . اما اذا كان انسباء المرأة المخطوفة يقيمون بمكان قريب فانهم يأتون الخاطف فوراً اذا وجدوه . ولا يقبلون الحشم الا بعد ان يكون قد انقضى عدد من الأسابيع لم يكن قد قتل في اثنائها الفاعل بعد . ولكن في جميع الاحوال والظروف اذا قُبِل الحشم تسوية للحادث فينبغي ان يُسلّم الى قبيلة المرأة المخطوفة . وكلما اسرعت قبيلة المعتدي في ارساله كان ذلك افضل واحسن . وكلما تباطأت في التنفيذ كان ذلك سبباً للضرر والحاق الاذى من قبل المعتدى عليهم .

ان البنات في القبيلة يتزوّجن مرغمات جميعاً على الزواج بأبناء العمومة من فخذهن في القبيلة . هذا اذا رغب ابناء العمومة في ذلك . فاذا تزوّج غريب بأحداهن من دون ان يحصل على موافقة ابن عمّها فان له – ويسمونه الناهي ومنها النهوة – الحقّ في قتل هذا الغريب من دون الرجوع الى والدي الفتاة . ولكن من ناحية اخرى اذ ارادت الفتاة ان تتزوّج « الاجنبي » (كما يسمونه) فانه ينبغي لها ان تحظى اولاً بموافقة ابن عمها على هذا الزواج . والواقع ان الفتاة لا تقدم على الزواج بأجنبي قبل ان تتأكد من ان ابن عمها الأولى بالزواج بها لن يلجأ الى استعمال العنف . واذا توفي والد الفتاة قبل ان تتزوج فان طالب يدها يجب ان يحظى اولاً بموافقة ابن عمّها . ثم ان الفتاة تلجأ الى اساليب الاقناع التي تُعرف عندهم بـ « الرضوة » او « المشية » التي تتألف من مبلغ من المال او من قطيع من الماشية ويُعرف بـ « الشاوي » . واذا ابى ابن عمها قبول الرضوة فان الفتاة تذهب خطيفة مع الاجنبي ويلجآن الى قبيلة ما ويطلبان حقّ الدخيل فيها ، ومن ثمّ يتزوّجان (١) . ويحاول شيخ القبيلة التي يلجآن اليها ان يقنع ابن عم الفتاة بأن لا بأس على العريس فانه رجل طيّب شريف النسب وينتمي الى قبيلة عزيزة الجانب ، وانه خير للقبيلة ان تتحاشى كل ما من شأنه ان يعكّر صفو القبيلة فتقبل بهذا الزواج. ويطبّقون «النهوة (٢)» عادة قبل الخطبة او قبل اتخاذ اي خطوة جدّية في سبيل الزواج . واذا كان الطالب الاجنبي ينتمي الى قبيلة قوية عزيزة الجانب فان ابن عم الفتاة رغبةً منه في تجنب ايّ صدام مع قبيلة الطالب . يهجر مخيّم قبيلته وينزل في مكان آخر . والزواج ان يتمّ في اثناء غيبته ، غير ان المسؤولية في طلب رجوعه والتفتيش عنه تقع على عاتق الفتاة وعلى اهلها كي يقنعوه بقبول الرضوة او الحشم . واما ابناء العمومة الذين تتغافل لقبيلة امرهم فقد يثورون غضباً ويشكلون

---

(١) الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ٧٥ – ٧٦ .
(٢) وهي من الناهي .

خطراً مستمراً على سلامة القبيلة وامنها . ولكن اذا استطاع احد من ابناء العمومة والغاضبين ان يحشد عدداً كافياً من أنصاره ليضغط على عائلة الفتاة فقد تقبل بأصدار بيان يوقع عليه شيخ القبيلة ويعلنون فيه ان زواج ستهم المزمع عقده هو لاغ ويردون المهر الى الاجنبي . وظاهر ان هذا العرف يناقض الشريعة الاسلامية ، ولكن على الرغم من هذا فانه لا يزال عرفاً قائماً يعمل به بين العشائر . وقد افلحت الحكومة العراقية في إقناع عشائر الدليم لكي يقلعوا عن عادة النهوة ، غير أنها عجزت عن ان تحمل سائر القبائل الاخرى المنتشرة في انحاء العراق لينحوا نحو عشائر الدليم .

اما اللواط فيمكن القول عنه انه عادة غير معروفة بين قبائل البادية ، كما انه قل ّ ان يمارس بين عشائر الارياف . اما عقاب اللواط – ويعتبر جريمة من نوع «السودا» فدفع حشم الى ولي الولد المفتعل به (١) . وجريمة اللواط في قبيلة GRAIT بالقرب من سد ّ الهندية تعتبر بمثابة جريمة القتل ، وعقابها الموت ، لذلك يصرون على الفاعل ان يدفع دية رجل . اما قبيلتا الشطرة والازيرق فتصرّان على ان ينفى الفاعل من ديارهما بعد ان يكون قد دفع التعويض كاملاً . اما قبيلة العبودة في لواء المنتفق فانهم يكوون العضو التناسلي عقاباً له او انهم يخصونه .

اما الجرائم التي تسيء الى «الاعتبار الاجتماعي» للفرد في القبيلة فانها على اختلاف انواعها ، تعرف بين القبائل بجرائم القذف . وتعرف ايضاً بـ« وسخ اللسان » . والقذف عندهم اتهام شخص ما علناً انه اقترف جرماً او ارتكب جنحة بغية القدح والتشهير به وتشويه سمعته وإطلاق التهمة علناً يصيب ، في نظرهم ، سائر افراد الانساب والاقرباء الذين يشعرون بأن القذف – القدح والتشهير – قد أصاب كل ّ فرد منهم . فاذا اتهم القاذف امرأة بانها زنت فان التهمة تصيب العائلة كلها وتشعر بأنه اتهام يمس ّ الاعتبار الاجتماعي لتلك العائلة . اما اذا اتهم ّ القائل رجلاً بانه قتل ، او قبيلة بانها غزت ، فهذا الاتهام ، في نظرهم ، لا يعتبر قذفاً ، لا بل الأمر على نقيض هذا . فقد يكون مثل هذا الاتهام مدحاً لا قدحاً . اي ان القذف يجب ان يكون اتهاماً من النوع الذي يشهر ّ بالمرء « ويسود » سمعته . فانت ترى ان هذه الاتهامات تكون عادة مرتبطة إمّا بجرائم « السودا » (جرائم الجنس) او بالتشهير الذي يمس ّ شرف النسب لدى المقذوف ، وشرف النسب لدى القبائل امرٌ خطير . ومثال على القذف الذي يمس ُ النسب ان يقول المتهم ان الجد ّ الأعلى لفلان كان عبداً مستعبداً لفلان . ودور العوارف في مثل هذه القضايا استدعاء القاذف والتحقيق معه حول صحة ما جاء في اتهامه والطلب اليه ان يتقدم بالادلة

---

(١) هذا هو العقاب المعروف لدى عشائر الجنبين الضاربين حول مدينة الحلة .

الشونية . فاذا افلح في اقناع العوارف بصدق قوله عندها تُتَّخذ اجراءات عقابية ضدَّ المُتَّهم ويُثاب القاذف على اتهامه هذا. اما اذا اقتنع العوارف بأن القاذف انما يعني تسويد اسم المتّهم (المقذوف) والتشهير بسمعته فتتخذ اجراءات عقابية في حقه وذلك علناً امام الناس . عندها يُحكم على القاذف ان يعوّض على وليّ المرأة بشكل تقديم « حشم » له . ويحدث احياناً ان اخوة المرأة المتهمة بالزنى او اقرب الأنساء اليها من الذكور قد يقدمون على قتلها « غسلاً للعار » على الرغم من ان زوجها يثق بشرفها وطهارتها . عندها يختار القاذف إحدى نسيباته وامرأة أخرى حشماً ويسعى لحمل المقذوف (ولي المرأة زوجها او اخوتها) على ان يقبل المرأة زوجة له وان يقبل المرأة الحشم تعويضاً . ونفقـات العرس الذي يدوم احيانـاً سبع ليال تقع على القاذف (١) . ومهما يكن من امر فان جريمـة القذف نادرة الوقوع ذلك بـأن الرجل في القبيلة يحرص على الحفاظ على سمعة قبيلته فلا يسعى للتشهير بها ، كما انه يسعى جاهداً ، وبحكمة فائقة . لأن يحلّ اي مشكلة قد تتعرّض لها قبيلته. فان رابطة العصبية القبلية ، والولاء الذي يكنه البدوي لقبيلته ، والفخر الذي يشعر به لانتمائه اليها ، جميع هذه تردعه تلقائياً عن توجيه تهم القذف ضد احد من افرادها .

اما الجرائم المتعلقة بالمال والملك فهي لدى العشائر تقسم الى ثلاثة انواع من الجرائم . (أ) النهب والتبديد (ب) جدْع الحيوانات الداجنة عمداً او بترها (ج) انتهاك ملك الغير . وجريمة النهب هي الاستيلاء على ملك الآخرين عمداً من دون علمهم بالأمر وخفية عنهـم . وتكاد هذه الجريمة ان تكـون نادرة الوقوع بين قبائل البادية ، انما تقـع بين القبائل نصف المتحضّرة الضاربة في الارياف . حتى ان وقوعها بينهم يكاد ايضاً ان يكون نادراً . ويُعرّف اللص في لغتهم العامية بالبوّاق (ويلفظون القاف جيمـاً مصرية) او الحوّاف (٢) ويُعرّف بين قبائـل المنتفق بالفاسد او بالدلاّج وعندهم أمثال عديدة تعكس مدى احتقارهم للفاسد والفساد . غير انه ينبغي للمرء ان يفرّق بين النهب الذي هو سرقة بمعناها المألوف وبين ما يستولي عليه البدوي في اثناء الغزو . فالنهب يقع في غفلة وفي الخفية وهو جريمة تلوّث اسم الفاعل وتحط من قدره وشأنه لدى القبيلة ، بينما يُعتبر ما يستولي عليه في اثناء الغزو في وضح النهار امراً قد يفخر به لجرأته واقدامه . ان ما يؤخذ سَرِقةً يعتبر امراً حراماً . ولكن ما يؤخذ غزواً يعتبر حلالاً وملكاً خاصاً بالغازي (٣) اما

(١) الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ١٠٩ .
(٢) الأب انستاس الكرملي قبائل العراق ، مجلة المشرق ، ١٩٠٤ ، ص ٥٩ .
(٣) ونشير الى ان « غزي » اسم علم يطلق على بعض العشائر وابناء المدن - وهو اسم شائع قد يفتخر به حامله .

اذا أضاع امروء شيئاً بقدّره او وقعت سلعة ذات ثمن ولقيها آخر فان الرجل الذي أضاع او فقد شيئاً يركب ناقته ويسير الهويناء وسط المخيّم وينادي بأعلى صوته – ويعمم – أنه قد أضاع اليوم كيت وكيت . وانه على استعداد لأن يعطي « حلاوة » (ويعرف أيضاً بالحلوان والحلونية) لمن يجده ويردّه ليه (لا تغضب الله يا واجد الغرَض (١)) . فمن كان قد وجده يخرج من خيمته ويقول « يا راعي الغرض الحق» (٢) . اما عقاب السرقة بين العشائر فيتوقف على الظروف والأحوال التي وقعت فيها الجريمة اولاً اذا كان السارق اجيراً عند المسروق منه ، او اذا كان مفترضاً فيه ان يحتمي بملكه ومقتنياته ، او اذا كان جاره . فالعقاب يكون عقاباً مضاعفاً . هذا الى جانب تقديم الحشم . اي انه يدفع ضعفي ثمن المسروق غرامةً بالاضافة الى الحشم ثانياً اذا كان المسروق ملكاً لشيخ القبيلة فان الغرامة لا تتضاعف فحسب بل ان عطية الحشم تتضاعف ايضاً . وهنالك صنفان من اهل البدو لا يتعرّضان لسرقة وهما الأسياد من نسل عليّ بن ابي طالب ، والفقراء المعوزون . وفي حالة سرقة احد من هؤلاء الناس فلا يكتفى بان تكون الغرامة ضعفين ، بل لشيخ القبيلة ان يسأل السارق ان يجلو عن دياره الى الأبد لئلاّ تقع لعنة الله على القبيلة بأسرها . ثالثاً اذا كان المسروق من الاشياء التي تستخدم في الأعمال الزراعية او في اعمال الغزو كالجياد العربية الأصيلة ، فان للمسروق الحق في ان يطلب تعويضاً كبيراً ويعرف السارق الذي يسرق الجياد العربية الأصيلة بالبطّاح . وعقابه ان يوضع على ظهر الجواد ويربط اليه ربطاً محكماً فلا يستطيع التحرك ويترك على ظهر الجواد اياماً من دون طعام وماء . هذا الى جانب التعويض المضاعف في الثمن وفي الحشم ولكن اذا كان رجل من رجال القبائل قد شاهد السارق في خيمته في مضرب القبيلة فله ان يقتله رمياً بالرصاص او ان يجلده . او ان يضربه حتى الموت ، وذلك ليس لانه سرق بل لانه تعدّى على حرمة خيمته حيث يكون من الممكن ان يرى نساءه في مخادعهن . وهذا عار يجب غسله بالعنف . ولكي تعبّر القبائل عن احتقارها للسرقة والسارق فانه من الممكن ان تجمع القبيلة الواحدة تبرعات تقدّمها للقاتل ليدفع ديه الرجل الذي قتله ، ولكنهم يأبون أن يقدموا التبرّعات ليساعدوا رجلاً سارقاً .

ان الجمال والجياد والبغال والكلاب والجواميس جميعها حيوانات نافعة عند

---

(١) راجع ما يقوله Dickson حول هذا الموضوع في كتابه «The Arab of the Desert p. 445

(٢) راجع ما يقوله ايضاً Dickson في المصدر ذاته ، ص ٤٤٦ . كذلك راجع الراوي في المصدر ذاته ، ص ٣٠٠ .

القبائل نصف المتحضّرة في مناطق الفرات . وكل جريمة تُقترَف وتتناول هذه الحيوانات من شأنها ان تؤثر في مستوى العيش لديهم . وعليه فقد نشأ عندهم قانون جزائي صارم بغية ردع السارق عن السرقة . وكثيراً اذا ما قُتِل كلبٌ عمداً في القبيلة فانهم يطلبون تعويضاً عن كلب بتقديم الحشم (النساء) . وجرت العادة ان يقدّم الحشم غرامة اذا تعرّضت القبيلة ، او جزء منها ، الى الخطر . ولذا فان الكلب يعتبر لدى قبائل البادية والقبائل نصف المتحضّرة حيواناً نافعاً اذ انه افضل حارس ينبّه القبيلة بنباحه عند الخطر فاذا قتل الكلب تكون سلامة القبيلة قد تعرّضت للخطر . وفي قبيلة البو محمد في لواء العمارة يعتبرون حق صاحب الكلب امراً مفروغاً منه وله ان يطلب تعويضاً بشكل حشم . والقصد من فرض الحشم تعويضاً وعقاباً ان يكون قصاصاً رادعاً (امرأة بكلب !) لانه من الأهانة والأذلال بمكان ان يُعطي الرجل اخته او احدى سبياته تعويضاً عن مقتل كلب. ولكن على العوارف ان يتأكدوا قبل اصدار مثل هذه الاحكام القاسية من ان قاتل الكلب قتله عمداً . ويأتي بعد الكلب في نفعه للقبيلة الجواد الأصيل . فقبيلة البوسلطان في لواء الحلة يصرون على ان يكون التعويض حشماً اذا سبب احدهم ضرراً جسدياً للجواد (١) . وقتل الكلب و الحاق الضرر الجسدي بجواد او فرس من الأصايل يعتبر جريمة لا تقلّ خطورة عن جريمة السرقة ، ولذا فانهم لا يهرعون الى عون احد افراد قبيلتهم في جمع التبرعات له ليدفع التعويض اذا ما صدرت في حقه احكام تقتضي دفع التعويض .

أما النوع الثالث المتعلّق بالمال والملك فهو « انتهاك ملك الغير » اي التعدّي على الممتلكات الخاصة بطرق شتّى غير السرقة او استعمال طرق العُنف ضد الحيوانات الداجنة كالكلب والجواد والناقة التي يملكها الغير . وكل تعدٍ على ملك الغير يُعتبر ، بحسب قوانين السواني انتهاكاً ، وهو جريمة تعاقب القبيلة مقترفها بما يستحقه من عقاب . ولكي تُطبّق قوانين السواني على العوارف أن يدرسوا أولاً الظروف والاحوال التي وقعت فيها جريمة الانتهاك من ناحيتين : أولاً من ناحية الصورة أو الشكل الذي وقع فيه الانتهاك . ثانياً من ناحية الملك الذي وقع عليه التعدّي . فعلى الرغم ، مثلاً ، من ان حرق الملك واشعال النار فيه امر نادر بين العشائر ، فان قوانين السواني تأخذ هذه الجريمة في الاعتبار وتضع لها العقاب المناسب . ونوع آخر من التعدّي الذي يقع في باب انتهاك حرمة الملك ، تخريب المحاصيل الزراعية بترك السائبة تدخل المزارع فتفسدها ، أو تجاوز حدود لارض التي يملكها الغير من دون أخذ إذن بذلك. إن الأرض لدى العشائر ارض مشاع ، أي ان ملكيتها

---

(١) وقبيلة البوسلطان من القبائل القليلة التي تعنى بتأصيل الجياد العربية .

تعود الى القبيلة ككل . ولذا فان اي تعد على ارض القبيلة هو تعدّ على القبيلة ككل . وهذا أمر تحرص القبيلة على معاقبة مرتكبه حرصاً منها على حقوقها . اما الأرض لدى القبائل نصف المتحضّرة فشأن الأرض فيها وأهميتها يفوقان شأن الارض وأهميتها لدى قبائل البادية . ذلك بأن عيشهم يتوقّف على الأرض وفلاحتها . الأرض مصدر دخلهم الرئيسيّ . وبما أن الأرض لدى قبائل البادية مشاع ، أي ملك القبيلة ككل ، فان البدوي على استعداد لأن يحمل السلاح لمهاجمة المعتدي والذود عن حياضه . ولو أن الملكية لم تكن مشاعاً عند القبيلة ، اي لو أن الأرض كانت موزّعة على الأفراد في شكل ملكية خاصة لضعُفت الرابطة العصبيّة التي تشدّ الافراد في القبيلة بعضهم الى بعض . ولكانت العصبية القبلية قد فقدت معناها . ومهما يكن من أمر فان اكثر المنازعات والخصومات حول الأرض تنشأ بسبب انعدام الحدود التي تفرّق ارضاً عن أرض أخرى . ويستطيع المرءُ أن يدرك صعوبة تحديد الأرض المشاع بين القبائل البدوية منها ونصف المتحضّرة ولا تزال مشكلة حدود أرض القبائل من المشكلات التي تسبّب لحكومة بغداد متاعب مزعجة . كذلك الآبار والينابيع أمور على غاية من الأهمية في البادية وفي الأرياف التي تنزل بها القبائل . وقد رفضت حكومة العراق الاعتراف بحق ملكية الآبار والينابيع من قبَل اشخاص وأفراد يدّعون ملكيتها . تقول الحكومة إن جميع الآبار والعيون هي ملك الدولة ، غير ان الأولوية تعطى لمَن ينزل فيها اولاً . وهذه النظرة الحكومية تجاه ملكية المياه خفضت كثيراً من المتاعب وقلّلت من امكانات الخصومات التي كانت لا بُدّ من ان تقع بين القبائل لو ان حسم الأمر ترك لهم (١) . ومن المشكلات التي تقع بين القبائل نصف المتحضّرة مسألة الغلال والمحاصيل . اذ معلوم ان البنات والنساء في القبيلة هُن اللواتي يخرُجن مع القطعان للرعاية . وهن لا يُميّزن احياناً بين الارض التي هي للرعاية وبين الارض المحروثة للزراعة . وهذا يؤدي ، غالباً ، الى خصام يدور حول الحراثة والزراعة . في هذه الحال يحقّ للزارع ان يلجأ الى العنف ضدّ النساء المتعديات . وهذا امرٌ ، في غير هذه المناسبة يُعدّ امراً معيباً : معاملة النساء بعنف وقوة . واذ اغتصب الرجل المزارع المرأة او الفتاة التي تعدّت على ارضه المزروعة فليس لعشيرة المرأة والفتاة حق في الدعوة الى العنف ضدّ المغتصب . ونحن ، في هذا الصدد ، انما نريد ان نبيّن ان قوانين الزواني نشأت لردع المعتدي على الغلال والمحاصيل . والشكل الاخير من اشكال الانتهاك التعدّي على حرمة البيت . فان

(١) الراوي ، المصدر ذاته ، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

البدوي يعتبر بيته حيث تقيم النساء حرماً ، وكل من يدخل الحَرَم من الراشدين من دون اذن يُعتَبر متعدياً انتهك حرمة الحَرم ، ويكون بذلك قد عرّض حياته لخطر الشديد . والسماح للراشد بأن يدخل الحرم امر حيوي جداً بالنسبة الى البدوي. على الداخل ان يحصل على هذا السماح . فان قبائل لواء ديالى ترغم من يقترف مثل هذه الجريمة على الجلاء عن القبيلة مدة من الزمن .

النجف : المركز الثقافي السياسي الشيعي في العراق

تأسست النجف على يدي عضد الدولة البويهي سنة ١٠٠٢ للميلاد . ومقام الإمام علي ومراره المركز الرئيسي الذي يتوسّط المدينة . فتكون النجف ، اذاً ، نشأت حول مجموعة قرى ودساكر يقطنها اناس ينتمون الى الامامية . وكان البويهيّون يبتغون من وراء تأسيس النجف خلق عصبيّة عراقية تحميهم وتكون بمثابة اعتراف باستقلالهم السياسي عن الزيدية . وعملوا جهدهم في تشجيع إقامة الحفلات الدينية التي تقام إحياءً لذكرى تاريخهم السياسي كإحياء ذكرى استشهاد الحسين الذي لا يزالون الى الآن يحتفون به (١). وإحياء ذكرى استشهاد الحسين تطوّر في ما بعد في عهد الصفويين حتى بلغ الذروة في شكله الدراميّ . وقعت فاجعة موت الحسين في العاشر من شهر محرّم سنة ٦١ هجرية . ومن ملاحظة أهمية الاحتفاء بهذه الذكرى ، ومن النظر في ما لها من شأن ومقام لدى الشيعة ، يستدلّ المرء على مبلغ ما للشيعة من قوة سياسية في العراق . وفي خلال العصور التاريخية كان علماء الشيعة فيها يحرصون على توكيد استقلالهم الديني والسياسي ، وكانوا يرفضون مشايعة السلطة المركزية في بغداد – ما لم يرغموا بالقوة على ذلك . ولأن النجف كانت دوماً تؤكّد استقلالها الذاتي فانها أصبحت ، مع الأيام ، مركزاً سياسياً مهماً ناشطاً للشيعة في العراق .

أما في ما يتعلّق بتاريخ النجف الحديث فان استقلالها السياسي توطّد بعد مهاجمة سليم باشا لها سنة ١٨٥٠ بغية اخماد تمرّد (٢) شيعي نشب في المدينة . ومما يضفي على اهمية النجف السياسية أنها مقر المجتهد الأكبر ، وفي النجف يمارس المجتهد الأكبر سلطته الروحية والزمنية على الشيعة ، لا في العراق وحده بل في

(١) الشيبي ، الدكتور كامل م . : الفكر الشيعي ص ٤٤ .

(٢) الواقع اني اشك في حسن اختيار اللفظة « عصيان » او تمرد » لان النجف لم تخضع يوماً – ما لم ترغم على ذلك – لسلطة بغداد المركزية . فان امكان قيام ثورة مسلحة في النجف ضد السلطة الرسمية كان إمكاناً قائماً دوماً .

جميع انحاء العالم حيث توجد الشيعة (١) والذي يقرأ في صفحات التاريخ لعراقي يلحظ ان كلّ دولة استطاعت الاستيلاء على العراق كانت تعامل النجف معاملة خاصة ، كما أنها كانت تحرص على تحاشي اتخاذ أي اجراءات يمكن أن يعتبرها علماء النجف ماسّة بحقوقهم ، او تعدّياً على منطقة نفوذهم . وهناك عدد من الأمثلة التي تدلُّ على مدى احترام السلطة المحتلة لمقام النجف ومركزها لدى الشيعة . فإن السلطان مراد ، وهو التركي السنّي ، دخل النجف ، كما تقول الرواية النجفية ، حافي القدمين دلالة على احترامه للإمام علي (٢) .

تقع النجف على مسافة من وادي الفرات حيث لم يكن هيبة السلطة التركية من أثر فعّال ، ولم يكن حكمٌ وطيد الأركان . فكان من الطبيعي أن تصبح النجف مركزاً للنقمة والسخط السياسي والديني في تلك المنطقة ضدّ الحكم التركي . وفي أثناء العهد التركي كله كان أهل النجف يعتبرون الحكومة المركزية في بغداد سلطة غير شرعية ظالمة . وهذا الموقف العدائي الذي كان أهل النجف يقفونه من الحكم التركي كان سبب إحراج للأتراك ، ولا سيما في اثناء الحرب عندما خرجت النجف من قبضة يدهم قبل سقوط بغداد . وآخر اصطدام وقع بين علماء النجف والسلطة الرسمية في بغداد كان في شهر حزيران من سنة ١٩١٥ عندما طرد النجفيون الموظّف التركي الحاكم وتسلّم الادارة من بعده المجتهد الأكبر . عقّبت هذا الاصطدام الذي وقع في النجف اصطدامات أخرى ـ ولكن على نطاق أضيق مما كان عليه في النجف ـ في كربلاء والحلّة والطويريج وطُرد الموظفون الأتراك . (٣)

إن من يزور النجف يلاحظ أن التأثير الفارسي عميق ، وان كثيراً من سكانها هم من الفرس او من أصل فارسي (٤). ويحسن بنا أن نعود قليلاً الى التاريخ لنتفهّم خلفيّة هذه الظاهرة في حياة النجف الاجتماعية . ان عدداً من الكتاب والمؤرخين الذين ينزعون في كتاباتهم الى الشعور العربي القومي حاولوا أن يفسّروا هذه الظاهرة

(١) ونذكر ، على سبيل المثال ، ما لسلطة المجتهد الاكبر من أثر لدى الشيعة ، قضية امتياز التبغ الذي اعطته الحكومة الايرانية لشركة انكليزية . فاصدر المجتهد امراً يحظر فيه على الشيعة ان يدخنوا تبغاً صادراً عن شركة انكليزية محتكرة . فتعاطف أهل الشيعة مع المجتهد و متنعوا عن التدخين مما حمل الحكومة الايرانية على استرداد حق الامتياز .

(٢) Lorimer, Gazetteer 1186

(٣) Debates H.C. 21 September 1915

(٤) وتجدر بنا الاشارة الى ان كثيرين من السكان العرب في الاماكن المقدسة ، وهم من الشيعة ، تجنسوا بالجنسية الايرانية في اثناء الحرب تجنباً للخدمة العسكرية .

ــ الأثر الفارسي في حياة النجف ــ على انها ناجمة عن تحكم دولة أجنبية في شؤون المدينة وعن سيطرتها عليها . وهم يريدون بذلك الدولة الفارسية ، او الايرانية ، لأن سكان إيران شيعة اثني عشرية . ولأنّ ايران كانت مهد الفكر الشيعي(١) . إننا إذا أمعنّا النظر في هذا التعليل للأثر الفارسي في النجف، ذلك التعليل الذي تأخذ به هذه الفئة من المؤرخين نجد أنفسنا مدفوعين الى اتخاذ موقف من هذا الأمر على نقيض الموقف الذي تتخذه الفئة المذكورة . ذلك بأن كتب التاريخ التي تُعنى بتاريخ بلاد فارس (ايران) تؤكّد لنا أن الفرس المسلمين كانوا أصلاً ــ وحتى القرن الخامس عشر للميلاد ــ يعرفون بأهل السُنّة والجماعة ، وأنهم أخذوا بالعقيدة الشيعية بعد تأسيس الدولة الصفوية . ولكن هذا لا ينفي القول إنه كان في ايران شيعة قبل تأسيس الدولة الصفوية ولكنهم كانوا جماعة تقطن بعض المدن الايرانية مثل مدينتي قم ونيسابور ، بينما كان معظم سكان المدن الأخرى مثل اصفهان وشيراز وخراسان وتبريز من السنّة ــ وفي تلك العهود من التاريخ كان معظم علماء السنّة من الفرس الذين اشتهروا بعلمهم حتى ان الرواة يروون لنا حديثاً عن النبي محمد جاء فيه : « لو كان العلم في اكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » (٢) .

كما أنه يلاحظ ان معظم علماء الشيعة في يومنا هذا هم من أصل فارسي . وقد جهدت الدولة الصفوية ما وسعها الجهد لفرض العقيدة الشيعية على السكان . ومن أجل ذلك استعانوا بعلماء شيعيين من جبل عامل في لبنان ، ومن البحرين فأصبحت اصفهان بعد ذلك مركزاً للفكر الشيعي(٣) . ولكن بسقوط الدولة الصفوية انتقل المركز الفكري الشيعة الى كربلاء والنجف .

نستنتج من هذا انه ان اعتنقت بلاد فارس العقيدة الشيعية الاثني عشرية أصبح لها تأثير بالغ في حياة العراق الاجتماعية . وكان للعلاقات المستمرّة بين مراكز الفكر الشيعي في كلا البلدين ، ايران والعراق ، أثر في ترسيخ الأثر الفارسي في العراق والأثر العراقي في ايران . وقد أسفر هذا التفاعل الشيعي الفكري بين البلدين عن نشوء حالة فكرية دينية في العراق ــ حيث معظم السكان من الشيعة ــ الزعامة فيها

---

(١) ان هذا لا يعني ان العلاقات بين العلماء في النجف وبين الحكومة الايرانية كانت دوماً علاقات ودية . فقد اصدرت الهيئة العلمية العليا في النجف منشورات عديدة كتبها الإمام الخوئي هاجم فيها شاه ايران متهماً اياه ــ بحسب رأيه ــ بأنه يمالىء اليهود ويتغاضى عن النشاط الذي يقومون به في بلاده .

(٢) ابن خلدون ، المجلد الرابع ، ص ١٢٤٧ .

(٣) Browne E., *A Literary History of Persia*, IV, 360.

العلماء الايرانيين ، او من أصل ايراني ، فكانوا القادة الدينيين والوُعّاظ في العراق ، وأصبحت لهم الكلمة النافذة فيه . هذا ، واكثر طُلاّب العلم في مدارس النجف الدينية هم من الايرانيين . ويؤثر عدد كبير منهم الإقامة في كربلاء والنجف بعد إنهاء دراستهم ، وإقامتهم هذه في المدينتَيْن المقدّستين ، كربلاء والنجف ، تعمّق الأثر الفارسي في الحياة الاجتماعية . ولذا كانت جميع المشكلات الايرانية في المجتمع العراقي تنعكس على وجود هذا العدد من الايرانيين المقيمين في هذين البلدين .

وأهمية النجف السياسية وثيقة الصلة بكونها مركزاً شيعياً هاماً للدراسة الدينية . فهي من هذه الناحية تقاس بأثر الأزهر في القاهرة ، وجامعة الزيتونة في تونس غير ان الأزهر والزيتونة مركزان لدراسة الدينية على المذهب السنّي . أما النجف فمركز دينيّ تعليميّ للشيعة . وبما ان باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً في الفقه الشيعي ، وبما انه على الشيعي ان يتبع تعاليم المجتهد الأكبر القائم – وهذا ما يجعل الرجلَ الشيعيّ مقلِّداً – نلاحظ الرغبة الشديدة والشغف العقلي لدى الرجل الشيعي في طلب العلم الديني والنظر النقديّ فيه . وهناك مراكز أخرى لتعليم الديني الشيعي كما في الكاظمين وكربلاء وسامراء . ولكن واحداً منها لا يضاهي المركز النجفي ، ولا يقاسُ به من حيث الاهمية ، وكلها تنظر الى النجف نظرة احترام وخشية . ومن حيث قدسية المدينة فانها تقع بين المدن المقدّسة ، الرابعة في المرتبة ، وهي مكة والمدينة والقدس . وإذا نشأت مشكلة خطيرة في العالم الشيعي ، وليس في النجف وحده ، فان الناس يتطلّعون ناحية النجف وينتظرون كلمة المجتهد الأكبر ، الحكَم الأوّل في القضايا الخطيرة ، الذي يصدر فتوى بعد أن يكون قد تداول القضية مع مستشاريه . وذلك لأن الشيعة تعتبر المجتهد الأكبر نائب الإمام الثاني عشر الذي هو في الغيبة . ويبلغ عدد المدارس الدينية في النجف ربعاً وعشرين مدرسة . وأشهرها مدرسة الصدر والقوام والاحمدية والهندي وآخند وكاشف الغطاء . ويدرس في هذه المدارس طُلاّب العلم من كل قومية ومن كل بلد من بلدان العالم ، غير ان غالبيتهم من ايران . وهناك طلاّب من العراق وكشمير وافغانستان ولبنان والهند ومن منطقة الخليج العربي . ولكي نُعطي القارىء صورة عن مجموعة الطلاّب نشير الى الاحصاءات التي جرت حول مجموعهم وحول البلدان التي ينتمون اليها في شهر كانون الاول من سنة ١٩٥٧ (١) :

---

(١) فاضل الجمالي في مجلة Moslem World (العالم الاسلامي) سنة ١٩٦٠ .

من ايران	٨٩٦ طالباً
من العراق	٣٢٦ طالباً
من الباكستان	٣٢٤ طالباً
من التيبت	٢٧٠ طالباً
من الهند وكشمير	٧٢ طالباً
من سوريا ولبنان	٤٧ طالباً
من الحسا والقطيف والبحرين	٢٠ طالباً

ومجموعهم ١٩٥٤ طالباً . والنظام التعليمي المتبع في هذه المدارس يتميز بطابع خاص يميزها عن غيرها من الانظمة المتبعة . اولاً ليس هناك من مؤهلات ومتطلبات علمية تؤهل صاحبها للالتحاق بهذه المدارس، بل ان كل من يشاء الالتحاق بمدرسة من مدارسها ، مهما تكن مؤهلاته العلمية ، يستطيع ذلك شرط ان يجد غرفة شاغرة في المدرسة كي يقيم بها . وليس للمدارس مدراء ولا عمداء ولا اساتذة معيدون ولا رسوم تعليم ، كما انه ليس للمدرسة موازنة ، ولا مدة معينة من السنوات للتخرج . اما مساق الدروس فمحدد ويشمل اللغة العربية والمنطق والدين .اما الدروس التي يحق للطالب ان يختار منها فتشمل الفلسفة والفلك والرياضيات. ولكن هذه العلوم الحديثة لا تزال تعلم في هذه المدارس كما كانت تدرس في القرون الوسطى وبالمضمون والمحتوى ذاتهما .

وينظم هذا المنهج التعليمي على ثلاث مراحل :

١ ـ السطوح
٢ ـ الفضلاء
٣ ـ الخارجية

اما المرحلة الاولى فتشمل درس اللغة العربية والبلاغة والمنطق. الكتاب المقرر لدرس العربية هو الأجرومية . اما المتقدمون منهم فيدرسون العربية في « جامع المقدمة » و« ألفية ابن مالك » و« مغني اللبيب » و« المطول » للتفتزاني و « الحاشية » للملا عباس. والمدة المعينة لانهاء مرحلة الدروس تكون عادة في حدود سبع سنوات .

اما مساق الدرس في المرحلة الثانية . « الفضلاء » فيركز على درس المنهج والفقه . في هذه المرحلة على الطالب ان يدرس مختلف المناهج في التوصل الى معرفة الادلة والثبوت . والأصول . والشرائع والفروض سواء أكانت تتعلق بالصلاة ام بالمعاملات بحسب الدين الاسلامي . والكتب المعتمدة في درس مختلف المناهج هي « المعالم » و« القوانين » و« الرسائل» و«الكفاية». اما الكتب المعتمدة في

درس الفقة فهي كتاب « التبصرة » و« الشريعة » و « اللمع » و « المكاسب » و« العروة الوثقى » (١)

ثم يتقل الطالب بعد انهاء هاتين المرحلتين الى المرحلة الثالثة: الخارجية. وليس في هذه المرحلة كتب خاصة معتمدة انما يحضر الطلاب دروساً ومحاضرات عامة يلقيها المجتهدون. ولانّ المحاضرات يلقيها المجتهدون فانها، بطبيعة الحال، تكون على مستوى رفيع ومن النوع الفنيّ المركّز في تحليل التعاليم الدينية والنصر فيها. والمجتهدون الذين يحاضرون في هذه الموضوعات العالية رجال هم شهرتهم الدينية والفكرية في جميع انحاء العالم الشيعي كالسيّد محسن الأمين والسيد حسين الهماني والسيّد أبو القاسم الخوئي. وفي مدارس النجف عدد من هؤلاء المجتهدين (٢)، غير ان المجتهد الاكبر هو زعيمهم ويكون الى جانبه مجتهد اكبر آخر. اما المجتهدون الآخرون من دونه فيعرف الواحد منهم بالمحتاط او المجتهد الاحتياطي. والمجتهد المحتاط يحلّ عادة محلّ المجتهد الاكبر في حال الوفاة.

فالمميّزات التي يتميّز بها النظام التعليمي الديني في النجف هي انه نظام لايتقيدّ بأي سلطة حكومية، والتلاميذ في النجف يتعلّمون للعلم ذاته، وحياتهم حياة تقشف وقناعة. والحوار الحرّ بينهم يجري في جوّ من الحرية التامة. والى جانب هذا انه نظام تربوي من شأنه ن يحل مشكلة الفروقات بين طالب وآخر من حيث الاستيعاب، اذ ان الطالب حرّ في تعلّمه فقد يسير في خطوات سريعة وله ان يسير الهوينا في تدرجه، كما ان له ان يختار الموضوعات التي يودّ ان يدرسها، والكتب التي يعتمدها، والاساتذة الذين يرغب في الاستماع اليهم. وله ان يختار زملاءه من الطلاب. وليس في هذه المدارس امتحانات مقرّرة تزعجه، ولذا فانه اذا قرأ كتاباً، او دخل في نقاش حول محاضرة حضرها، لا نجده متسرّعاً يريد بلوغ الحقائق والاستنتاجات في اقصر وقت، ولا هو مجبر على الحفظ غيباً ليعيد في الامتحان ما قيل له وما قرأه. اي انهم لا يستعجلون الزمن. ان عملية التعلم في النجف تسير سيراً هادئاً وتتميّز بالترويّ وبالنقد الحرّ. وهذ سبب من الاسباب التي تجعل الطلاب يحسنون التحصيل واستيعاب المادّة استيعاباً حسناً. وتجدر الأشارة الى

---

(١) المصدر ذاته (فاضل الجمالي).

(٢) والمجتهد من بلغ درجة الاجتهاد. والاجتهاد في عرفهم بلوغ مرتبة عالية في العلم الديني بحيث يستطيع المجتهد ان يفسر التعليم الديني ويستنتج المعاني التي قد تخفى على الناس، ويستنبط الاحكام من القرآن والحديث والسنة، ويكون تفسيره واستنتاجه ملائمين لتغيرات الظروف والأزمنة.

ظاهرة اخرى مهمة هي أن الطلاب، في اثناء تحصيلهم يقومون باعمال التدريس، وليس هناك وسيلة افضل من التعليم ، سبيلاً لفهم ما يكون المرء قد تعلّمه في المدرسة .

اذا لم يتذكرّ القارىء انّ النجف مركز للتعليم الديني الشيعي ، ومركز للفكر السياسي . واذا لم يتذكر انها مدينة تاريخية مقدّسة عند الملايين من الشيعة ، فانه يصعب عليه ان يدرك موقف النجف من حكومة الاحتلال البريطاني في بغداد بعد الحادي عشر من اذار ، ١٩١٧ ، وموقفها من إقامة حامية بريطانية في شهر كانون الثاني ، ١٩١٨ ، بالكوفة التي تبعد عن النجف مسافة خمسة اميال الى الشرق وذلك بتوصية رفعها السيد برسي كوكس (Cox) الى حكومته سنة ١٩١٨ (١) .

بعد سقوط بغداد توافدت جماهير الناس الى دار المُعتمد البريطاني السياسي للتهنئة ولأبداء الولاء والاحترام . وكان معظم أولئك الوافدين الى دار السلطة الجديدة يبغون نفعاً مادياً . ولم يكونوا يمثلون ارادة الشعب العراقي كما كانوا يدّعون. ولم يكن لهم من القوة ما يمكنهم من حفظ النظام والأمن في المناطق التي ادّعوا انهم يمثلونها ، ذلك بأنه كانت تعوزهم القوة والمال . وكان بين الوافدين الادعياء جماعة من النجف ادّعت انها تمثل علماء النجف وشيوخها ، وقد جاءت الى دار المعتمد البريطاني السياسي لكي تُقدّم احترامها وولاءها ثم انها عادت من بغداد الى النجف مدّعية ان السلطة المحتلة خوّلتهم ان يتوسوا الأدارة المحلية ، موقتاً ، باسم الحكومة البريطانية (٢) . وقد اشار اليهم الخاقاني (٣) – وهو نجفي كان يقيم بالنجف عندما دخلت الجيوش البريطانية بغداد – في كتابه قائلاً ان تلك الجماعة كانت تعرف في النجف باسم « علماء الأُفيز » . وقد ذكر بعض اسمائهم . ويبدو ان الانكليز ، بعد استيلائهم على بغداد بايام ، لم يكونوا على علم بمصدر السلطة الحقيقية في النجف ، اي مَن هم الذين في يدهم الأمر . فقد قال لي عالم نجفي قابلته وسألته عن الحادث انه كان من الممكن ، في ذلك

---

(١) راجع Wilson, A.T. *A Clash of Loyalties*
تضمن البلاغ الذي صدر في الاول من تشرين الثاني ، ١٩١٤ ، تعهداً بألا تقيم الحكومة البريطانية حاميات عسكرية في المدن المقدسة في حال انتصار بريطانيا على الأتراك في العراق . غير ان ولسن ادعى ان هذا البلاغ أصبح لاغياً وذلك بسبب تغير ظروف الحرب وحوادثها .
(٢) Bell, G.L. op. cit., 35
(٣) راجع كتاب الخاقاني « شعراء الغري » ص ٣٦٩ .

الظرف ، ان تنبري فئة من عامة الناس فترتدي لباس الشيوخ وتضع العمائم على رؤوسها مدّعية انها من جماعة العلماء فتزور المعتمد البريطاني في بغداد وتعود الى النجف مدّعيةً انها تستطيع الحفاظ على النظام والأمن ، وان المعتمد البريطاني قد خوّلها ذلك . والواقع ان السلطة الحقيقية في النجف هي في يد المجتهد الاكبر واعوانه . وقد برهنت الحوادث التي تلت هذه الحادثة على صحة هذا الامر .

بدأت متاعب الانكليز في مدينة النجف في شهر تشرين الاول من سنة ١٩١٧ . ذلك بأن شيخاً من قبيلة عنزة (١) قدم النجف وفي يده رسالة من الكولونيل ليشمان Leachman موجهة الى حميد خان تأمره بمد يد العون لقبيلة عنزة لتحصل على كمية كبيرة من الحبوب ، مع العلم ان مدينة النجف كانت تشكو من قلة الطعام بسبب القيود التي كانت الحرب تفرضها على التجارة لان الانكليز كانوا لا يزالون يحاربون الأتراك . ويجب ان نذكر ان النجف تعتمد استيراد الحبوب من الأماكن المجاورة لها (٢) . وعندما انتشر الخبر بمقدم شيخ من قبيلة عنزة السنيّة حليفة الانكليز ، كي يشتري ما يستطيع شراءه من الحبوب ، ارتفعت الاسعار ارتفاعاً كبيراً في اسواق النجف وفي اليوم التالي بعث الشيخ فهد الهذّال بقافلة قوامها ١٢٠٠ جمل لحمل الحبوب الى قبيلته. ولكن لم يكن في وسع النجف ان توفّر له هذه الكمية كما ان سكان المدينة ثاروا سخطاً يدفعهم في ذلك زعماؤهم الزمنيون والدينيون (٣) . فقامت تظاهرة في الاول والثاني من شهر تشرين الثاني وسارت الى المخيّم الذي نزلت فيه قافلة عنزة وحاصرتها ، فنشب قتال ونهبٌ ولم يكن في مقدور حميد خان ان يعمل شيئاً لأعادة النظام . فقدم النجفَ ضابط الارتباط السياسي الانكليزي المقيم بالشامية ، الكولونيـــل بلفور (F.C.C. Balfour) ليتدبّر الامور وليسوّي القضية بالتي هي احسن ، ولكن يبدو انه لم ينجح في مسعاه ، لانه غادر النجف قاصداً السماوة . وعاد الى النجف بعد ايام ليجد ان بنود التسوية التي اقترحها لم تُطبّق . فحاول ان يضغط على حاجي عطية ابو كلل وعلى كاظم الصبّي ، وكانا زعيمين من زعماء النجف ، طالباً اليهما ان يقبلا بتنفيذ بنود التسوية التي اقترحها . غير ان الثورة عادت فنشبت وارغم بلفور على مغادرة

---

(١) قبيلة العنزة سنية وشيخها فهد بن هذال حليف مخلص للانكليز . وكان يدفع له مرتب شهري ، منذ احتلال بغداد ، قدره ١٧ الف سترلينية .
F.O. 371/5129 (E.32 45/2719/44)

(٢) راجع اوراق بلفور الخاصة التي استودعها معهد الدراسات الشرقية في درهام :
Note on Troubles in Najaf, Box 303/3, P. 10.

(٣) Bell, op. Cit., p. 37

النجف تحت حراسة مشددة (١). وكان لثورة النجف هذه اثر عميق في نفوس الناس فامتد لهيبها الى بلدة الكوفة وابو صخير حيث هاجم الثوار مكاتب الحكومة ونهبوها . فما كان لبلفور الا ان يلجأ الى المجتهد الأكبر ، محمد كاظم يزدي ، طالباً اليه التدخل لأعادة النظام الى نصابه . فنصحه المجتهد الأكبر بأن يتخلى عن الزعيمين ، وعن مؤازرتهما له . فنزل بلفور عند طلبه فعادت الامور في النجف فوراً الى سابق عهدها . وكانت منطقة الفرات الاوسط ذات اهمية خطيرة بالنسبة الى الانكليز ، لانها منطقة غنية بالحبوب ، والحاجة الى الطعام والغذاء ماسة في تلك الفترة .

ان تلك الحادثة التي وقعت بين قبيلة عنزة وأهل النجف أظهرت لهم في وضوح وجلاء ان الانكليز لا يبالون ولا يهتمون إلاّ بمصالحهم الخاصة أولاً ، وبمصالح حلفائهم ثانياً . فأدركوا أنه ليس لديهم من وسيلة للخروج من المأزق سوى أن يتحدّوا سلطة الانكليز بغية حملهم على إعطاء النجف نوعاً من الاستقلال والحكم الذاتي لكي يتدبروا أمورهم بأنفسهم . هذه الروح الجديدة التي نفختها الثورة الموفقة في نفوس النجفيين دفعت المنظمة السرية التي تأسست هناك باسم « جمعية النهضة الاسلامية » الى العمل الناشط . وكان من قادة تلك المنظمة السيد محمد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري وكاظم الصبيّ وعباس الرماحي ، وكان يمثل الشبان جماعة منهم عبد الرزاق عودة وعباس الخليلي(٢) . وقرّ قرار هذه المنظمة السرية على أن تبقى سرية ، وعلى أن تعمل في حذر ، الى أن يتمّ تسليح أعضائها تسليحاً كاملاً ، وإلى أن تنظّم ماليتها ومن ثمّ تدعو القبائل المجاورة الى الثورة . أما حاجي عطية فانه كان قد وعد بتقديم العون للجمعية ، ولكنه رفض الانضمام اليها عضواً ، وآثر أن لا ينضمّ الى بحر العلوم والجزائري اللذين كانا يعملان في حذر وينظمان صفوفهما حسب خطة مدروسة . وكان من جرّاء هذا الارتباط المرجرج غير المحكم بالجمعية ، التي كانت قد أفلحت في استمالة عدد كبير من الزعماء النجفيين الى جانبها ، اضعاف الجمعية وإلحاق الضرر بدعوتها . وبعد ان كان حاجي عطية ، وهو رجل شديد التسرع والتهور ، قد تأكد من أن النجف تستعد لقيام ثورة ، وبعد أن كان قد أعدّ الخطط لها بمعاونة عجمي السعدون ومساندته — وكان هذا الأخير حليفاً للاتراك قويّ الشكيمة — أمر رجاله بأن يطلقوا النار على فرقة خيّالة من الجنود دخلت الكوفة في الثاني عشر من شهر كانون الثاني ، ١٩١٨ ،

---

(١) Bell, Op. Cit, 37

(٢) الخليلي ، المصدر ذاته ، ص ٣٦ .

والتي كانت تقوم بتمرينات عسكرية خارج النجف فقتلوا رجلاً وجرحوا آخر . ثمّ إن بلفور قام بزيارة للكوفة يوم الرابع عشر وأرسل يستدعي حاجّي عطية لمقابلته ، غير أنه كان قد فرّ وذهب الى عجيمي في الصحراء . وفرض بلفور غرامة على النجف قدرها ٥٠ ألف ليرة ذهبية وتسليم خمس مئة بندقية ، تُجمَع من زعماء النجف وأعيانها الذين قال عنهم ولسن نفسه انهم كانوا براء من التواطؤ مع أصحاب الثورة. أما النجفيون فانهم أبدوا سخطهم على فرض هذه الغرامة (١). وكانت وجهة نظر الجمعية (جمعية النهضة الاسلامية) تتلخص في أن الانكليز المنوط بهم حفظ النظام والقانون عاجزون عن قمع الفوضى التي أشاعها عطية ، وليس لهم أي حق في حكم النجف ، أو في فرض غرامة فادحة على سكانها في مقابل موت عسكري هنديّ هم المسؤولون عن موته . ولكن الجمعية لم تجهر بوجهة نظرها هذه لأن الاجراءات التي كان بلفور قد أخذها كانت تزيد الحالة في النجف تأزّماً ، كما أنها كانت اجراءات من شأنها أن تنضج الجو لنشوب ثورة عامة(٢) .

وقد أدرك بلفور في ما بعد أن فرض الغرامات على النجف لا يجدي نفعاً لأن الشيوخ والزعماء انما كانوا يجمعون المال قسراً من أناس فقراء لا ناقة لهم في الثورة ولا جمل (٣) .

في التاسع عشر من شهر آذار عقدت جمعية النهضة الاسلامية اجتماعاً في أحد بيوت حيّ الحويش في النجف ، أجمعت فيه غالبية الحضور على أنّ الظرف مؤات لقيام الثورة العامة . واتفقوا في الرأي على أن اغتيال الضابط مارشال (W.M. Marshall) سيكون بمثابة اشارة تُعطى للقبائل حوالي النجف ليبدأوا مناوشة المكاتب البريطانية الحكومية التي استُحدثت في تلك المنطقة . فأصدرت اللجنة التنفيذية إلى جماعة منهم ، قوامها حوالي عشرين رجلاً(٤) ، ليغتالوا مارشال ، وليخلقوا

---

(١) Wilson, Op. cit., 73

(٢) وقد اكد لي الخاقاني هذه النقطة في اثناء مقابلة اجريتها معه في بغداد في شهر آب ، ١٩٦٨ . والخاقاني كاتب شيعي مرموق في النجف ، وكان يقيم بالنجف طوال السنة التي حوصرت فيها المدينة .

(٣) Balfour's Private papers, op. cit. Box 303/2 P. 11.

(٤) وكان الخاقاني يعرف ١٧ رجلا منهم : الحاج نجم البقال ، ومحسن ابو غنام ، ومجيد دعيبل ، وحميد حبيبان ، وعابد حسينة ، وعلوان البوضيهم ، وعبيد هماشة ، وسعد الأميري ، وأحمد ياسين ، والسيد جعفر سيد حسن الصايغ ، وحسن جوري ، وحبيب خضير ، وجاسم طهار الهوا . راجع الحسني : العراق تحت الاحتلال والانتداب ، الجزء الاول ، ص ٣٦ .

حالةً من الاضطراب والفوضى في النجف اعتقاداً من اللجنة ان هذا سيعقبه قيام ثورة عامة في الفرات الأوسط . فخرجت الجماعة المنوط بها اغتيال مارشال من حيّ الحويش واتّجهت نحو خان عطية ، مقر الادارة المركزية البريطانية في النجف . وكان أفراد الجماعة قد تنكّروا في زي الشبانا(١) (البوليس المحلي) وادّعوا أن في يدهم رسالة مستعجلة مهمة يجب أن يُسلّموها الى مارشال. فدخلوا مقرّ الادارة وقتلوا مارشال وضابط العمل الذي كان معه . واستطاعت الجماعة أن تنسحب بعد أن قُتِل أحد أفرادها ، وهو حسن جوري . وذلك عندما أطلق الحراس البنجابيون النار بغزارة ، فجرحوا عدداً من الأبرياء ، نساء ورجالاً ، الذين كانوا يزورون النجف في ذلك الوقت .(٢)

صُعِق الكابتن بلفور لمصرع زميله مارشال فأتى الى النجف ليطّلع على الحالة ، ولكن أطلق عليه الرصاص فلجأ إلى بيت السيد مهدي سلمان . ولكن الجنرال مارشال (وهو غير الكابتن مارشال) أمر بضرب الحصار على النجف وأعلن أن شروط فكّ الحصار عنها هي التالية :(٣)

اولاً : تسليم بعض الاشخاص الذين عُرِف عنهم أنهم يتزعمون الثورة من دون قيد أو شرط .

ثانياً : دفع غرامة بالبنادق قدرها ألف بندقية.

ثالثاً : دفع غرامة مالية قدرها خمسون ألف ليرة انكليزية ذهبية .

رابعاً : نفي ألف رجل الى الهند كأسرى حرب .

خامساً : تبقى النجف محاصرة ويُمنع عنها الماء والطعام الى أن تنفّذ الشروط السابقة (٤) .

لم يبال النجفيون بالحصار في الأيام الاولى ولم يكترثوا بالبلاغ الذي صدر وفيه شروط رفع الحصار . ونشرت الجريدة البغدادية الرسمية « العرب » أخباراً مفادها ان وقعت مناوشات بين أهل النجف والجنود البريطانيين المحاصرين لها . وكانت محاولة النجفيين الأولى لفكّ طوق الحصار على مستوى حربي يوم الحادي والعشرين من شهر آذار عندما حاول عدد منهم أن يخرجوا من المدينة حاملين

---

(١) I.O., L/PS/10, 470, Fortnightly Reports by High commissioner, no.10,P.41.

(٢) الحسني ، المصدر ذاته ، الجزء الاول ، ص ٣٧ .

(٣) I.O. L/PS/10, 470, op. cit.

(٤) Belfour's Private Papers, op. cit., Box 303/2, 19.

قِرَباً مليئة بالنفط قصد إحراق السرايا ولكنهم لم يفلحوا في محاولتهم . كان معظم جنود الحصار قد تمركزوا حول مقام كامل بن رياد ، وهو أحد التابعين من ذوي الحرمة لدى الشيعة(١) . في هده الأثناء كانت تجري مفاوضات بين السيد مهدي ، أحد أعيان النجف ، وبين بلفور . كان السيد مهدي يُصرّ في مفاوضاته على طلب رفع الحصار بينما كان بلفور يُصرّ على تنفيذ الشروط الخمسة التي وردت في البلاغ . وكانت فترة الحصار هذه فترة قصيرة مشحونة بالتوتر لدى الجانبين . الادارة الانكليزية المدنية وجمعية النهضة الاسلامية ، اد كان كلٌ منهما يعتقد أن السلطة في النجف يجب أن تكون له . فكان ولسن يرى أن الحكم في النجف حقٌ من حقوقه ويقع ضمن نطاق سلطانه . فلم يكن يقيم أيّ اعتبار لما سماه « الادعاءات المتغطرسة التي كان يدّعيها زعماء النجف وتجارها الذين أقاموا أنفسهم أوصياء عليها »(٢) . وأخيراً أعلنت الجمعية أن هدفها الأخير هو الاستقلال التامّ الناجز ، وكان على أحدهما أن يتخلّى عن موقفه ، ولو إلى حين . وظهر في ما بعد أنه كان على الجمعية أن تتراجع .

وقد أحدث خبر حصار النجف ردّة فعلٍ عنيفة في جميع أنحاء العراق وفي ايران . وانهالت الرسائل التي لا حصر لها على موظفي الحكومة البريطانية من الزعماء الدينيين لدى الشيعة ومن أعيانها يطالبون فيها بأصدار العفو عن النجف ويعرضون وساطتهم . أما على الصعيد الرسمي فان الحكومة الايرانية نقلت الى السفير البريطاني في طهران مخاوف الحكومة من أن يثير خبر حصار النجف الشعورَ الديني ، وهو أمر لا تُحمَد عقباه . كما أن حكومة الهند ، ومكتب الهند بعثا ببرقيتين الى الادارة البريطانية المدنية تعبّران عن قلقهما من احتمال وقوع نتائج وخيمة تُسفر عنها الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الادارة في حق النجف(٣) . كذلك تلقّى الموظفون البريطانيون رسائل مغفلة تهدّد بالاغتيال من دون تمييز(٤) . وكان العطف العام لدى الجماهير ، بطبيعة الحال ، يساند النجف ويعضدها في نضالها . ولكن المستغرب أن تقول جرترود بل(٥) ان الرأي العام في بغداد وكربلاء والحلّة والكاظمين كان موحّداً في تنديده بموقف الثائرين في النجف . أما ولسن فلم يكن شديد المبالاة

(١) الخاقاني ، المصدر ذاته ، ص ٣٦٦ .
(٢) Wilson, op. cit, 74
(٣) المصدر ذاته ، ص ٧٥ .
(٤) المصدر ذاته ، ص ٧٥ .
(٥) G. Bell, *Reveiw of Civil Administration of Iraq*, 39.
cit, 75

بالرأي العام بالنسبة الى موقفه من الحصار . فقد ذكر أن « استة في بغداد قد أضافت الى متاعبنا متاعب أخرى بإعلان ابتهاجها انا قد وقعنا في ورطة وعلينا ان نقتلع شوكنا بأيدينا(١) » . غير أني أعتقد أن تقييم الخاقاني – وهو نجفي وعراقي – لردة فعل الرأي العام تجاه حصار النجف أقرب الى الحقيقة من غيره . فقد ذكر أن القبائل المجاورة للنجف التي لها في نفوسهم حرمة دينية عظيمة أخذت تفكر في مستقبل وطنهم وقومهم ، وبدأت تستعد لمجابهة عنيدة مع الانكليز(٢) .

نشرت جريدة العرب – وهي الجريدة البغدادية الرسمية – يوم ٢٦ آذار رسالة زعمت انها من علماء النجف وموجهة الى ولسن . كما أن الجريدة هذه نشرت الرسالة الجوابية التي بعث بها ولسن ، ووجهها الى المجتهد الأكبر محمد كاظم اليزدي(٣) . وكانت لغة الرسالة ، كما يقول الخاقاني ، شديدة اللهجة تنم أحياناً عن الإهانة وعن تعمد في الايذاء . ومضمون الرسالة اتهام صريح للمجتهد الأكبر وأعوانه من علماء النجف بأن لهم ضلعاً في الاضطرابات . وفي الرسالة تهديد صريح ، اذ يقول صاحب الرسالة : « وفي استطاعة النجف ان تخرج سالمة من المأزق الحالي الذي وقعت فيه اذا خضعت للشروط التي سبق ان عرضناها ... لا بل الأحرى بهم ان يطهروا بلدتهم من مفسديها ..(٤) » ومن يعرف شيئاً عن الشيعة يدرك فوراً أن المجتهد الأكبر لا يمكن أن يكون قد بعث برسالة الى السلطة يتوسل اليها العفو والصفح عن النجف . وها هو تاريخ الشيعة يشهد بأنه لم يقم بينهم مجتهد أكبر سمح لنفسه مرة بأن يتوسل مباشرة سلطة أخرى لحل مشكلة شيعية بهذه الصورة المهينة المذلة . لهذا السبب ذاته أنكر علماء الشيعة ومؤرخوها ممن عالجوا تاريخ الشيعة السياسي المعاصر صحة هذه الرسالة(٥) . ومهما يكن من أمر فان الرسالة والرد عليها وفرا على علماء النجف في صورة عامة ، على المجتهد الأكبر في صورة خاصة ، الاسباب والاعذار لمقاطعتهم الادارة المدنية ولقطع جميع الاتصالات والعلاقات الودية معها . وكان من المعروف لدى أهل النجف أن المجتهد الأكبر لم يكن يوافق على قتل أي موظف – على الأقل في تلك الفترة ذاتها – انما كان يطالب بالاستقلال التام الناجز ويقف الى جانب من كان هذا مطلبه أيضاً . ولكنه ، بعد هذه الرسالة ،

(١) Wilson, op. cit., 75

(٢) الخاقاني ، المصدر ذاته ، ص ٣٧١ .

(٣) راجع نص الرسالة في الملحق الرقم ٢ .

(٤) راجع الملحق الرقم ٢ ، والخاقاني ، المصدر ذاته ، ص ٣٧٢ .

(٥) المصدر ذاته .

أصبح طليقاً يحتفظ لنفسه بالحق في تبديل رأيه في ما يتعلّق بالموقف الودّي السليم الذي كان يقفه من الادارة الانكليزية المدنية سابقاً . وكان من نتائج نشر هذه الرسالة أن الرأي الشعبي العام أصبح الى جانب الذين اغتالوا الكابتن مارشال ولا سيما أن أهل النجف كانوا الى جانب الذين قاموا باغتياله وراحوا يساندونهم . كما أن التهديدات التي وردت في الرسالة ، والموقف المتعجرف الذي وقفه ولسن – كما بدا ذلك في الرسالة ايضاً – هذه وغيرها دفعت أهل النجف الى الوقوف الى جانب الثوّار وعضد موقفهم .

فيهذه الاثناء شدّد الانكليز الحصار على النجف . وفي ٧ نيسان استطاعت فرقة الجنرال سوندرز (Saonders) أن تحتل مجموعة من التلال (ركامات من التراب حول سور المدينة) المحيطة بالمدينة بحيث أصبحت المواقع السترانيجية الضرورية لإحكام طوق الحصار في قبضة الجيش الانكليزي ، الأمر الذي يمكّنه من القضاء على كل مقاومة نجفية قد تقوم ضد الجنود البريطانيين . أما لماذا بقيت القبائل المجاورة محافظة على هدوئها وعلى عدم قيامها ، عند ذاك، بالثورة، فاني أعتقد أن هناك سببين : أولاً تفوق الانكليز في السلاح ، ثانياً التغيير المفاجىء في سياسة الادارة المدنية الذي اتخذته السلطة تجاه القبائل المجاورة للنجف . إذ من المعلوم أنه كلما قَرُبت مجاورة القبائل للنجف ذاتها قلّ تسلّحها ، وذلك لما كان للنجف من نفوذ ديني وسياسي في احلال السلام بينها ، الأمر الذي يقلّل من شأن السلاح في أيدي القبائل. أي أن النجف كانت تحلّ لهم مشاكلهم فلا حاجة الى السلاح. أما التغيير في سياسة الادارة المدنية تجاه القبائل فقد حدث في شكل تقديم سُلف ومعونات زراعية ، وفي رفع الضرائب المفروضة على الأرض وعلى محاصيلها ، الأمر الذي حمل شيوخ القبائل على التفكير والتروّي قبل الاقدام على الثورة والتمرّد على السلطة . كما أن الانكليز أصبحوا يعرفون مواطن الضعف في التنظيم القبلي وسعوا الى استغلال هذا الضعف والانتفاع به . وقد أفلحت الادارية المدنية الانكليزية في استغلالهم والانتفاع بهم في أثناء حصار النجف . اذ أنهم رفعوا كثيراً من القيود عن كواهلهم وخفّفوا من وطأة الاجراءات الحكومية بين القبائل التي كان يُظنّ انها أحسن حليف للنجف بغية استمالتهم وكسب عطفهم . وقد أثمرت هذه السياسة الجديدة التي اتّبعتها الادارة الانكليزية اذ وَفّرت لها أمر تهدئة القبائل(١) .

والسبب الرئيسي في ضعف النجفيين وعجزهم كان تفرّقهم وعدم توحيد

---

(١) هناك مثل عامي يقول : شبع البدوي وخذ حياته .

كلمتهم . وأما المجتهد الاكبر فانه لم يشأ أن يورّط نفسه في القضية لان جمعية النهضة الاسلامية لم تستشره في أمر اغتيال مارشال . وكان وجهاء النجف ، من ناحية أخرى ، كالسيد مهدي سلمان . يسعون جهدهم لتذليل الصعاب التي تعترض سبيل الاعتراف بالانكليز والخضوع لهم . لأن هذه الفئة من التجار فقدت الكثير من المنافع المادية من جرّاء الحصار . وقد كان لدى بعضهم مقادير عظيمة من تمور البصرة وحنطة الحلّة . هؤلاء استفادوا من الربح الذي كانوا يجنونه من سكان النجف الجياع . وكان بعضهم لا يرغب في رفع الحصار طالما كانت لديهم مقادير من الحنطة والأطعمة التي يستطيعون بيعها من السكان . أما الثوار فكان هدفهم متابعة النضال حتى النهاية ولكنهم كانوا قليلي العدد ، وكان جُلّهم من الفقراء . أضف الى هذا أنه كانت تعوزهم مساندة المجتهد الأكبر روحياً ومعنوياً . وكان من حسن طالع الانكليز أنه لم تقم في النجف فئة تستطيع أن توفق بين هذه التيارات المختلفة في صفوف النجفيين . اذ ان النجف كانت مسرحاً تلتقي فيها مختلف الفئات البشرية : الثوار ، والمحتكرون ، والانهزاميون ، والفئات الفقيرة المُعدَمة ، والمساكين الضعفاء ، والجياع(١) . كان لدى النجفيين جميع امكانات المقاومة ، انما كان يعوزهم التعاون والتعاطف في ما بينهم . وهذا كان سبباً من أسباب رضوخهم آخر الأمر واستسلامهم للسلطة(٢) .

بعد احتلال التلال في ٧ نيسان بواسطة الجنود الذين كانوا يرابطون خارج السور ، راح الجنرال سوندرز يشدّد الحصار بإحكام طوق ضيّق حول النجف لكي يمنع النجفيين من القيام بأي مناورة . ثم انهم احتلوا سور المدينة وجميع البيوت الملاصقة له وعددها قرابة خمسمئة بيت . كما ان الانكليز احتلوا محلّة عطية خارج السور وهي محلة عدد بيوتها أيضاً قرابة خمسمئة بيت . وهكذا ، وفي خلال يومين ، في الثامن والتاسع من شهر نيسان ، أحلت السلطات العسكرية البريطانية قرابة ألف بيت من سُكّانها وطردتهم منها ، فلجأوا مشرّدين الى داخل النجف ، حيث نزلوا في المساجد وفي المزارات المقدسة . وكان لدى بعضهم مالٌ يشترون به أطعمة وأما الآخرون فقد هلكوا جوعاً . في تلك الأثناء ، عندما كان النجفيون يجابهون مشكلات الطعام والسكن ، راح السيد مهدي سلمان وأتباعه يعملون على إرغام الثوار على

(١) لم يكن من غير المألوف ان يرى المرء هرة – في اثناء الحصار – تأكل صغارها ، وكلباً يلتهم التبن .
(٢) ومن الامور المستغربة اني لم اعثر على ذكر امر الحصار وانا اطالع مناقشات مجلس العموم البريطاني لسنة ١٩١٨ .

الاستسلام . ثمّ جرى بعد ذلك تعقب الثوار من بيت الى آخر ، ومن بئر إلى أخرى لمدّة أيام عدّة ، وفي الأول من أيار تمكّنت السلطة من القاء القبض على ١٥٠ رجلاً . وفي أحد تقارير المفوّض السامي البريطاني نصف الشهرية ذكر أنه عثر في حوزة ضابط الارتباط السياسي الالماني في عانة على وثائق ثبوتية تشير إلى أن اضطرابات النجف كانت تُعدّ في الخارج . ويقول المفوّض السامي ان تلك الوثائق تشير الى دور عجيمي السعدون الذي كان يتسلم شهرياً ١٥٠٠ ليرة ذهبية عثمانية من بروسن (Preussen) على أنّه لولب الثورة . وتثبت الوثائق أيضاً وجود لجنة تعرف باللجنة الاسلامية الثورية التي كان هدفها أن تجعل من النجف مركزاً للاضطرابات الدينية بين القبائل . والاشخاص الرئيسيون الذين وردت اسماؤهم في وثائق بروسن - كما يقول التقرير الآنف الذكر - هم بحر العلوم ، وأبناء المرحوم السيد علي الداماد الذي كان خطيباً ناشطاً يدعو الى الجهاد الى ان سقطت بغداد ، وصدي (سعدي) الاسلام وكيل شيخ الشريعة . أمّا براهيم بهبهاني فقد كان على اتصال مستمرّ ببروسن (Preussen) (١)

شكّلت في الكومة محكمة عسكرية لمحاكمة الثوار . وتألفت المحكمة من الزعيم ليشمان (Leachman) رئيساً لها ، ومن الرائد إيدي (Eadie) ومن الرائد روث (Routh) عضوين. وكان المدّعي العام الكابتن بلفور وقضت المحكمة بإعدام ١٣ رجلاً . أما بحر العلوم وبهبهاني فقد استُبدل حكم الاعدام بالنفي وذلك بعد أن كان المجتهد الأكبر قد توسّط (المجتهد الاكبر يزدي) لدى السلطات للتخفيف من الحكم الذي صدر في حق بحر العلوم. وحكم على خمسة أشخاص بالنفي مدى الحياة . كما أنه حُكم على أحدهم بالنفي مدة ١٠ سنوات ، وآخر مدّة أربع سنوات. وبالإضافة الى الاشخاص الذين قُدموا الى المحاكمة فان السلطة الانكليزية نفت أكثر من مئة شخص الى الهند كأسرى حرب لاشتراكهم ، في شكل أو آخر ، في الثورة المسلّحة. وقد نُفّذ حكم الاعدام صباح ٣٠ أيار سنة ١٩١٨ (٢) . وقد استطاع عبّاس الخليلي وبعض رفاقه الفرار من السجن وأفلحوا في الوصول الى ايران . وبعد هذا الانتصار الذي أحرزه الانكليز ظنوا انهم تغلّبوا على أخطر ما جابههم من ظروف حرجة بعد الاحتلال وان الأمر قد انتهى . ولكن أقلّ ما يقال عن هذا الحادث انه كان مجرّد بدء لعهد من العلاقات المتوترة بين الشيعة والسلطة

---

(١) I.O. L/PS/10, 470, Fortnightly Reports by High Commissioner, no. 11, P. 49. See list of deportees in appendix 3

(٢) I.O. L/PS/10, 470; op. cit. no 14.p. 63

البريطانية . عهد تميّز بالشك والحذر والتأهب لمجابهة عنيدة .

ينبغي للمرء أن ينعم النظر جيداً في الحوادث التي أدّت الى حصار النجف ، لاعلى أنها حوادث تدل على الخروج على الأنظمة والقوانين ، كما كان يعتبرها كل من ولسن وجرترود بل ، بل على انها حوادث تعكس لنا عقيدة الشيعة الراسخة في الاستقلال الذاتي في العراق ، وهي عقيدة يجاهرون بها عندما تسنح لهم الظروف بذلك حتى وقتنا الحاضر(١) . وقد درس حادثة حصار النجف هذه ثلاثة أدباء من النجف على أنها تعبير عن الشعور ضدّ الاجنبي الغازي . هؤلاء الثلاثة هم يوسف رجيب الذي كتب مقالاً في المجلة النجفية «الاعتدال» ، شهر آذار ، ١٩٣٩ ، والسيد محمد علي كمال الدين في كتابه الموسوم «النجف في ربع قرن» وجعفر باقر المحبوبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها» . وقد جاء كل منهم على ذكر الحوادث التي أدّت الى الحصار ، والأشخاص الذين لعبوا دوراً أساسياً فيها ، ثم الحصار وما عقبه من حوادث مفجعة . ولكن واحداً منهم لم يدرس العوامل الحقيقية الخفيّة وعلاقتها بالمعتقد الشيعي في الاستقلال الذاتي . ان حصار النجف خلّف آثاراً عميقة ليس في أهل النجف وحدهم ، وليس في شيعة العراق فحسب ، بل في الشيعة في جميع انحاء العالم الذين ينظرون الى النجف نظرة احترام وتقديس لأنها مقرّ المجتهد الاكبر نائب الإمام الذي هو في الغيبة ، والذي سيعود يوماً «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً» . وفي استطاعة المؤرّخ ان يربط بين حصار النجف وبين الدور الأساسي الذي لعبه النجفيون في ثورة ١٩٢٠ .

هل كان في استطاعة الانكليز ان يتفادوا حادثة حصار النجف؟ وهل عرفوا الى اين سيجرهم هذا الحصار ؟ ومن كان الاشخاص الذين كانوا يسدون لهم المشورة والنصح في معاملتهم مع أهل النجف ؟ ومن الذي جنى نفع الانتصار الانكليزي ؟ وماذا كان للحصار من أثر ، في المدى الطويل ، في التصرّف السياسي الشيعي في العراق ؟ وهل عزّز الانتصار الانكليزي سلطة المجتهد الأكبر ام أضعفها وقوّض أسسها ؟ وهل وحّد صفوف الشيعة أم جزّأها الى احزاب وشيع ؟

لكي يستطيع المرء تقييم التشكيل السياسي الذي عقب حوادث النجف وحصارها يجب عليه أولاً أن يدرس هذه الأسئلة التي طرحناها وان يحاول الإجابة عنها في عناية ودقة فائقتين . وتجدر بنا الاشارة الى ان الفرات الاوسط يعتبر أغنى بقعة من بقاع العراق . كما انه تجدر الاشارة ايضاً الى ان منطقة الفرات الأوسط منطقة تقطنها الشيعة .

---

(١) راجع «البلاغ الشيعي» في Chatham House Version بقلم ايلي خدوري ، ص ٢٨٣ .

وهذا هو أحد الأسباب التي حدت السلطة في بغداد ، في اثناء عهودها المختلفة ، الى اقامة احسن العلاقات الودية مع النجف ، مركز النفوذ السياسي الشيعي في الفرات الأوسط . ذلك بأن العلاقات الحسنة مع هذه المنطقة الشيعية كانت تتوقف على نوعية العلاقات القائمة بين الحكومة المركزية في بغداد وبين النجف .

ونحن نعتقد أنه كان في إمكان السلطة البريطانية ان تتفادى حصار النجف المُفجع لو أنه قيّض لها أن تتصل بمستشارين يعرفون العقلية الشيعية ، وانهم كانوا حسَني الاطلاع على النجف وطبيعة أهلها . ولكن كان مستشارهم وناصحهم السيد مهدي سلمان والسيد محمد المحيسين ، وهما من زعماء تُجّار الاحتكار . ولم يكن رفع الحصار او تشديده يعنيان شيئاً بالنسبة اليهم الاّ بقدر ما كانا يدرّان لهم من ربح في بيع تمور البصرة او حنطة الحلة التي كانت تتكدّس في عنابرهم . فانّه عندما فرغت عنابر السيد مهدي سلمان مما تكدّس فيها من طعام اظهر ميلاً الى الاستسلام الى الانكليز ورفع الحصار . لأنه أدرك انه اذا استمرّ الحصار فان تجارته لا بُدّ وان تتأثر به . كذلك السيد محمد المحيسين فانه أقنع ليشمان بأنه اذا عضدته الحكومة البريطانية بالمال فانه يستطيع ان يدخل النجف على رأس جماعة من أعوانه بدعوى أنه قادم اليها لمناصرة النجفيين ومساندتهم في مقاومتهم . ولكن الغرض الحقيقي من خديعته هذه هو تنظيم حركة مقاومة مناوئة للحركة النجفية (١) . وعندما اتصل ليشمان بلفور ونقل اليه اقتراح محمد المحيسين ارتاح الى الفكرة ووافق عليها . فانه إذا وُضع هذا الاقتراح موضع التنفيذ لكانت وقعت داخل النجف حرب اهلية دامية ، واذا اضطُرّ الانكليز الى قمعها فانه يتوجّب عليهم ان يشدّدوا في اجراءاتهم الحربية وفي احكام الحصار ، مما يعود على المحيسين بالارباح الطائلة نسبة الى ما كان عنده من الطعام المحتكر . في كلام آخر ، كان الناس الذين يقدمون النصح للانكليز يقدّمون اولاً مصالحهم الخاصة على مصالح الانكليز التي كانت تهدف الى اشاعة السلام والاستقرار في المنطقة . ولو ان الانكليز تقرّبوا اولاً من المجتهد الأكبر الذي لم يكن ينظر الى جمعية النهضة الاسلامية بعين الرضى عندما بدأ الحصار وما أسفر عنه من مآسٍ . نقول ، لو ان الانكليز في بادىء الأمر اظهروا رغبة في التعاون مع المجتهد الأكبر لكانوا تفادوا كثيراً من الفواجع والمآسي التي وقعت للطرفين .

كما انه ينبغي على طالب التاريخ ان ينظر ايضاً في حادثة قبيلة عنزة التي وقعت في

(١) راجع رسالة بعث بها الضابط البريطاني السياسي المقيم بالشامية الى الضابط البريطاني السياسي في بغداد ، ومؤرخة ٣٠ آذار ، ١٩١٨ .
Balfour's Private Papers, op. cit., Box 303/2.

شهر تشرين الاول سنة ١٩١٧ ، والتي بدورها ادّت الى ضرب الحصار على النجف . ان مجموعة القبائل التي تشكل قبيلة عنزة الكبرى هي في غالبيتها قبائل سنّية ، ومنذ اليوم الاول من احتلال الانكليز ابدوا رغبة في التعاون وفي التحالف معهم .

ان قبيلة عنزة تتألف من ثلاث مجموعات قبلية : العمارات وعلى رأسها فهد بيك بن الهذّال الذي يدّعي الانتساب الى حدّ اعلى اسطوري اسمه بشر . وتقطن قبيلة العمارات الزاوية الجنوبية الشرقية من صحراء سوريا غير انها تقضي صيفها على مقربة من الفرات . والمجموعة الثانية قبيلة الرواله وعلى رأسها نوري بن الشعلان ، ومضاربها تقع الى الجانب المقابل من قبيلة جيرانهم العمارات . فالعمارات تتّجه ناحية كربلاء والنجف عند الاستبضاع وشراء الحاجات ، بينما تتّجه الرواله ناحية دمشق للغرض ذاته . اما المجموعة الثالثة فتتألف من اتحاد بين قبيلتي فدعان وسبأ، وكلتا القبيلتين كقبيلة العمارات تنتسبان الى الجدّ الاعلى بشر ، ولذا فانهما تُعرفان بقبيلة بشر . وابن هذّال هو أقوى زعيم قبليّ على الحدود الغربية للعراق . وذات يوم كان والده موظفاً عند الاتراك برتبة قائمقام . وكانت قائمقاميته الصحراء الممتدة من واحة شثاثة الى كربلاء . وعلى الرغم من ان ابن هذّال يدّعي انه زعيم عنزة غير المنازع فانه ، في الواقع ، لا سلطة له اطلاقاً على قبيلة الرواله ، كما ان شيوخ قبائل العمارات وبشر يأتمرون احياناً بأمره اذا كان الأمر لمصلحتهم والاّ فانهم لا يكترثون ولا يبالون بسلطته. وكانت سلطات الانكليز قد وقّعت على اتفاق مع ابن هذّال بعد الاحتلال بشهرين او اكثر . ثم ان الانكليز دفعوا له معونة مالية . وبموجب الاتفاق يتعهد ابن هذّال بحفظ الأمن على الحدود ، وبمنع مرور البضائع في الصحراء (١) . ولكن هل وضع ابن هذّال رجاله وامكاناته وما لديه من قوة من أجل تنفيذ التعهد الذي ارتبط به ؟ جاء في برقية أرسلت من سلطة الاحتلال في العراق الى رئيس الاركان الامبراطوري يوم الرابع والعشرين من حزيران ، ١٩١٧ ان فهد ابن هذّال على استعداد للتعهدات والوعود ، وعلى قبول المساعدات المالية ، ولكن ليس على استعداد لأن ينفّذ شيئاً مما يتعهدُ به (٢) . ومن ينظر في التاريخ مستكشفاً خفاياه يجد ان دور ابن هذّال كان سلبياً لا ايجابياً بالنسبة الى الانكليز. فقد تناسى هو وقومه ان الانكليز قد عهدوا اليه في القيام بدور العدوّ المناوىء لعدوّهم ، اي الاتراك (٣) . ففي شتاء ١٩١٧ — ١٩١٨ هدّدت المجاعةُ العراق ، ومن الذي استفاد من بؤس المجاعة غير

---

(١) Bell, op. cit., 42

(٢) Cab. 21/60

(٣) Bell, op. cit., 42

قبيلة عنزة التي استغلت العلاقات الودية القائمة بينها وبين السلطة البريطانية ؟ في تلك الاثناء ، عندما خيّم شبح المجاعة ، قدمت قافلة قوامها ١٢٠٠ جمل من عنزة الى النجف ومعها رسالة من الكولونيل ليشمان فيها تعليمات الى حميد خان في النجف ليسلّم حنطة وحبوباً طعاماً لها . وكانت النجف وعلماؤها ينظرون دوماً الى ابن هذّال وقبيلته على انه رجل انتهازي نهّاب لا يهمه امر سوى تحصيل المال والطعام . فكان النجفيون يرون ان من حقهم ان يقاوموا مثل هذا الأجراء – عدم تسليم الحنطة – الذي امر به ليشمان ، ولا سيما ان المجاعة كانت تهدّد العراق بأسره . كذلك التسوية التي فرضها بلفور ، ضابط الارتباط السياسي في الشامية لم تُقنع اهل النجف بأن لابن هذّال الحقّ في ان يتسلّم الحنطة التي طلبها من تجّار النجف . ولهذا السبب عندما عاد بلفور الى النجف بعد يومين وجد ان الشروط التي كان قد فرضها لم تُنَفّذ . وعندما راح يمارس ضغطه على حاجي عطية وعلى كاظم الصبيّ ، وهما من زعماء النجف المقدّمين ، اتضح لاهل النجف بما لا يقبل الشك ان ابن هذّال بالنسبة الى البريطانيين هو اهم وارفع مكانـــة من جميع النجفيين معاً . امـــا عطية والصبيّ فانهما أثارا الاضطرابات وقاما باعمال الشغب حول مضرب عنزة في النجف . فأشار المجتهد الاكبر على بلفور ان يغادر النجف وان يترك عطية والصبيّ وشأنهما . ونزل بلفور عند رغبة المجتهد الاكبر . وكان تصرّف بلفور في هذه الحادثة يوحي بانه كان رجلاً لا يفهم العراق وعقلية اهله . حتّى انه وان كان بلفور قد نجح في فرض تسوية وأعطى ابن هذّال ما طلبه من طعام وحنطة فان تأثير ذلك ، على طول المدى ، كان سيؤثّر في العلاقات بين البريطانيين والشيعة . ان كلّ مؤرّخ او أديب عراقي يدرك جيداً ان حسن العلاقات بين بريطانيا والشيعة أهمّ بكثير من اقامة علاقات حسنة مع قبيلة عنزة . ذلك بأنه لم يكن لابن هذّال كلمة مسموعة لدى بعض القبائل التي تشكّل قبيلة عنزة ، كقبيلة العمارات مثلاً ، ولكن للمجتهد الاكبر في النجف ، ولعلماء النجف واعيانها سلطة ونفوذٌ لدى اكثر من نصف اهل العراق جميعاً . هؤلاء هم الناس الذين في يدهم حفظ الأمن واشاعة الاستقرار . ولكن الموظفين البريطانيين في الفرات الاوسط ، في تلك الفترة ، اظهروا انهم دوماً على استعداد لتكدير العلاقات الودية مع النجف ولاسيما ازها في الوقت الذي كانت فيه النجف مركزاً للنفوذ السياسي والديني في المنطقة بأسرها . وكل ما فعله ابن هذّال هو انه امر رجاله بمغادرة النجف وتُرك الأمر للبريطانيين كي يتدبروا امر الحادث الخطير الذي نشأ من ذلك الوضع .

اما حاجي عطية ، كما ذكرنا آنفاً ، فانه كان قد دبّر خططه مع عجيمي السعدون ، حليف الاتراك القوي في لواء المنتفق ، وازداد جرأة واقداماً بسبب النتائج التي اسفرت عنها الاضطرابات ، وبسبب عجز بلفور عن فرض تسوية . فأمر رجاله بأن يطلقوا

النار على الخيّالة الهنود في الكوفة الذين كانوا يقومون بمناورة في ضواحي النجف ، فقتلوا هندياً وجرحوا آخر (١) . بعد ذلك فرّ حاجي عطية ، بعد ان كان قد أثار القلاقل والاضطرابات ، الى صديقه عجيمي في الصحراء ، فاسرع بلفور الى فرض غرامة على النجف قدرها خمسة بندقية وخمسون الف ليرة ذهبية انكليزية . هذا الى جانب وجوب تسليم زعماء الثورة. ان هذا التدبير الذي اتخذه بلفور في حق النجف – واقل ما يقال فيه انه اجراء صارم لم يكن لمصلحة الادارة البريطانية الجديدة – اثار سخطاً شديداً لدى النجفيين الذين قال عنهم ولسن انهم كانوا براء من التواطؤ في اثارة الشغب والقلاقل . ان السلطة البريطانية لم تدرك ان حاجي عطيّة انما كان يحاول جمع صفوف النجفيين الى جانب الاتراك وذلك بدفع الانكليز وبحملهم على اتخاذ اجراءات صارمة ضدّ النجف . ولم يستطع الانكليز ان يحصروا نطاق الثورة التي أثارها عطية، الأمر الذي اسفر عن نتائج لم تكن في مصلحتهم. كان الأمر على نقيض هذا فان قتل جندي هندي خارج اسوار النجف دفع بالانكليز الى اتخاذ اجراءات صارمة في حق عامة الشعب . وفي حق اعيانها ، اي انهم عملوا تماماً ما عجز عطية عن ان يعمله هو نفسه .

ان الاجراءات الصارمة التي اتُخذت في حق النجفيين لقتلهم جندياً هندياً خلقت لجمعية النهضة الاسلامية تربةً صالحة لبذر دعوتها ولحشد المناصرين لها. كما ان الحملات التي قام بها الاتراك ضد كربلاء والنجف في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ ، كذلك استباحتهم مدينة الحلّة في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٦ زادت في حدّة عداء النجف والشيعة التقليدي للاتراك . وأعادت البغضاء القديمة الى نفوسهم . لكنّ السياسة البريطانية التي اتبعت في العراق ازاء الشيعة لم تكن سياسة ذات مرونة وليونة بحيث كان من الممكن ان تجعل من الشيعة حليفاً لها ، او على الأقل حليفاً ممكناً .

ان نظرة الشيعة العقائدية الدينية ، كما هو معلوم ، تؤكد ان الزعامة عندهم تتركز في المنصب الرفيع الذي يتبوّأه المجتهد الاكبر ، الممثل الحيّ للأمام المنتظر الذي هو في الغيبة ، وان هذه الزعامة يجب ان لا تخضع لأي زعامة اخرى على وجه الارض . ان حصار النجف ، والرسالة التي نشرتها جريدة العرب ، وجواب المفوّض السامي الشديد اللهجة ، جميع هذه الامور عزّزت سلطة المجتهد الاكبر الروحية والسياسية ، لان السلطة السياسية عند الشيعة تصدر عن السلطة الروحية . ولم يكن محمد كاظم يزدي ، المجتهد الأكبر آنذاك ، معنياً باحداث ثورة لتغيير الوضع قبل ضرب الحصار

---

(١) Bell, op. cit, 38

على النجف ، بل ، كما سنرى ، انه في السنوات التي تلت أصبح الزعيم الروحي والقائد لثورة مسلّحة ضد البريطانيين . وكان السبب الرئيسي في ذلك ان السياسة البريطانية دأبت على تحدّي هذه السلطة التي يتمتّع بها .

ان القبائل السنّية التي نزحت الى العراق من مواطنها في البادية الجنوبية في اثناء الحكم العثماني كانت ، بعد توطنها ، تعتنق المذهب الشيعي . (١) وقد جاء الحيدري في مصنّفه على ذكر معظم القبائل المعروفة التي اعتنقت المذهب الشيعي (ويستعمل لفظة ترفّضت ، من الرافضة) في العراق، ومنها الخزاعل (منذ ١٥٠ سنة) وتميم (منذ ٦٠ سنة) وزبيد (منذ ٦٠ سنة) وكعب (منذ ١٠٠ سنة) وربيعة (منذ ٧٠ سنة) . اما القبائل الأخرى المعروفة كقبيلة البومحمد ، وبنو عمير ، والخزرج ، وشمّر طوجا والدفافعة وبنو لام وآل اقرع والبدير وعفق والجبور والشليحات فانها اعتنقت المذهب الشيعي ايضاً ، ولكن لا يُعرف على وجه التدقيق التاريخ الذي فيه تمّ اعتناقهم هذا المذهب . وقد عزا المؤرّخون العراقيون في القرن التاسع عشر هذه الظاهرة – اعتناق القبائل النازحة المذهب الشيعي – الى نشاط الدعاة والوّعاظ الشيعيين الذين كانوا يغادرون الأماكن المقدّسة مثل النجف وكربلاء وسامراء للعمل التبشيري بينها . وعلى الرغم من ان الحلّة لا تعتبر من الأماكن المقدّسة لدى الشيعة فانّها كانت ولا تزال مركزاً للنشاط التبشيري بين القبائل . يقول ابن سند البصري ، عند كلامه عن قبيلة زبيد انها كانت اصلاً قبيلة سنية غير انهـا اصبحت شيعية بفضل نشاط الدعاة الذين عملوا بين ظهرانيهم ، مع العلم ان الدعاة الشيعيين يتدربون على هذا العمل ويمارسونه بجدّ وكفاءة(٢) . ويقول انه بعث بالتماس الى الباب العالي يطلب فيه وضع حدّ لهذا النشاط التبشيري ، وذلك بايفاد علماء من السُنّة الى القبائل والأرياف لعراقية حيث لم يبلغ النشاط الشيعي بعدُ ذروته كي يتعهّدوها بالتعليم الديني السنّي .

ولكي يستطيع المرء فهم حرص الشيعة على استمالة القبائل العراقية وتعهّد شؤونها الدينية ينبغي له ان يُلمّ بتاريخ الشيعة في العراق . كثيرون من المؤرّخين

(١) الحيدري : عنوان المجد ، ص ٣ .
(٢) البصري ، ابن سند : مطالع السعود ، ص ١٦٩ .

يسلّمون جدلاً بأن ايران هي مهد الشيعة . وبأن قبائل العراق وقعت تحت تأثير الدعاة الايرانيين قبل اعتناقها المذهب الشيعي . ولكن يجدر بالمرء ان يتذكّر ان ايران كانت في الأساس بلاداً سنيّة المذهب وان علماء سنيين عديدين كانوا من الايرانيين (١) حتّى القرن العاشر الهجري عندما اعلن الصفويون ان دين الدولة الرسمي هو المذهب الشيعي . وذلك لاغراض سياسية محضة ثم انهم اخذوا على عاتقهم حمل الناس على اعتناق المذهب الجديد بحزم وقوّة . الواقع ان الكوفة كانت مهد الشيعة ، وكانت القبائل العربية الضاربة في هذه المنطقة أولى القبائل الشيعية . ثم انتشر نطاق الشيعة رويداً رويداً حتى شمَل تقريباً نصف القطر العراقي من بغداد الى الفاو جنوباً . ولم تكن الشيعة ، في صورها التكويني الاول ، تختلف عن غيرها من المذاهب الاسلامية الا في مضمونها السياسي الذي كان في الأساس ثورياً يساند العلويين ضدّ الأمويين . ولكن عندما قامت الدولة العباسية على انقاض الدولة الاموية ، اعتبر انتصارها هذا انتصاراً للشيعة وعدّها كبار المؤرخين انها دولة شيعية المذهب (٢) . ولكن ساءت العلاقات الودية في ما بعد بين العباسيين والعلويين وانقطع حبل الودّ بينهما الأمر الذي ادى الى انشقاق خطير في الأمّة وانقسمت الى شطرين ، وآثر العباسيون ان يعرفوا لدى عامة الشعب على انهم من اهل السنّة والجماعة ، بينما آثرت الشيعة ان تظلّ على ولائها ، وان تُعرف لدى العامة بشيعة عليّ . وذريتهم هي التي تُعرَف في عهدنا هذا في العراق بالشيعة . ومهما تكن الأسباب التي ادّت الى هذا الانشقاق الخطير ، فأن طالب التاريخ لا يمكنه انكار ما كان له من اثر عميق في السياسة العراقية في القرن العشرين . وفي الأصل لم يكن الفرق بين الشيعة والسنة الا فرقاً في ولائهم وانتسابهم السياسي . ولكن على مرّ العصور أصبح الفرق بينهما يتخذ اشكالاً اخرى في الدين وفي العلوم التي تدور حول الدين .

ان العامل الرئيسي الذي عمّق شقة الخلاف بين علماء السنة وعلماء الشيعة في العراق الأمر الذي كان له اثر فعّال في وجهتي النظر السياسية لدى الطرفين ، هو مصدر الدخل لدى كل طائفة منهما . فان العالم الديني السنّي في العراق يعتمد في دخله على ما تقدمه له السلطة العراقية ، اي انه كان يعتبر موظفاً حكومياً يتقاضى مرتباً . بينما كان العالم الديني الشيعي يعتبر مال الحكومة مالاً يشك في انه مال حلال . فكان يرفض كلّ عون مالي حكومي . وله في ذلك تعليل مذهبي يرضى عنه . فانه ، بصفته رجلاً يؤمن بامامة آل البيت ، وبصفته رجلاً يعتقد انه لم تقم

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٤٣ .
(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٩

بعدُ حكومةً على هذا الاساس – حق آل علي في الخلافة – يؤمن بأن جميع الحكومات التي قامت وتقوم هي حكومات غير شرعية ، فيتوجّب عليه اذاً ، ان يعمل على اسقاطها اذا استطاع الى ذلك سبيلاً ، او انه يلجأ الى اجراءات سلمية اخرى لمعارضتها . ومن الملاحظ ان العالم الديني السني يعتبر الحكومة القائمة وسلطتها حكومة شرعية. اما العالم الديني الشيعي فانه يعتبرها غير شرعية فينظر اليها نظرة شك وريبة ويسرف في انتقادها . اما العلاقات القائمة بين علماء الشيعة ومجتهديهم من جهة ، وبين الحكومة والسلطة من جهة اخرى فتقوم على مبدأ التقيّة الذي تأخذ به الشيعة . ان السلطة او الخليفة المثالي هو عليّ بن ابي طالب ، وكلُّ من يحيد عن المثل الذي ضربه في حياته وحكمه لا يستحق ان يتبوأ منصب الخلافة الرفيع . وهكذا نستطيع القول ان زعماء الشيعة الدينيين قد تحرّروا كلياً من سلطة الحكومة عليهم ، ليقعوا فريسة لسلطة التي يفرضها الشارع ، لانهم يعتمدون كلياً على الزكاة والاوقاف في مجتمعاتهم الخاصة . واعتماد علماء الدين ومجتهديهم من الشيعة على المعونة الاقتصادية من لدُن الشعب له منافعه وله مضارّه . ذلك بأن عامة الشعب ، واكثرهم من الفقراء ، لا تستطيع ان تقدّم عوناً مالياً الى عدد كبير من العلماء ، لذلك فانهم يخصون عالمهم الكبير بما يستطيعونه من تقدمات ، فيسفر الأمر عن كون افضلهم علماً واوسعهم معرفة في امور الدين والعلوم الاسلامية ينال القسط الاوفر من هذه الهبات . وليس من شك في ان هذا حافز طيّب يعود بالخير على العلم والدين . ولكن مضارّ هذا التقليد تسترعي الانتباه . من المعلوم ان الشيعة ورثت عن المعتزلة اخذهم بالعقل والمنطق ، ولذا فان الفقه الشيعي تطوّر تطوراً متشابك الجوانب في شتى حقول العلوم الاسلامية ، ولا سيما ان باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً لديهم . ولكن بما ان العامة لا تزال تميل الى الأخذ بقسط من التقاليد والخرافات في ما يتعلّق بشؤون دينهم ، وبما انهم يقيمون فروضاً وشعائر اشباعاً لرغائبهم وسدّاً لحاجاتهم الدينية فقد نشأت على مرّ الزمن هوة شاسعة بين العامة وبين علمائها . وكان من جرّاء هذا ان العلماء قصروا مباحثهم الدينية ودراساتهم التحليلية النقدية للعقيدة الشيعية على الذين يحضرون حلقاتهم التدريسية كما انهم كانوا يميلون الى تكييف سلوكهم وتطوّرهم لاشباع نزوات الشعب واهوائه . وقد كتب عالم شيعي بارز أصبح في ما بعد وزيراً للتربية الوطنية في العراق – وهو الشهرستاني – مقالاً في النجفية ، مجلة العلم ، لفت فيها انظار الزعماء الدينيين لدى الشيعة الى المشكلة التي اذا لم يوجد لها حلّ فانها تودّي آخر الأمر الى القضاء على الدين (١) .

---

(١) راجع ايضاً علي الوردي . دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، ص ٢٣٢ .

يحتفظ الزعماء الدينيون من الشيعة بسلطتهم الروحية على جماهير الناس في مجتمعاتهم بتوليهم الشؤون الدينية الشيعية وبرعايتهم لاعيادهم الدينية والمهرجانات التي تتسم بصبغة دينية والتي تقام في مزاراتهم ومقاماتهم . اذ انه لا بد من ان يكون في كل لواء تكون غالبية السكان فيه من الشيعة عدد من المزارات المقدّسة . ومقامات تضم قبور الايمة . وعلى مدار السنة تقوم الجماهير بزيارة هذه الأمكنة المقدسة ، على الرغم من ان هناك اسابيع من السنة تفضل غيرها للقيام بهذه الزيارات . وهذه المقامات المقدسة المنتشرة في منطقة الفرات الاوسط والاسفل تربط جموع الشيعة في كل لواء بالنجف على انها المركز الديني الذي يقيم به المجتهد الاكبر . وقباب بعض هذه المقامات مطلية بالذهب الخالص ، وهي قباب لا تزال تستهوي الزائرين لما هي عليه من جمال الصنع ورفيع الفن في البناء. وقد يُنظر الى هذه المقامات على انها مجرّد مراكز دينية ذات نفوذ واسع ، ولكن المرء لا يستطيع ان يتغاضى عن كونها، الى جانب هذا ، ذات نفوذ سياسي واسع النطاق بصفتها ملاذاً يلجأ اليه الزعماء السياسيون في اوقات الضيق عندما تنشأ ازمة حادّة بينهم وبين السلطة العلمانية . ولهذه المقامات المقدّسة ايضاً حرمتها القضائية ، اذ ان القاضي الشرعي لا يقبل القسَم – اذا كان حلّ الدعوى يتطلب القسم – الاّ ان يكون داخل الحرم .

والوسيلة الثانية المهمة التي يتذرّع بها المجتهد الاكبر لتعزيز الروابط التي تربطه بعامة الشيعة هي المجالس الحُسينيّة والتي تُعرَف ايضاً بالتعزية وهي مآتم حاشدة تقام احياء لذكرى استشهاد الحسين بن علي بن ابي طالب . ففي الايام العشرة الاولى من شهر محرّم تنظم الشيعة مسيرات شعبية حاشدة في عدد من المدن الرئيسية في العراق يرددون فيها اشعاراً شجيّة على انغام موسيقى حزينة وعلى وجوههم إمارات الحزن العميق ، وينادون يا علي ، يا حسين . وتتخذ هذه المسيرات في اليوم العاشر من محرّم شكلا اكثر عُنفاً وتهيّجاً فترى بعضهم يحملون السيوف والجنازير الحديدية يضربون بها اجسادهم ويلطمون على صدورهم المعرّاة وذلك احياء لذكرى مقتل الحسين في مثل ذلك اليوم ، وذلك لان الشيعة آنذاك خذلته . ويرى بعضهم في مسيرات العاشر من محرّم تعبيراً عن عقدة الذنب الذي تشعر به الشيعة اليوم . وليس من العسير على المرء ان يدرك ما لهذه المواكب العنيفة – وتُعرف عندهم بمواكب التطبير – من اثر في نفوس الشبيبة المتحمّسة . اما التعازي التي تقام فهي مجالس هادئة لا تتسم بالعنف الذي تتسم به مواكب التطبير . فيها تتلى المراثي على الحسين وفيها الكثير من الرزانة والعمق . يقيم وجهاء الشيعة تعازي اما في شهر محرّم او صفر ، ويدعى اليها شاعر – ويعرف بالروزخون اي قارىء كتاب الروضة – يتلو على الجمهور ما يناسب المقام من سيرة الحسين واستشهاده وبعض

المراثي التي نظمت فيه وقد يدعون خطيباً يعلو المنبر ويلقي خطبة بليغة حول سيرة الحسين وخلقه وشدة بأسه وموته المفجع . وقد يمثلون حوادث اليوم الذي قتل فيه الحسين . ويرى المرء في هذه المجالس الحسينية (التعزية) أناساً من الشيوخ يذرفون الدمع . هذه المجالس تستأنف الى مشاعر العامة لا الى عقول المثقفين . ولذا نجد اللغة المستعملة في الاشعار والخطب اقرب الى العامية منها الى الفصحى كي تفهمها العامة . وهكذا يمكن القول ان المجالس الحسينية ، ومراكب التطبير وزيارة المراقد هي من الوسائل التي تساعد الزعماء الدينيين لدى الشيعة على الاحتفاظ بسيطرتهم ونفوذهم في المجتمع الشيعي .

عندما يبدأ دعاة الشيعة نشاطهم التبشيري التعليمي بين القبائل النازحة الى العراق يركزون اهتمامهم على نقطتين مهمتين يستطيع البدوي فهمهما ويقتنع بصحتهما. اولا التركيز على مناقب اهل البيت. ثانياً على المظالم التي لقيها ابناء عليّ على يد اعدائهم . وقد أفلح الشعراء الشيعيون والخطباء منهم في خلق أدب غزير يدور حول هاتين الحقيقتين — حق آل البيت في الأمامة والمظالم التي نزلت بهم — وتقصّوا كلّ شاردة وواردة تتعلق بالفاجعة . فان لدينا الآن الالوف من القصائد والخطب التي تدور حول مناقب علي بن ابي طالب وما كان عليه من شجاعة وفصاحة وعدالة وزهد هذه المناقبية هي بعض الدلائل التي تشير الى الكمال والعصمة كما ان لدينا ادباً غزيراً من المراثي وفيها وصف مفجع لما لقيه الأمام علي طوال حياته حتى يوم اغتياله . وهذا ينطبق ايضاً على سيرة الايمة الأحد عشر . فانه قد نشأ حول سيرتهم ومناقبيتهم والفواجع التي نزلت بهم ادبٌ غزير جداً. والغاية من ذلك عرض قضية الشيعة لا لرفعها الى مجلس قضاء بل لطرحها يوماً بعد يوم امام عامة الشعب فتستأنف طريقها الى مشاعرهم واحاسيسهم الدينية . وهذا النوع من عرض قضية الشيعة الأساسية يستأنف طريقه الى قلب الرجل القبلي وروحه . فانه يوفّر له ادباً قصصياً مفصّلاً يدور حول الحضارة البدوية وما تتسم به من فروسية . كما انها تضع امام عينيه امثلة لرجال عظام حقيقيين لا وهميين امثال عليّ والحسن والحسين والايمة الآخرين الذين كانوا يتحلّون بمناقبيّة تلك الحضارة . وعلى الرغم من هذا فان حياتهم كانت سلسلة من المظالم والفواجع . وعندما يسمع اهل القبائل هذه الاشعار وهذه الخطب التي يتلوها عليهم دعاة الشيعة يشعرون وكأن مُثُلهم القبلية في المناقبية هي واحدة مع مناقبية الايمة . فان البدوي ، سواء اكان من الرحّل ام من الفلاحين نصف المتحضرين يهوى عادة الابطال فيرى في الايمة الذين تتلى عليه سيرتهم بهذه الصورة المؤثرة قدوة حريٌ به ان يقتدي بها . ولكن تجدر الأشارة الى ان الرجل القبلي العادي قد لا يدين لأوامر الدين ونواهيه ولا يتعاطف مع

ما يمليه عليه الدين كما يتعاطف ويتجاوب شعورياً عندما يجلس مصغياً الى القصائد والخطب التي تهز مشاعره وتقائص اهل القبائل امر لا يخفى على فطنة الزعماء الدينيين ولكن على الرغم من هذا فان تمسك القبائل بالعقيدة الشيعيـــة وانضمامها الى صفوف الشيعة يمكّنان الزعماء من فرض سيطرتهم السياسية على هذه القبائل .

ان الفضيلة الاولى التي يتحلّى بها البدوي الوافد من الصحراء العربية هي الصدق في الاقوال والأفعال . ولذا فانّ القَسَم امر نادر بينهم . فاذا اتّهم البدوي باقترافه جرماً يُسأل عن صحة الاتهام فإما ان يعترف بالجرم وإما ان ينكره وينتهي الأمر عند هذا الحدّ والناس يصدّقونه . ولا حاجة بالعوارف الى بذل جهد كبير لحمل البدوي على الأقرار بذنبه . ولكن اذا أرغم على اخذ القسم فانه يرفع عن الارض عوداً ويقول « وحقّ هذا العود والرب المعبود (١) » ولكنه لن يقسم الاّ اذا كانت الحاجة الى ذلك حاجة قصوى يتطلبُها الأمر . ولكن الملاحظ ان البدو عند مقدمهم الى العراق يفقدون كثيراً من فضائل الصحراء . وقد يكون السبب في ذلك انهم في موطنهم الجديد يتعرّضون لضروب من الاحوال والظروف التي في نظرهم ، تتطلب شيئاً من الأثم دفاعاً عن النفس فانهم اذا تعرّضوا لمظالم الجباة والمرابين فان القَسَم ـ ويُعرَف عندهم « بأيمان الخادم» (٢) ـ يصبح امراً لامناص منه، اي انهم عندما يحتكون باهل المدن ، وعندما تنشأ علاقات جديدة تربطهم بهم يشعرون وكأنّهم مرغمون على اتباع سلوك وتصرُّف مزدوج الوجهين ، او المستويَيْن . ولهذا فانهم يرغمون على اخذ القسم كرادع لسوء التصرُّف . واصبحت المراقد (قبور الايمة والاولياء) مراكز يُقْسَم بحرمتها في جميع انحاء الفرات الاوسط والاسفل . اما اذا كان القسم يتعلق بعقود تجارية او باتفاقات قبلية فانه يؤخذ عادة داخل احد المرقد . وبما ان هذه المراقد تختلف من حيث الاهمية الدينية والحرمة فأصبح من المألوف ان يختار اكثرها مناسبة للوضع اذ اقتضى الأمر اخذ القسم ، وكلما كانت القضية على جانب من الخطورة فانهم كانوا يختارون المرقد الاهم مكاناً للقسم . واهمُ المراقد حرمة مرقد العباس بن علي في كربلاء . والعبّاس عندهم رجلٌ شديد الغيرة يقولون عنه بلغتهم « رأسه حارّ » ويريدون بذلك انه لا يتغاضى عن اثم رجلٍ يستعمل اسمه في قسمٍ كاذب ، بل إنّه يعاقبه اشدَّ عقاب . وعلى سقف مقام العباس صورة رأس رجلٍ . تقول الرواية الكربلائية انه رأس رجل اقسم بحرمة العباس كذباً . ويشدّدون في القول ان من يقسم ايماناً كاذباً يقطع رأسه

---

(١) الراوي ، المصدر ذاته ، ص ٢٣٤ .

(٢) وهو ايمان يأخذ به على نفسه في حرم العباس الذي له في نفوسهم حرمة عظيمة .

ويُشتَهر به . كذلك يقولون في كلامهم « نسي العبّاس » يريدون بذلك انه رجل غير ورع فارقته التقوى . وبعد ان عاد الشيخ سالم الخيون ، زعيم قبيلة بني اسد ، من الهند حيث اقام هناك ردحاً من الزمن ، قال رجال القبيلة عنه انه « نسي العبّاس » لانه لم يكن يتردّد في ان يقسِمَ بحرمته كذباً ، حتى انه لم يُحجم عن القسم بحرمة لنبيّ نفسه كذباً . لكن الناس لا يقسمون كذباً بحرمة العبّاس . والسبب في ذلك ، كما تقول الرواية العامية هو ان النبي والايمة من بعده قوم معصومون رحماء لايؤذون بشراً على وجه الارض . اما العباس فليس إماماً ، اذاً هو ليس معصوماً . والمعروف عنه انه كان محارباً حادّ الطبع لا يُحجِم عن معاقبة الكذاب بل يضربه « بشارته » فيصرعه . وفي الواقع ان قبائل الفرات الاوسط والاسفل تتجنب ناحية العبّاس اكثر مما تتجنب ناحية النبي او سائر الايمة . لان العباس يمثل القيمَ الحضارية البدوية بما في ذلك الشجاعة والفروسية . وتنتشر بين القبائل اخبار وقصص عديدة تدور حول سيرة العباس منها ان الأمام علياً بعث بكتاب الى اخيه عقيل يطلب اليه ان يختار له زوجة لان عقيل كان أعرف الناس بأنساب العرب . فاقترح عقيل على اخيه عليّ ان يتزوّج بفاطمة بنت حزام الكلابية لان أباها واخوتها اشتهروا بالشجاعة والفروسية . وهكذا كان ، فان عليا تزوّج بفاطمة هذه التي انجبت له العبّاس . والعباس اشتهر بين الشيعة بأنه كان « ساقي عطاش كربلاء » لانه كان الفارس الوحيد الذي أفلت من الطوق الذي ضربه اتباع يزيد حول مخيّم الحسين وورد الماء وملأ قربته من دون ان يشرب هو ، وعاد الى صحبه فسقى النساء والاطفال الى ان ارتووا . كما ان العباس كان من اشدّ انصار الحسين حتى النهاية . وكان الحسين قد طلب اليه بالحاح ان يفرّ من المعركة وينجو بنفسه فكان العباس يقول : « لا نتخلّى عنك ولا نبقى بعدك » (١) . وقد تغنّى الشعراء في الوف القصائد بمناقبيّة العباس. وهذه الاشعار تُتلى عادة في المجالس الحسينية (التعازي) . وكل من يصغي الى هذه الاشعار لا يتمالك من التأثُر بها في شكل او آخر . وطبيعي ان يكون هناك مراقد اخرى على غاية من الاهمية والحرمة في مناطق اخرى من العراق مثل مرقد محمد بن علي الهادي على مقربة من بلدة . ومرقد عبد الله بن علي جنوب قلعة صالح ، ومرقد علي الشرقي على مقربة من الكميت . ومرقد علي اليثربي بن موسى الكاظم قرب بلدة . وانتشار هذه المراقد المقدّسة في انحاء مختلفة من العراق وفّر للزعماء الدينيين للشيعة اسباب السيطرة الروحية والزمنية على جموع الشيعة . ولا يستطيع امرؤ خارج نطاق الشيعة ان ينكر ما لهذه المراقد المقدّسة من خير ونفع ،

---

(١) الأمين ، محسن محمد : اعيان الشيعة رقم ٣٧ ، ص ٧٥ .

ولاسيما لدى المحاكم الشرعية التي تلجأ احياناً ، في فض الخصومات والدعاوى ، الى القسم في احداها لتجريم المذنب او لتبرئة البريء . ان انتشار هذه المراقد عامل استقرار في حقل الاتفاقات التجارية والمعاهدات القبلية ويخلق جواً من الثقة المتبادلة في حقل العلاقات الاجتماعية .

اما السادة في العراق — وهم ممن ينتسبون الى آل البيت — فانهم يشكلون طبقة متميزة . هؤلاء يدعون انهم من ذرية محمد النبي . وجميعهم ينتسبون الى الأئمة من ابناء فاطمة وزوجها علي بن ابي طالب ابن عم الرسول . لذا فانهم يحتلون مرتبة دينية محترمة (١) . وعامة الشعب في العراق تنظر اليهم نظرتها الى الاولياء والقديسين لانهم اولاد رسول الله . وهناك جماعات منهم منتشرة في جميع ارجاء العالم الاسلامي . ويعرفون في الحجاز وفي مصر بالأشراف . وفي مصر لهم نقابة خاصة تعرف بنقابة الاشراف (٢) حيث يحتفظون فيها بجداول انسابهم . ولهم في مصر رواتب ضئيلة تقدمها لهم الدولة . اما السادة في العراق فيمكن تمييزهم من العمة التي يعتمرونها ويكون لونها اسود او ازرق او اخضر ، وذلك تبعاً للأمام الذي يدعون الانتساب اليه . واذا جلسوا في بيوت الضيافة فلهم الصدارة ، ويقدمون على غيرهم في جميع المناسبات . وعندما يجمع رؤساء القبائل حصتهم من الغلال من الفلاحين الذين يزرعون ارضهم يمتنعون عن استيفائها اذا كان الفلاحون ينتسبون الى السادة دلالةً على تقديرهم واحترامهم الديني . وعلى الرغم من انه يفترض في السيد ان ينقطع الى الامور الدينية وان يترفع عن امور الدنيا والسعي وراء الربح ، لاسيما في امور الربا الممنوع في الاسلام شرعاً ، فاننا نجد ان قسماً كبيراً من السادة يحتكرون، في بعض انحاء العراق، تسليف المال في مقابل فائدة كما هي الحال في الجبايش (٣) . وعلى الرغم من حرمة النسب الذي ينتسبون اليه فان علاقاتهم بالنجف لم تكن دوماً علاقات طيبة ودية . لان ما تعنى به النجف — وهي التي تمثل العقيدة الشيعية — هو اعلاء شأن العقيدة الشيعية اينما يتسنى لهم اعلاؤها . بينما نجد هم السادة الاول هو الحصول على مكاسب ومنافع دنيوية يحصلون عليها من عامة الناس وذلك بفضل انتسابهم الى آل البيت . وقد كررت النجف القول على لسان مجتهديها البارزين ان الهوية الدينية او المكانة الدينية التي يتبوأها الفرد ، تنطوي على مسؤولية وليست امتيازاً لمنفعة شخصية . غير ان السادة لايكترثون

---

(١) سليم ، شاكر ، المصدر ذاته ، ص ٦٢ .

(٢) النجار ، الاشراف ، ص ٧٢ .

(٣) سليم ، س.م. ، المصدر ذاته ، ص ٦٢ .

بهذا القول وينظرون الى القضية من زاوية اخرى . وتقع المرّة بعد الأخرى مشاحنات ومخاصمات بين « الموامنة » — وهم الرسل الذين يبعث بهم المجتهد الأكبر الى مختلف النواحي — وبين السادة في مختلف المُدن التي يفدون اليها في الفرات الاوسط والأسفل . وتكون جماعة « الموامنة » في غالبية الاحيان ، من خرّيجيّ المعاهد الدينية في النجف ويحسنون التكلّم عن امور الدين . ولكنهم جماعة من الفقراء والمعوزين ، بينما نجد السادة جماعة تجهل امور الدين وليس في كل الحالات — وتنقصها الثقافة الادبية . ولا تحفل بالدرس والقراءة . غير انها جماعة تنعم بالثروة والامتيازات وبحُسن الحال . ويمكن القول عن سياسة النجف . او الموقف الذي تتخذه ازاء السادة صحاب الامتيازات لرفيعة ، انها سياسة مبطّنة يُقصد بها تحاشي الاصطدام والمجابهة . وقد نجحت هذه السياسة في انها ، تحاشياً للاصطدام بهم ، عزلتهم من صفوف الشعب وحوّلتهم من فئة مميّزة الى فئة فقيرة الحال معوزة . وأصبح تقديم العطاءات للسادة امراً من قبيل التطوّع والتبرّع بعد ان كان امراً إلزامياً (والسادة كانوا يعتبرونه حقاً من حقوقهم) . ولكن يمكن القول ايضاً ان جماعة السادة لا تزال تتمتّع باحترام العامة لها نسبة الى حرمتها ومكانتها من آل البيت .

وفي النجف مقبرة فسيحة تُعتبر ربما من اكبر المقابر في العالم ، وتُعرف بمقبرة وادي السلام . وكل شيعي تقي ورع يتمنّى لوان جثمانه يُدفن في هذه البقعة . فانه كلما جاور الميت مرقد الامام علي زادت شفاعته له يوم القيامة . ومنذ القرن الثامن عشر والشيعة يفدون الى النجف زرافات حاملين اجساد موتاهم ليدفنوا في وادي السلام . وقد زار نيبور الرحّالة الاوروبي مدينة النجف سنة ١٧٦٥ وقدّر عدد الموتى الذين يؤتى بهم من اماكن مختلفة ليدفنوا في النجف بمعدّل ألفي ميت كل سنة (١) . ولا شك في ان عدد الموتى الذين يؤتى بهم الى النجف قد زاد كثيراً ، وذلك بفضل توافر سُبُل النقل اليسيرة والسريعة . وبحسب الاحصاءات التي قامت بها إدارة الصحة التركية العامة عام ١٩١٢ — ١٩١٣ ، والمبعثرة مكاتبها هنا وهناك في مدن العراق ، بلغ عدد المدفونين في النجف — طبعاً من خارج النجف — ٧٥٥٨ . وقد نشأت حول الدفن في النجف روايات واخبار مختلفة لتعليل هذه الظاهرة . ونتج من ذلك بعض النفع المادي والاجتماعي في النجف . فقد ظهرت ، من جراء الدفن في النجف ، طبقة نجفية جديدة كثيرة العدد وذات مقام مرموق تعتمد في دخلها ، في الدرجة الاولى ، على عدد الوفيات بين الشيعة في الخارج الذين يأتون بموتاهم ليدفنوا في وادي السلام . تحمل اجساد الموتى على ظهور الخيل وعلى

(١) راجع ترجمة كتاب نيبور بقلم سعاد العمري : مشاهدات نيبور ، ص ٧٢ .

المشاحيف ، وفي السيارات ، وفي القطر الحديدية وفي كل وسيلة نقل اخرى لمدة أسابيع واحياناً لمدة اشهر ، وذلك لكي تدفن في النجف تبركاً ولكي ينال الموتى شفاعة الأمام يوم القيامة . اما فقراء الشيعة ممن لا يستطيعون تحمل النفقات لنقل موتاهم الى النجف فانهم يدفنونهم دفناً موقتاً في قراهم ومدنهم الى ان يتيسر لديهم المال الكافي ، إما عن طريق تبرعات يتلقونها من اعيانهم واغنيائهم ، وإما عن طريق الاستدانة لقاء رهن ما تملكه ايديهم من عقار ومتاع لدى الصيارفة . ثم ينبشون القبر ويحملون الرفات لدفنه في النجف . واحياناً تشترك المجالس البلدية في تحمل نفقات دفن العالم الديني في النجف دلالة على احترام الموت (١) . ونقل اجساد عدد كبير من الموتى عبر مسافات شاسعة في جو حار كجو العراق ، عملية معقدة يجب ان تتوافر لها وسائل صحية عديدة (٢) . لكن نقل الجنائز الى العراق تجارة رابحة جداً ، ولذا ترى ان في العراق فئة من الناس يتخذون من نقل الجنائز تجارة تدر عليهم الأرباح . هؤلاء التجار يذهبون هم انفسهم ، او قد يوفدون عملاءهم الى ايران ، والى بلدان شيعية اخرى ليتولوا نقل الموتى . وقد يظلون مدة في البلد الذي يفدون اليه كي يتجمع لديهم عدد كبير من الموتى فينقلون اجسادهم دفعة واحدة الى النجف . ويعرف رسم الدفن عندهم بالدفنية او الترابية . ووزارة الاوقاف هي التي تمنح الحق في دفن الموتى لاشخاص معينين وتجيز لهم ان يفرضوا رسماً معيناً . ففي سنة ١٩١٤ حصل على هذا الامتياز من وزارة الاوقاف يهودي بغدادي بعد دفعه رسماً قدره ١٣ الف ليرة عثمانية ذهبية ، وكانت مدة الامتياز ثلاث سنوات . ان زعماء الشيعة الدينيين يدركون ان عملية نقل الموتى عبر مسافات شاسعة من بلدان بعيدة تتطلب نفقات جسيمة ، ناهيك بما تنطوي عليه من اخطار صحية وعنى جسدي – نقول ان الزعماء الدينيين يدركون

---

(١) قصاب . أ. مذكراتي ، ص ٨٧ .

(٢) سنة ١٩٠٤ – ١٩٠٥ منعت ايران الحج ونقل الجنائز وذلك لتفشي داء الكوليرا ولكن على الرغم من المنع فانهم كانوا يهربون الجنائز سراً الى العراق الامر الذي يعرض البلاد لتفشي الوباء فيها . وفي سنة ١٨٩٦ عندما تفشى الطاعون في الهند حتى سنة ١٩٠٩ منعت حكومة الهند نقل الموتى الى الأماكن المقدسة . ولكن قرار المنع هذا فقد مفعوله عندما قررت وزارة الصحة في الإستانة السماح بنقل الجنائز على مسؤوليتها الخاصة وذلك في ٢١ ايلول ، ١٩٠٩ ، ثم في الاول من آذار ، ١٩١٠ . واسفر هذا القرار عن ازدياد في عدد الجنائز المنقولة الى المدن المقدسة عبر ميناء البصرة . وقد ارتفع العدد سنة ١٩٠٨ – ١٩٠٩ من الصفر الى ٧٣٠ ، ثم الى ٨٩٩ ، ثم الى ١٥٥٢ ، في السنوات التالية .

ان هذا يناقض مبادىء الاسلام كما نصّ عليها القرآن الكريم من نوح متعددة . وقد طلب السيد هبة الدين الشهرستاني ، الذي جئنا على ذكره آنفاً ، الى المجتهد الاكبر ، سنة ١٩١٢ ، والى غيره من الزعماء الدينيين ان يصدروا فتوىً يُمْنَع بموجبها نقل الموتى . وقد استجاب علماء الدّين لهذا النداء واصدروا فتوى بذلك ولكن عامة الناس من الشيعة تجاهلوها كما انهم تجاهلوا صدور سلسلة من الفتاوى المماثلة . وظلوا ينقلون موتاهم الى النجف . ولم يقتصر الأمر لدى عامة الشعب على تجاهل الشهرستاني والفتوى التي استصدرها بل انهم اتهموه بالزندقة وحاولوا اغتياله . وهكذا أصبح نقل الموتى ليدفنوا في النجف تقليداً دينياً شيعياً راسخ القواعد ، ولن يقبل الرأي العام الشيعي بأيّ تعرّض لهذا الموضوع ، او بأي محاولة للقضاء على هذه المشكلة ، وهو امر يؤسف له . كما ان الزعماء الدينيين يدركون ان ما يرافق مواكب التطبير في عاشوراء من ضرب الناس اجسادهم بالخنازير والخناجر يخالف نصوص القرآن الكريم ، والمتواتر من الحديث الشريف ، كما اشار الى ذلك السيد محسن الأمين العالم الديني الشيعي البارز سنة ١٩٣٠ . وكان جزاء محسن الأمين ما لقيه من قبله الشهرستاني من التكفير والازدراء . ولكن على الرغم من الموقف المعارض الذي يقفه بعض الزعماء الدينيين من نقل الموتى ليدفنوا في النجف جدير بنا ان نشير الى ان هذا التقليد الديني قد اكسب النجف مزيداً من النفوذ السياسي في اقطار نائية مثل باكستان والهند وافغانستان ، ناهيك بالتفاعل الحضاري الذي يتمّ في النجف عندما تلتقي جماعات مختلفة جاءت لتدفن موتاها ، جماعات تنتمي الى قوميات تتباين حضارياً ، ويختلف بعضها عن بعض في اللغة والتاريخ والذهنية والنظرة الفلسفية الى الحياة . ان دفن الموتى من الشيعيين في النجف قد تطوّر على مدى الاجيال الى شبه حج الى المدينة المقدّسة ، اكسب الزعامة الدينية الممثّلة بشخص المجتهد الاكبر في النجف نفوذاً سياسياً في حقل العلاقات العامة ، وأضفى على النجف مزيداً من النفوذ الديني والسياسي .

المقاومة الشيعية المسلحة ضد الحملة البريطانية
(١٩١٤ ـ ١٩١٨)

ينقسم العراق الى ستة عشر لواء (١) سبعـة منها تتوطنها الشيعة ، في الدرجة الاولى ، وتضم القبائل وسكان الأماكن المقدسة لدى الشيعة . وهذه الألوية السبعة هي لواء الحلة وكربلاء والديوانية والمنتفق وكوت والعمارة والبصرة . وفي لواءين آخرين ، هما لواء بغداد وديالى ، تشكل الشيعة فيهما اقلية كبيرة العدد . وهناك نقطة أخرى ذات اهمية تتعلق بالتوزيع الجغرافي للشيعة في العراق وهي ان اكثر الألوية كثافة من حيث السكان هي الألوية الواقعة على الفرات لا على دجلة . وستبدو اهمية هذه الحقيقة للقارىء عندما نعالج بالدرس سلسلة الثورات التي قامت بها القبائل الشيعية في الفرات الاوسط ضد الأتراك وضد الاحتلال البريطاني .

نستطيع ، في صورة عامة ، تقسيم القبائل العراقية الى فئتين : قبائل الفرات ، وقبائل دجلة . وفي اثناء العهد العثماني والحكم البريطاني برهنت قبائل الفرات ، اكثر من مرة واحدة ، على انها تستطيع مقاومة السلطة المركزية وعدم الاعتراف بها اذا شاءت ذلك . اما من جهة عرقية فلنا ان نقول إن القبائل الفراتية اقرب الى العرق العربي الصافي مما هي عليه الحال في القبائل الضاربة على ضفتي دجلة . فقد كانت قبائل دجلة تقيم العلاقات التجارية والصلات المدنية مع الحكم القائم في بغداد ، سواء أكان ذلك في العهد العثماني ام في اثناء الحكم البريطاني . كما انها كانت دوماً على اتصال بالقبائل الايرانية الضاربة على حدود العراق الشرقية . وتنزع القبائل الضاربة على دجلة الى توطن المدن والقرى الواقعة على النهر كما انها تبدي استعداداً للاعتراف بالسلطة المركزية على انها السلطة الوحيدة في البلاد . بينما كان من العسير حمل قبائل الفرات على الاعتراف بالسلطة المركزية . ذلك بأن شيوخهم ، وعلماء الدين لديهـم ، والمجتهد الاكبر ، كانوا جميعاً يتمتعون بقسط وفير من السلطة التي كانوا يفرضونها على جموع الشيعة .

---

(١) واللواء ينقسم الى عدد من الاقضية والنواحي فتكون الوحدات الادارية مؤلفة من اللواء ثم القضاء ثم الناحية .

اما القبائل الفراتية الشيعية التي كانت تنزع الى الخضوع لسلطة المجتهد الاكبر اكثر مما كانت تميل الى الاعتراف بالسلطة المدنية في بغداد فهي : قبيلة البو صالح، وخفاجة، وعبودة، وبني زيد، والظوالم، والبوحسن، وبني عارض، وبني حجيم، والخزاعل، والغزالات، وعفج، والجبور، والفتلة، وبني حسن، والمعامرة، والعمارات، والدجاجة، هذا الى جانب ما يتفرع منها من فخوذ. وتنزل هذه القبائل في جميع انحاء المنطقة الواقعة بين الناصرية في لواء المنتفق وبين الحدود الجنوبية للواء الديلم. وتاريخهم سلسلة من الثورات والاضطرابات الموجهة ضد السلطة المركزية في بغداد. وهذا هو السبب في ان كل امرىء لم يكن راضياً عن حكومة بغداد، سواء أكان بغدادياً معارضاً او معارضاً من خارج بغداد، كان يحاول استمالة هذه القبائل الضاربة في الفرات الاوسط والأسفل الى جانبه.

اما اسلوب الحكم الذي كان الاتراك يمارسونه فقد كان اسلوباً يتميز، الى حد بعيد، بالتعصب ضد الشيعة. ولهذا فان الشيعة كانت تتحين الفرص دوماً للخروج على طاعتهم، وللثورة ضد حكمهم. والوقائع (١) التي وقعت بين السلطات العثمانية وقبائل الفرات يمكن تقسيمها قسمين: الوقائع التي سبقت القرن الثاني عشر للهجرة وتلك التي وقعت بعد القرن الثاني عشر. والسبب في تقسيمها على هذا الشكل هو ان القرن الثاني عشر للهجرة كان قرناً ساده السلام والوئام فلم تقع فيه وقائع من اي نوع. واليك ثبتاً بالوقائع التي سبقت القرن الثاني عشر للهجرة :

١ – وقائع المنتفق ٩٨٣ (ه)
٢ – وقائع الفتلة (٢)
٣ – وقائع الغرّاف ١٠٨٣ (ه)
٤ – وقائع الخزاعل وخفاجه ١٠١٦ (ه)
٥ – وقائع البو صالح
٦ – وقائع زبيد والبوسلطان
٧ – وقائع عفج (وبسببها تأسست المدينة المعروفة بالديوانية)

واهمية هذه الوقائع انها لم تقتصر على اصطدامات ومناوشات وقعت بينها وبين الحكومة المركزية في بغداد بل لانها كانت اصطدامات مسلحة وقعت بين هذه القبائل

---

(١) وهي الحروب والثورات التي كانت تقع بين الاتراك والقبائل في العراق.
(٢) اصل القبيلة هذه من شمال الجزيرة العربية. ثم انهم نزحوا الى تل دليهم على الفرات ثم انتقلوا من هناك الى خوازير والفوار والهندية وابي شريش والمشخاب وابي صخير واخيراً الشامية.

والقبائل الموالية والمتحالفة مع حكومة بغداد . ونقطة اخرى على غاية من الاهمية يجدر بنا ان نشير اليها وهي الأثر الذي كان لهذه الوقائع في طرق المواصلات التجارية بين العاصمة بغداد والمناطق العراقية الاخرى . مثال على ذلك نذكر ان علي باشا سنة ١٧٦٣ ، اي بعد سنة من حكمه العراق ذهب بنفسه على رأس حملة تأديبية ليقتص من بني لام الذين كانوا يتعرضون لسلامة المواصلات . ويبدو انه أحرز انتصاراً ضدّهم على مقربة من الحويزة . ولكن علي باشا لم يكن موفقاً في حملته ضد الخزاعل . كانت عاصمة الخزاعل في لملوم على الفرات ، وكانوا قد اوقفوا الملاحة النهرية في الفرات ، ومنعوا جميع المراكب من المرور ما لم تدفع لهم « خوّة » . ولكن عمرو باشا ثأر لسلفه وغزا بلادهم واحرق لملوم العاصمة ، وطرد شيخ القبيلة وامر بقطع ستة رؤوس من اعيان الخزاعل ، وبعث بها الى الآستانة . ولكن هذا القصاص الصارم الذي حلّ بالخزاعل لم يكن ليثني عزمهم عن القيام بثورات لاحقة . ففي سنة ١٧٦٩ استطاعت قبائل المنتفق (١) ان تقطع طرق المواصلات قطعاً تاماً بين البصرة وبغداد عبر الفرات ودجلة . وفي زمن سابق استطاعوا الاستيلاء على عدد من القرى بالقرب من البصرة وارغموا اهل البصرة على ان يلزموا بيوتهم داخل اسوار المدينة لمدة ايام . وقد تكرّرت هذه الحوادث ذاتها سنة ١٧٧٣ (٢) .

اما الوقائع التي جرت بعد القرن الثاني عشر للهجرة فهي :

١ ــ حرب نجيب باشا في كربلاء ١٢٥٨ (ﻫ) (٣)
٢ ــ حرب سليم باشا في النجف الاشرف ، ١٢٦٨ (ﻫ)
٣ ــ حرب مدحت باشا في الدغارة
٤ ــ حرب شبلي باشا في شامية وابو صخير ، ١٢٩٢ (ﻫ)
٥ ــ حرب يوسف باشا في الغرّاف ١٢٩٦ (ﻫ) .

وآخر اصطدام وقع بين قبائل الفرات والسلطة التركية كان في اعقاب معركة الشعيبة التي وقعت بين الثاني عشر من شهر نيسان والخامس عشر منه ، سنة ١٩١٥(٤). كانت تلك المعركة نهاية المعارك ضدّ الاتراك وبداية الصراع ضدّ الاحتلال البريطاني .

---

(١) كانت مضارب هذه القبائل آنذاك المنطقة الواقعة غرب شط العرب من البصرة الى القرنة ، وضفتي الفرات من القرنة الى مشارف الناصرية .

(٢) الفرعون : الحقائق الناصعة ، ص ٢٧ .

(٣) ويشيرون الى هذه الوقائع انها كانت حروباً وذلك لاتساعها وجسامة احداثها . وقد أسهب أ. الوهاب في كتابه الموسوم « كربلاء في التاريخ » في وصف حوادث كربلاء .

(٤) وسنعالج امر هذا الاصطدام باسهاب في سياق البحث .

وكانت ذروة لصراع ضدّ الانكليز الاضطرابات التي قامت سنة ١٩٢٠ .

عند منصرم شهر ايلول من ١٩١٤ ، بدا جلياً انه من المحتمل ان تصبح تركيا دولة محاربة ضدّ الانكليز وحلفائهم . وفي ٢٦ ايلول من عام ١٩١٤ كتب السير ادموند بارو (Barrow) الأمين العام للشؤون العسكرية في مكتب الهند الذي كان قد ارسل ليحتل ميناء البصرة وكان يتوقع دخول تركيا الحرب ضدّ الانكليز— مذكّرة جاءَ في آخر فقرة منها ما يلي (١) : « يبدو لي ان اللحظة المناسبة نفسياً للقيام بعمل حاسم قد حانت الآن . واذا ضربنا ضربة مفاجئة الآن فان اثرها في النفوس سيكون عميقاً كما انها ستفاجيء الناس بشيء من الذهول » . كان السير بارو يظن ان ضربة مفاجئة كمثل الضربة التي اقترحها من شأنها ان تُحبط المؤامرات التركية وفي الوقت نفسه تُظهر قدرة الانكليز على انزال الضربة أنّى ومتى يشاؤون . كما ان من شأنها ان تشجّع العرب على أخذ جانب الانكليز ، وان تُعزّز من معنويات شيوخ المحمّرة والكويت الذين كانوا موالين للانكليز . كما ان اجراءً حربياً مفاجئاً من شأنه المحافظة على القطر المصري وعلى المنشآت النفطية في عبادان . غير ان الاتراك كانوا يقومون بنشاط عظيم في العراق في اثناء ذلك الشهر ، وراحوا يصادرون المخزون من الفحم والنفط العائد الى المحلات والشركات الانكليزية في البصرة وبغداد (٢) . ومن جهة ثانية كان شيوخ الكويت والمحمّرة يقدّمون للانكليز ولاءهم واستعدادهم للتعاون (٣) . وهكذا وصلت يوم ٢٣ تشرين الاول ، ١٩١٤ ، قوة عسكريــة بريطانية في قيادة قائد اللواء دلامين (W.S. Delamain) الى البحرين (٤) . وكانت التعليمات التي صدرت الى دلامين تقضي باحتلال عبادان بغية :

اولاً : حماية مصافي النفط والخزانات وانابيب النفط .

ثانياً : تأمين نزول نجدات عسكرية اذا اقتضى الأمر .

ثالثاً : تطمين العرب في تلك المنطقة الى ان الانكليز سيهبون الى مساعدتهم ومناصرتهم ضدّ الاتراك (٥) .

---

(١) هامش رقم ٢ على ص ٤٣٠ .

(٢) F.O. 371/2139/ (44/48001/44923)

(٣) F.O. 371/2139 (44/46490/44923)

(٤) C.D. 8074 (1914—16) *Despatches Regarding Operations in the Persian Gulf and in Mesopotamia*, 1915, Vol. *X L I X*, P. 3

(٥) Cd. 8610, op cit. P. 13. See also Cab. 17/173, *Papers Relating to the operations in Mesopotamia*, P. 3.

وفي التعليمات ايضاً قائمة بالجهات ، وبالاشخاص الذين أرسل اليهم خبر ايفاد القوة العسكرية البريطانية والمكان والغاية من ايفادها ، وهم : القائد البحري العام المقيم ببغداد ، والقنصل البريطاني في البصرة ، وابن سعود ، وشيوخ المحمرة والكويت والعقيد سمث (smyth) والسير برسي كوكس (Cox) . وبعد ان وصلت القوة العسكرية البريطانية الى البحرين اصدرت الحكومة البريطانية صورة عن البرقية التي اعلنت فيها الحرب يوم الحادي والثلاثين من تشرين الاول ، ١٩١٤ . وكان الروس في تلك الاثناء يترقبون الفرص للهجوم على العراق واحتلاله . ذلك بأنهم كانوا قد اعلنوا الحرب على تركيا في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني ، ١٩١٤. كما ان الحكومة الهندية في سمْلا ، والحكومة البريطانية في لندن تستعجلان الأجراءات لنزول البريطانيين في الفاو (١) .

وفي السادس من شهر تشرين الثاني ، ١٩١٤ ، نزلت كتيبة تابعة لفيلق المشاة السادس عشر ، في قيادة الجنرال دلامين ، في ميناء الفاو . وفي خلال دقائق معدودات رُفع العلم البريطاني محل العلم العثماني . وكان ذلك ايذاناً ببدء العمليات العسكرية في العراق . وفي ٢٣ تشرين الثاني استطاعت الحملة العسكرية البريطانية احتلال مدينة البصرة (٢) . وفي اليوم ذاته جرى عــرض عسكري في البصرة سار فيه الجيش البريطاني شاقاً طريقه عبر شوارع المدينة الى نقطة قرب مصبّ العشار حيث تجمّع القناصل الأجانب ووجهاء المدينة الذين جرى تقديمهم من قبل القنصل البريطاني السيد بولارد الى الجنرال السير أ.أ. بارت (A.A. Barrett) بغية التعرف اليه . ثم تُلي بيان كان قد اصدره السير برسي كوكس ، ورفع العلم البريطاني على احدى البنايات الرئيسية في المحلة ، واطلقت المدافع تحية ، واخذ الجيش التحية العسكرية ، وهتفت الجماهير بحياة جلالة الملك الامبراطور ملك الانكليز . اما القنصل الالماني وخمسة من الالمان آخرون فقد أُركبوا سيارة لتقلهم اسرى الى الهند (٣). وباحتلال ميناء البصرة يكون الانكليز قد أمّنوا مصالحهم عند رأس الخليج الفارسي ، كما انهم يكونون قد ضمنوا لانفسهم ميناءً تجارياً مهماً في تلك المنطقة . وانشأ الانكليز لهم معسكراً على بعد خمسة اميال الى الشمال من البصرة في محلة تُعرف بمحاثل حيث كان الالمان قد جمعوا اجزاءً من السكة الحديدية التي كانوا ينوون انشاءها بين البصرة وبغداد . تلك المواد والعتاد التي جمعها الالمان هنالك كانت مساعدة عظيمة للحملة

---

(١) وهي على مصب شط العرب ، آخر الحدود الجنوبية للعراق .
(٢) Cd. 8074, op. cit., P.8
(٣) المصدر ذاته .

البريطانية في العراق . ثم ارسلت قوات انكليزية الى الشعيبة والى المحمّرة لحراسة مداخل البصرة ولمنع اي هجوم قد يقع عليها من الصحراء الجنوبية ، او من الحويزة .

وعندما ترامى خبر احتلال الانكليز لميناء البصرة الى الحكومة في بغداد أحدث انقلاباً سياسياً سريعاً من جهة الولاء والميول . فقد كان العدو المشترك ، قبل نزول الجيوش البريطانية ، عند الجماعات العراقية الناقمة هو الحكومة المركزية العثمانية في بغداد . ولكن بعد ان نزل الجيش البريطاني في الفاو تغيّر ولاء الجماعات العراقية المعارضة الناقمة وأصبح الى جانب الاتراك (١) . وتناست الشيعة ، آنذاك ، ما كان قد لقيته من ظلم وجور على يد الاتراك ، وأصدر المجتهد الأكبر فتوى بضرورة مساندة الاتراك ومعاضدة السلطة العثمانية . كما انه أعلن الجهاد (٢) . اما منطق الشيعة في هذا التغيّر المفاجيء في ولائهم السياسي فقد بحث فيه فريق مزهر الفرعون في اسهاب في كتابه الذي اشرنا اليه آنفاً (٣) .

ارسل العلماء في البصرة برقية الى المجتهد الاكبر في كل من النجف وكربلاء والكاظمين يطلبون فيها مساندتهم ضد الانكليز ومحاربتهم وذلك باثارة العشائر الشيعية في العراق . وقد نشر السيد محمد الياسين ، احد مشاهير ادباء الشيعة نص احدى البرقيات المماثلة في مقال عن تاريخ الكاظمين نُشر في مجلة الاقلام ، الجزء الثالث ، ١٩٦٤ . وكانت هذه البرقية قد أرسلت الى احد المجتهدين البارزين لدى الشيعة ، السيد مهدي الحيدري ، الذي كان يقيم بالكاظمين . ويعلّق السيد محمد الياسين على البرقيات التي وردت من علماء البصرة بقوله انها قُرئت علناً في ساحات النجف وكربلاء والكاظمين ، وبدأ على الفور تجنيد « كتائب المجاهدين » . ثمّ ان السيد مهدي الحيدري ، وهو مجتهد كان له من العمر ثمانون سنة ، بعث ببرقيات الى علماء النجف وكربلاء عبّر فيها عن رغبته في الاجتماع اليهم للبحث في الوضع الراهن.

---

(١) ان العراقيين الذين اجرى المؤلف معهم مقابلات في هذا الشأن لا يزالون يذكرون حفلات الابتهاج والاستقبالات الودية التي أقامها النصارى واليهود في بغداد تكريماً للجنرال ستانلي مود (maude) رجيوشه . فقد كان اليهود والنصارى من الجماعات البارزة التي كانت تقاوم العثمانيين . راجع احسني في كتابه « العراق في عهد الاحتلال والانتداب» الجزء الاول ، ص [illegible]

(٢) كتب ولسن (A.T .Wilson) عن اعلان الجهاد الذي دعا اليه الأتراك يقول : « ان اثر الحملة كان بارزاً بين القبائل الشيعية الضاربة عند دلتا النهرين في العراق » . راجع :

Loyalties : Mesopotamia, 1914—1917 , P.22.

(٣) الفرعون « المصدر ذاته » ص، ٣٦ .

فاستجاب ثلاثة من المجتهدين البارزين لطلبه ، وكتب الآخرون اليه قائلين انهم في طريقهم الى الفرات الاسفل للالتحاق بالمجتهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الشعيبة . اما المجتهدون الثلاثة الذين ذهبوا الى الكاظمين فهم شيخ الشريعة الاصفهاني ، والسيد مصطفى الكاشاني ، والسيد علي الداماد . وقد رحّبت بهم جماهير الشيعة في الكاظمين وهم يرددون شعار الجهاد : الله اكبر . اما الشيخ مرزا محمد تقي الشيرازي الذي كان يقيم بسامراء فانه ارسل ابنه الشيخ محمد رضا للالتحاق بالوحدات المحاربة التي كان المجتهد الحيدري قد جنّدها (١) . كذلك افتى الشيخ مرزا بوجوب محاربة الكفّار ، يريد بهم الانكليز (٢) . كذلك ارسل آية الله السيد محمد كاظم اليزدي اكبر ابنائه للالتحاق بالوحدات المحاربة ، كما انه اصدر فتوى بوجوب محاربة الانكليز . اما الحبّوبي وجماعة معه من علماء النجف واتباعهم فانهم فور سماعهم بنزول الانكليز استقلوا مراكب وسافروا في الفرات جنوباً ناحية شط العرب . وقد قام السيد الحبوبي بدور رئيسي في حركة المقاومة ضدّ الانكليز . وقد توقف قليلاً في الشامية وغماس والشافية والسيد راضي والسماوة والخضر والناصرية وبني سعد حيث اقاموا له في كل من هذه القرى منبراً ليخطب في الجماهير داعياً اياهم الى الجهاد ومذكّراً اياهم بأيام الغزوات المجيدة . وفي كل مدينة مرّ بها كان ينجح في تجنيد المئات من المجاهدين كما انه كان يجمع السلاح والذخيرة . كانت عملية بطيئة ، وفي كثير من الاحيان كانت تبدو بدائية ، ولكنها كانت حركة تنم عن شعور عميق راسخ بوجوب محاربة الانكليز وبحتميتها . وعندما بلغ المجاهدون الشيعيون من مناطق دجلة القرنة انقسموا الى ثلاث فرق . فقد ظلّ بعضهم في القرنة وعلى رأسهم السيد مهدي الحيدري . وشيخ الشريعة الاصفهاني ، والشيخ مصطفى الكاشاني ، والشيخ علي الداماد . واما الجناح الأيسر في الحويزة فكان على رأسه الشيخ مهدي الخالصي ، وابنه محمد ، والشيخ جعفر راضي ، ومحمد ابن يزدي ، والسيد كمال الحلّي . اما المجاهدون في الشعيبة فكان على رأسهم الشيخ محمد سعيد الحبوبي ، والشيخ باقر حيدر والسيد محسن الحكيم — وهو اليوم المجتهد الاكبر في العراق ومقامه في الكوفة ، وهو

---

(١) بعد ذلك قام الشيخ محمد رضا بدور رئيسي في الاضطرابات التي وقعت في كربلاء في الوقت الذي كان حاكم العراق المدني أ.ت. ولسن . وقد نفي من العراق .

(٢) وكان امراً متوقعاً من الشيخ مرزا الشيرازي ، لان الفتوى التي كان قد اصدرها بوجوب حمل السلاح ومحاربة الانكليز — وذلك قبل ثورة سنة ١٩٢٠ — كان لها وقع عظيم على مجرى الاحداث التي وقعت سنة ١٩٢٠م

المجتهد الذي حظي المؤلف بمقابلته في النجف يوم السابع من آب ، ١٩٦٨ (١).
اما السير برسي كوكس فانه بعث ببرقية الى سملا يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حاول فيها اقناع الحكومة هناك بمنافع احتلال القرنة . وفي رأيه ان المنافع العسكرية والستراتيجية هي ما يلي :

اولاً . في القرنة يلتقي دجلة والفرات مما يتيح لبريطانيا الاستيلاء التام على الدلتا بأسرها .

ثانياً، ان الاستيلاء على القرنة يمكّن البريطانيين من الملاحة الآمنة في شطّ العرب لاغراض عسكرية .

ثالثاً، ان احتلال القرنة يضمن للبريطانيين الاستيلاء على ضفتي شط العرب من القرنة الى الفاو ، وهي منطقة زراعية غنية بالغلال والمحاصيل الزراعية .

وبعد تردُّد دام برهة استسلمت القرنة في التاسع من شهر كانون الاول بعد سلسلة من المناورات والمناوشات الحادّة الخاطفة (٢) . وفقد الاتراك في هذه الاشتباكات الف جندي ، واحرقت السفينة التركية مرمريس . وأسر صبحي بيك القائد التركي ، وعُيِّن الكابتن J.S. Crossthwaite ضابط الارتباط السياسي في القرنة . وبعد احتلال القرنة عزلت الحكومة التركية في الآستانة جاويد باشا الذي كان القائد العام للجيش التركي في العراق ، وعيّنت مكانه سليمان عسكري بيك الذي وصل الى بغداد في العشرين من كانون الاول ، ١٩١٤ . وقد سعى سليمان عسكري بيك جهده لاقناع اهل العراق بأن العراق وطنهم وارضه ارضهم وعليه فان الحرب ضدّ الانكليز هي حربهم (٣) .

بعد سقوط القرنة انقسمت كتائب المجاهدين قسمين (٤) ، سافر القسم الاول منها في الفرات جنوباً في قيادة سليمان عسكري بيك والآخر في دجلة جنوباً في قيادة محمد باشا الداغستاني. وقد عُرف القسم الاول من هذه الكتائب – كما ورد

---

(١) انتقل المجتهد الاكبر الشيخ محسن الحكيم رحمه الله الى بارئه في اثناء تحضير هذه الاطروحة ، وذلك في الاسبوع الاول من شهر حزيران ، ١٩٧٠ .
(٢) Cd. 8074, op. cit., 18.
(٣) الحسني ، العراق في دوري الاحتلال والانتداب ، الجزء الاول ، ص. ١٦ .
(٤) وقد جاء على ذكر هذا الخبر الشيخ محمد حرز الدين في « معارف الرجال » والشيخ محسن الأمين في « اعيان الشيعة » وفي تعليق الشيخ محمد علي اليعقوبي على ديوان ابو المحاسن الكربلائي .

ذلك في مصنفات العراقيين الذين عالجوا هذه الفترة بالدرس (١) – باسم القسم الغربي، والثاني باسم القسم الشرقي. وكانت قاعدة الاعمال الحربية للقسم الغربي الشعيبة التي وقعت فيها معركة ضارية دامت اربعة ايام، من ١٢ – ١٥ نيسان، سنة ١٩١٥، بين الانكليز وبين الاتراك والقوات العربية الحليفة المساندة لهم. اما القسم الشرقي فقد تمركز الجيش فيه في الروطة وصخريجه ليهاجم الانكليز من ناحيتين: القرنة على دجلة، والاهوار في عربستان. وكان لدى الانكليز على هذه الجبهات الثلاث ١٤,٤٠٠ جندي واربعون مدفعاً (٢). وكان خط المواصلات الذي تسيطر عليه القوات الانكليزية بين البصرة والقرنة خطاً حسناً مؤمناً في حين ان الاتراك كانت تنقصهم خطوط مواصلات حسنة. غير انه كانت لديهم قوات عسكرية اقوى مما كان لدى الانكليز، وذلك في الشعيبة والأهواز. فقد كانت القوة التركية في الشعيبة حوالي ٧٦٠٠ مقاتل من الاتراك، و١٨ الف مقاتل من المجاهدين العرب، ومدفعين (هذا بحسب التقارير التركية) (٣). وكانت القبائل في تلك المنطقة راسخة الاعتقاد ان النصر سيكون حتماً حليف الاتراك حتى انهم سبق وأعدوا خطاباً ترحيبياً باسترداد الزبير ليتلى في حضرة القائد التركي سليمان عسكري بيك: «لقد كنت بين الجمهور الذي كان ينتظر، عند مدخل الزبير، وصول الأسرى الاتراك. وكان عددهم اكبر بكثير من عدد الجنود البريطانيين الذين كانوا يحرسونهم، كما انهم لم يكونوا أقل ضنى وبؤساً ورثاثة في البستهم من أسراهم. حتى انه سرت اشاعة ان الاتراك عائدون الى المدينة لدخولها دخول الظافر المنتصر، فتعالت اصوات الهتافات».

خسر الانكليز في الاربعة ايام ١٢٩٧ رجلاً بين قتيل وجريح. اما الاتراك فانهم خسروا في هذه المعركة ضعفي ما خسره الانكليز. اما الاتراك في جبهة الاهواز مع حلفائهم من القبائل فقد واتاهم الحظ. فان قبائل عربستان – وهم قبائل شيعية – ساعدوا الاتراك في قطع انابيب النفط في اهواز (٤) الأمر الذي اقلق الانكليز وسبب لهم متاعب جمة حتى انهم أرغموا على ارسال المزيد من القوات العسكرية قبل ان شعروا بأن منطقة النفط أصبحت منطقة آمنة مستقرة. وجدير بالذكر ان القبائل الشيعية قامت باهم دور من ادوارها في معركة الشعيبة صد جيش الاحتلال البريطاني، كما انه يحسن بنا ان نذكر ان سليمان عسكري بيك قام بهجومه في ١٤ نيسان، ١٩١٥،

(١) كما فعل الفرعون مثلا في المصدر الذي سبق ذكره.
(٢) Cab. 17/173, op. cit., P. 22.
(٣) A.T. Wilson op. cit. P. 22
(٤) Cab. 17/173, op. cit. 18

على الانكليز وكان معظم قواته المهاجمة من محاربي القبائل الشيعية في المنتفق (١) .

بعد ان خسر الاتراك معركة الشعيبة ادرك ولسن ان الجهاد في العراق قد اخفق في تحقيق اغراضه (٢). اما مؤلف هذا الكتاب فلا يشاطره الرأي ، ذلك بأننا نرى ان اخفاق الجهاد في تحقيق غايته مردّه الى ان الاتراك عجزوا عن الاستفادة من قوة الجهاد . فان اعلان الجهاد وفّر للاتراك تجنيد ١٨ الف عربي من الفرات ، وثلاثة آلاف رجل من الاهواز ، هذا الى جانب عشرات الآلاف من الذين سجّلوا اسماءهم في النجف وكربلاء والكاظمين وبغداد كجنود احتياطيين وذلك لقلّة السلاح . وفي نظرنا ان الجهاد نجح في تحقيق غايته بدليل ان كل مجتهد التحق بالمجاهدين او اشترك معهم في ساحة القتال — لا لأنّ الاتراك كانوا يحاربون الانكليز — بل لان علماء المسلمين كافة افتوا بضرورة الجهاد في ذلك الظرف وامروا المجتهدين بأن ينضموا الى صفوف المحاربين وكان بعض رجال القبائل يبيعون ما لديهم من متاع وأثاث - على ما هم عليه من فقر - لكي يبتاعوا بثمنه سلاحاً اطاعة للفتوى التي اصدرها المجتهد الاكبر (٣) . ولم تكن الحرب ، آنذاك ، حرباً دوافعها قضايا قبلية ، بل كانت حرباً دوافعها دينية . كانت حرباً واجبة . فهل لنا بعد هذا ان نقول ان الجهاد لم ينجح في تحقيق غايته ؟ الأمر على نقيض هذا . واذا كان لم ينجح فان الذنب كان ذنب الاتراك الذين لم يكونوا مُهيّئين للحوادث وللتحدّي الذي جابههم شأنهم في ذلك شأن من تستبقه الحوادث فيظل متسكّماً يحاول التقدّم فلا يستطيعه . ودليل آخر على نجاح الدعوة الى الجهاد هو ان جميع المجتهدين كانوا من العرب الذين تحملوا ظلم الحكم التركي وعدوانه وجوره واضطهاده على مدى الاجيال . أضف إلى هذا الدليل على نجاح الجهاد ان المجتهدين لم يتقاضوا أجراً او مرتباً كي يحاربو ، حتى أن الاتراك لم يقدموا لهم الاطعمة ، ولم يكن هناك من نظام للتعويض على الزوجات والعيال في حال الوفاة . وعلى الرغم من هذا كله فانهم استجابوا للدعوة الى الجهاد وحاربوا وماتوا في ساحة المعركة. وقد سألنا السيد صكبان العوادي — وكان أبوه قد سقط شهيداً في معركة الشعيبة — عن المخاطر التي يتعرّض لها المحارب غير المجهّز بالسلاح الحديث وغير المدرّب على الحرب النظامية عندما

---

(١) **Townshend, maj. Gen., Sir Charles V,** *My Compaign in mesopotamia,* **39. See also Cd. 8074.op. cit, 40.**

(٢) **A.T. Wilson, op cit., 72**

(٣) وقد قيض للمؤلف ان يجتمع الى جماعة منهم في النجف وكربلاء والكاظمين وبغداد في آب من سنة ١٩٦٨ .

جابه جيشاً كالجيش الانكليزي بسلاحــه الحديث الفتّاك وإدارتــه المُحكَمَة، فأجاب اننا لم نُحجِم ولم نتردّد على الرغم من الفارق الذي تشير اليه. وأضاف صكبان قائلاً إنّ أباه كان يؤمن ايماناً راسخاً بالله تعالى لا يقلّ رسوخاً عن ايمان الانكليزي بماله واساطيله وقوته المادية. وقال إن أباه كان يؤثر دخول الجنة باستشهاده على ساحة المعركة في حرب مقدّسة، فلا يستسلم للقوم الكفار. وعلى الرغم من ان الجندي البريطاني حسن السلاح واللباس والطعام. وعلى الرغم من أن حكومته تدفع تعويضات الى عائلته في حالة الوفاة. فان السلطات البريطانية في العراق كانت تدفع جائزة مالية قدرها ٥٠٠ روبية لكل عربي يُعيد جندياً انكليزياً فاراً(١) من جيش الاحتلال. والغريب في الأمر أنه لم يحصل مثل هذا الأمر ان تُعلن السلطة العسكرية في أرض العدو أن جنوداً من صفوفها يهربون ويفرّون ما لم يكن عدد الهاربين الفارين قد بلغ حداً خطيراً أُرغمت معه السلطة العسكرية على أن تقدّم جوائز مالية لمن يُعيدهم. في كلام آخر، نحن نقول ان الدعوة الى الجهاد نجحت، وإنما عَجز الأتراك عن الانتفاع بها بسبب سوء ادارتهم وعدم استعدادهم للحرب.

بعد الهزيمة التي مُنيَ بها الاتراك في معركة الشعيبة، وكان السبب الرئيسي لذلك انتحار سليمان عسكري بيك، راحوا يتّهمون العرب بأنهم كانوا السبب في الهزيمة. وفي طريق عودتهم من الشعيبة انقضّت بعض قبائل المنتفق على فلول الجيش التركي المنهزم عند شواطىء بحيرة حمّار واعملت فيهم السيف والنهب. ولم يكن الجيش التركي آنذاك، وعلى رأسه علي بيك، نائب القائد سليمان عسكري، في وضع يمكّنه من مجابهة قبائل المنتفق فلجأوا إلى سرايا الناصرية وتحصّنوا فيها. وكان من جرّاء الهزيمة في الشعيبة أن ثارت النفوس وانتشرت روح التمرّد في جميع انحاء الفرات الاوسط والأسفل. وانهارت الاسطورة بان الجيش التركي قوي لا يُقهَر، فشعرت القبائل الضارية في هذه المنطقة بأن قد آن الأوان للقضاء على كلّ حكم اجنبي واحتلال غريب سواء أكان ذلك من قبل الاتراك ام الانكليز.

وصلت انباء الهياج والتمرّد الى بغداد فبعثت بقوة عسكرية الى النجف على

---

(١) صورة عن الاعلان الرقم ١٤٠، المؤرخ في ١٦ نيسان ١٩١٦.
وتدفع جائزة قدرها ٥٠٠ روبية لكل نوتي عربي، او اي عربي آخر، يعيد جندياً بريطانياً هرباً الى السلطات العسكرية البريطانية. وتعطى جوائز لكل من يدلي بمعلومات تؤدي الى القاء القبض على الفارين. وكل عربي، وكل قبيلة او بعضها، يحاول مساعدة الهاربين على الفرار يعاقبون بأقسى ما يكون من القصاص» الامضاء
Captain A. grey, assistant political officer, Sûk-Ash-Shu yukh
راجع مجموعة هذه الاعلانات التي صدرت في الفترة الواقعة بين ٣١ تشرين الاول ١٩١٤ و ٣١ نيسان ١٩١٩. بغداد، مطبعة الحكومة الرسمية، سنة ١٩١٩.

رأسها عزّت بيك . وذلك في الثامن من رجب سنة ١٣٣٣ هجرية ، لأن مركز الثورة والهياج في منطقة الفرات كان مدينة النجف . اما في النجف ذاتها فان السلطة التركية والجيش التركي ضاعفا من ضغطهما على السكان واتخذا عدداً من الاجراءات المشدّدة من فرض الغرامات المالية ، ونهب الاشياء الثمينة ومصادرة الأطعمة . ولم يسلم من شرّهم أحد حتى أن حرّاس مرقد الإمام عليّ لم يسلموا من ضروب الاضطهاد . وقد نجم عن هذا الضغط والارهاق للأهلين قيام ثورة محلية خطيرة . وعند منصرم شهر أيار اوفدت حكومة بغداد كتيبة مزوّدة بأربعة مدافع الى النجف بغية تهدئة الوضع . ولكن سرت اشاعة تقول ان الاتراك قادمون الى النجف بغية مصادرة الكنوز الثمينة والآثار المقدّسة المحفوظة في خزائن مرقد الامام علي تحت ستار الزعم بانهم قادمون لمساندة الجهاد وعضده . وعندما وصل الجيش التركي الى النجف راح يجدّد الطلبّ في تجنيد الرجال للخدمة العسكرية ، فدخلوا البيوت قصد تفتيشها ، وألقي القبض على الرجال ، وفُتّشت النساء ، ادّعاءً من قبل الاتراك أنّهن رجال يتخفون بزي النساء ، وغيرها من الاعمال التعسفية التي لا يرضى عنها سكان النجف . وقد أثارت هذه الاجراءات غضب الاهلين وسخطهم حتى انهم أخيراً قرّروا تقبل تحدّي الاتراك لهم . فأقاموا المتاريس في الشوارع ، وتحصّن النجفيون في الأماكن المحيطة بالحرم حفاظاً له من نهب كنوزه . وعندما اطلق الجند التركي النار على النجفيين ، عمداً أو خطأً ، وعطبوا احدى مآذن الحرم(١) لم يبقَ للنجفيين من وسيلة سوى مقابلة النار بالنار . واستمرّت الحرب واطلاق النار في شوارع النجف بين الاهلين والجيش التركي مدة ثلاثة أيام استسلم بعدها الجيش التركي وجُرّد من اسلحته وأفرج عنهم ليذهبوا في حال سبيلهم . وكذلك طُرد قائمقام النجف التركي ، وترأس السلطة الادارية الوطنية المستقلة في المدينة المجتهد الاكبر الذي أدار دفة الحكم قرابة سنتين . وكان اندلاع الثورة في النجف – والنجف مقرّ الهيئة العلمية لدى الشيعة – ايذاناً باندلاعها ، ولكن على مستوى أقل ، في كربلاء والكوفة والحلة وطويريج ، وطُردت من جميعها الحاميات التركية العسكرية والادارات الحكومية(٢) .

---

(١) وقد وجه منشور الى جميع انحاء العالم الاسلامي وقع عليه ستة عالم ديني ووافق عليه المجتهد الاكبر يحتوي على احتجاج شديد اللهجة على قصف الحرم . وكان المجتهد الاكبر قد بعث ببرقية احتجاج على هذا العمل الى استانبول . وكان المجتهد الأكبر آنذاك محمد كاظم يزدي .

(٢) عندما بعث السير پرسي كوكس بتقريره عن هذه الحوادث الى حكومة جلالته عنون –

بعد الهزيمة التي لحقت بالاتراك في الشعيبة تغيّرت جميع التشكيلات الدفاعية التركية والاجراءات التي كانت قد اتخذتها الحكومة التركية لمجابهة الاحتلال البريطاني . واصبح هدف الجيش التركي الآن سدّ جميع المنافذ المؤدّية الى العاصمة بغداد . اما القوات التركية في عربستان ، وعلى رأسها الداغستاني باشا . والحاميات التركية في الناصرية فقد اتخذت طريقها نحو العمارة للدفاع عنها . وأنيط امر الدفاع عن الناصرية ضدّ هجمات الانكليز المرتقبة بالسيد عجيمي السعدون ومعه بعض قبائل المنتفق تناصرهم في ذلك قوة تركية رمزية . وكانت الطريق الرئيسية التي تؤدّي الى العاصمة بغداد من القرنة تمرّ بالعمارة ولذا قرّرت القيادة العسكرية البريطانية احتلال هذه البلدة (العمارة) (١) . وصل الجنرال تونزند (Townshend) في صحبة السير برسي كوكس وجيشه الى قلعة صالح يوم الثالث من حزيران ١٩١٥ ، ومن هناك تحرّك ناحية العمارة وعسكر على مسافة ثلاثة اميال منها . وتنزل في هذه المنطقة قبيلة بني لام الذين ، على الرغم من الدور البارز الذي قاموا به في مقاومة الانكليز ، لاقوا ضروباً من المظالم وسوء المعاملة على ايدي الضبّاط الاتراك الذين كانت لهم حامية هناك . ولهذا السبب رحّبوا بمقدم اسطول تونزند عندما وصل مضاربهم (٢) . وبنو لام ، وعلى رأسهم الشيخ غضبان بنيّة ، هم

— التقرير بانه «تقرير عن الثورة التي نشبت في المدن المقدسة». واشار في تقريره هذا الى ان النجفيين هم الذين تمردوا وثاروا . راجع :

Debates H.C. 21. 9. 1915.

ولكن عندما نشبت الاضطرابات في النجف سنة ١٩١٨ لم يشر الى النجفيين على انهم «متمردون» . كانت النجف آنذاك تحت إدارة الاحتلال البريطانية .

(١) كانت السياسة البريطانية في اثناء الحملة العراقية غامضة غير محددة . كانت الغاية من الحملة التي اوفدت من الهند وعلى رأسها دلامين (Delamain) احتلال البصرة لتأمين المصالح البريطانية — وفي الدرجة الاولى نفط عبادان — ولكن النصر اليسير الذي احرزوه في البصرة شجع السلطات البريطانية على الاستمرار في مطاردة الاتراك واحتلال مزيد من الارض . وفي ٨ آب من عام ١٩١٥ كتب تونزند (Townshend) من سملا في الهند رسالة الى الجنرال السير جايمس ولف موري (Murray) الذي كان يشغل منصباً رفيعاً في وزارة الحرب في لندن ، يقول فيها : «... ان المشكلة هي معرفة المكان الذي سنقف عنده في العراق . وقد كنت مع نائب الملك في الشهر الفائت ولكني لم استطع ان اعرف منه شيئاً واضحاً يتعلق بسياستنا في العراق ...» .

See Townshend, op. cit, 84.

(٢) الحسني ، عبد الرزاق ، المصدر ذاته ص. ٢ . راجع ايضاً تونزند في المصدر ذاته ص. ٧٠ .

الذين أفنوا الكتيبة التركية المنسحبة من الناصرية وهي في طريقها الى نجدة كوت العمارة يوم الخامس والعشرين من شهر تموز ، ١٩١٥ ، وذلك تعبيراً عن سخطهم وغضبهم على الجيش التركي الذي ابدى جُبناً معيباً في تسليم العمارة الى الانكليز . في اليوم الثالث من شهر حزيران ، ١٩١٥ ، استدعى متصرّف العمارة الضباط الاتراك وبحث معهم في خطط الدفاع عن المدينة . وهم في الاجتماع هذا كانت سفينة المدفعية البريطانية الملقبة بالشيطان تقصف بمدافعها مقدّمة الجيش التركي الذي كان على رأسه الداغستاني . اما تونزند فلم يكن لديه آنذاك قوة عسكرية تضاهي القوة التركية وكان حليم بيك رجلاً جباناً فانه استسلم عند الساعة الأولى والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم ومعه اربعون ضابطاً . كما ان كتيبة بكاملها بعثت برسالة الى القائد الانكليزي تُعلن فيها استسلامها (١) . والمضحك في مر هذا الاستسلام المشين ان تونزند لم يكن لديه من العساكر سوى ٢٢ جندياً ونوتياً بريطانياً . انما حاول تونزند ان يترك انطباعاً لدى الضباط الاتراك ان ١٥ الف جندي بريطاني سيلحقون به وهم على مقربة منه ، وان اسطولاً من السفن الحربية هو في اعقابه (٢) . وهكذا استسلمت العمارة بسبب جبن حليم بيك ودهاء تونزند . وإلاّ فانه كان لدى الاتراك من القوة العسكرية ما يكفي للتغلب على الانكليز ، لا بل لردّهم الى القرنة .

بعد احتلال العمارة عاد الجنرال نيكسون الى البصرة ليستعجل الاستعدادات الحربية لاحتلال الناصرية . وكانت مهمة تنفيذ الخطة الحربية قد نيطت بالجنرال كورنج (Corringe) الذي سافر نهراً ناحية الناصرية (٣) . اما الاتراك فكانوا قد سدّوا قناة عكيكة لتأخير وصول الاسطول التابع لقيادة كورنج . لكن الانكليز تغلّبوا على هذه العقبة واستطاعوا احتلال سوق الشيوخ في ٦ تموز ، وفي ٢٥ من الشهر ذاته تمّ لهم الاستيلاء على الناصرية ، وفقد الانكليز في تلك العمليات ٥٣٣ رجلاً بين قتيل وجريح وانما كان عدد الذين أصيبوا بالأمراض كبيراً (٤) . وقد ارتأى نور الدين بيك ، القائد التركي ، بعد سقوط الناصرية ، ان يعمل

---

(١) Cab. 17/173, op. cit., 28

(٢) Townshend, op. cit., 71; also Cd. 8610, op. cit., 18

(٣) Cab. 17/173 op. cit., 30.

هنالك طريقان تؤديان الى الناصرية من البصرة ، الطريق البرية التي اتبعها الاتراك وهم في طريقهم الى الشعيبة في شهر نيسان ، ١٩١٥ . والطريق الثانية هي الطريق النهرية من شط العرب الى القرنة فشبايش ، فبحيرة حمر فالعكيكة . والمسافة بين القرنة وبحيرة حمر – وهي قريبة جداً من الناصرية – ثلاثون ميلا على وجه التقريب .

(٤) Cd. 8610, op cit. 18.

على تقوية اجهزة الدفاع والتحصينات للدفاع عن كوت العمارة . فبعث بأوامره الى القوات التركية المرابطة في فليفلة وكميت لتنسحب الى الكوت . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من تموز . ثم انه ترك قوة رمزية في علي غربي لأعاقة الجيش البريطاني اذا ما حاول الخروج من العمارة قاصداً الكوت . وقد لعبت القبائل العراقية في تلك المنطقة دوراً بارزاً في مناوشة الانكليز وإعاقة تقدّمهم . يقول ولسن في كتابه عن بني طروف انهم ابدوا شجاعة فائقة في حربهم ضد قوات تفوقهم عدداً وعدّة ، ولاسيما تجاه القصف المركّز بالمدفعية والرشّاشات ، ولكنهم صمدوا صموداً رائعاً (١) .

وصل تونزند البصرة قادماً من بومباي في ٢١ آب وفي الثالث والعشرين من الشهر ذاته تبلّغ الأوامر التي بعث بها نيكسون اليه بوجوب احتلال الكوت لكي يتمّ احتلال ولاية البصرة بأكملها (٢) . وفي الثلاثين من الشهر ذاته استطاع الانكليز احتلال بلدة علي غربي – الى الجنوب من كوت – ومنها اتجهوا ناحية صنّعيات ، وذلك في ١٦ ايلول ، على مسافة ثمانية اميال من خط الدفاع التركي عن الكوت . وفي ٢٩ ايلول ، ١٩١٥ ، سقطت الكوت في ايدي الجيش البريطاني : وانسحب الجيش التركي الذي كان يدافع عنها الى سلمان باك (٣) (وهي تسيفون القديمة والتي تُعرف بالمدائن) على مسافة ٢٥ ميلاً الى الجنوب من بغداد . وقد فقد الانكليز ١٢٢٩ رجلاً بين قتيل وجريح ، بينما خسر الاتراك ١٧٠٠ وأُسر منهم ١٢٨٩ رجلاً (٤) . وتجدر الأشارة الى ان الاتراك لم يدّخروا وُسعاً في إغراء السير جون نيكسون على احتلال الكوت (٥) . وكان السير بارو (E. Barrow) الأمين

(١) A. T. Wilson, op. cit. 43; also Cab. 17/173, op. cit., 26.

(٢) بعد احتلال العمارة أصيب تونزند بحمى مرفوقة بالتقيؤ والزحار مما اضطره الى العودة الى بومباي للاستشفاء في مستشفى القديس جورج .

(٣) تعتقد الشيعة ان سلمان الفارسي ، احد الصحابة ، دفن في المدائن . وتوفي سلمان الفارسي سنة ٣٥ للهجرة . وله عند الشيعة حرمة واكرام . ويذكر تونزند (ص ١٥٨) ان الجنود المسلمين الذين حاربوا معه كانوا يترددون في خوض المعارك في ضواحي سلمان باك (المدائن) .

(٤) Cd. 8610. op. cit., 18; also Cab. 17/173, op. cit 36.

(٥) كان الاتراك في تلك الفترة يترقبون وصول امدادات عسكرية قوية الى بغداد . وقد وردت اشارة الى هذه الامدادات العسكرية المزمع ارسالها الى بغداد في برقية خاصة تلقاها نائب الملك في الهند يوم ٢١ تشرين الاول ، ١٩١٥ ولكن ، ولسبب مجهول ، لم يرسل مكتب الحرب مضمون هذه الرسالة الى رئيس الاركان في الهند . راجع A.T. Wilson, op. cit, 83

العسكري العام في مكتب الهند ، يرى ان الكوت مركز حسن للتوقف فيه برهة من الزمن . وكان يرى انه اذا تحصن الانكليز في الكوت ولازموا البقاء فيه فانهم يستطيعون بذلك أن يعززوا استيلاءهم على ولاية البصرة ، كما انهم يستطيعون التمركز في مكان حصين عند رأس مثلث يتكون من الكوت ونهر دجلة وشط الحي لا يمكن مهاجمته — الا اذا كانت القوة المهاجمة معززة بالمدفعية الثقيلة — ولا سيما ان الاسطول البريطاني كان يسيطر على النهرين وفي الوقت ذاته يستطيع الانكليز ، من هذا المركز الستراتيجي الحصين ، ان يحموا جميع المنافذ الرئيسية المؤدية الى المنطقة التي يحتلونها من اي هجوم او اعتداء (١) . ولكن ثقة الجنرال نيكسون بتفوقه العسكري على الاتراك دفعته الى ان يبعث ببرقية في الثامن من تشرين الاول يعرب فيها عن ثقته التامة بانه يستطيع احراز النصر على خصمه نور الدين ، القائد التركي ، واحتلال بغداد من دون قوات إضافية (٢) ترسل اليه. ومهما يكن من امر فقد كان الاستيلاء على الكوت نقطة تحول في الحملة البريطانية ضد العراق . فقد اخذ الاتراك ، منذ ذلك الحين ، بانزال ضربات قوية مكبدين الانكليز خسائر فادحة في الرجال والعتاد . وكان نجاح الاتراك في انهم استطاعوا حصر الانكليز وبقاءهم في الكوت ، وهو موضوع سنعالجه في ما بعد .

وكجزء من الاستعدادات العسكرية التي كان يعدها تونزند لمطاردة الجيش التركي (٣) تجميع جنوده بكثافة في بلدة عزيزية ، هذا على الرغم من انه كان غير مقتنع بصواب الاستمرار في المطاردة (٤) . ولكن نظراً الى إصرار نيكسون فقد كان عليه ان يطيع الأوامر الصادرة اليه من رئيسه (٥) . اما القبائل الشيعية في تلك الفترة فكانت تقوم بالهجمات المفاجئة على المعسكرات البريطانية ثم تنكفيء الى مضاربها ، فكانت في هذه الهجمات توقع الرعب في المعسكرات البريطانية

---

(١) Cd. 8610, op. cit, 19

(٢) Cab. 17/173, op. cit, 39.

(٣) كان نيكسون يرى ان متابعة مطاردة الجيش التركي سيكون لها اثر في إضعاف معنويات الاتراك ، كما انه سيكون لها اثر في رفع معنويات السكان العرب في العراق الذين كانوا يقطنون الأراضي التي احتلها الجيش البريطاني . راجع : Townshend, op. cit., 124

(٤) المصدر ذاته .

(٥) Townshend, op. cit., 130

فقتل من الجنود من تقتل وتنهب من العتاد ما تصل اليه ايديها (١) . ثم ان تونزند تابع مسيرته على رأس ١٧ الف جندي وتوقف قليلاً عند لجّ التي لا تبعد كثيراً من طاق كسرى المشهور بالمدائن . وكان الرائد ريلي (Reilly) قد اقترح قطع الخطوط الهاتفية في اماكن مختلفة تقع الى الشمال من بغداد . فوافق تونزند على الاقتراح غير ان القبائل العربية اكتشفت امره واعتقل وسُلِّم الى السلطات التركية وأسر . وفي صباح الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ، ١٩١٥ ، بدأت جيوش تونزند بالهجوم (٢) . وكانت القبائل تقدّم العون للأتراك ، وتشترك معهم في القتال (٣) . ظهر ، في بادىء الأمر ، ان النصر سيحالف الانكليز ، غير ان الاتراك ، بمعونة القبائل اخذوا ، بعد برهة ، بانزال الضربات مكبّدين الانكليز فادح الخسائر . وكانت خسائر الانكليز ٤٤٩٠ رجلاً بين قتيل وجريح (٤) ؛ ومن مجموع الضباط البالغ عددهم ٣١٧ فقد الانكليز ١٣٠ ضابطاً بين قتيل وجريح . ومن مجموع الضباط الهنود البالغ عددهم ٢٣٥ ضابطاً بقي ١١١ ضابطاً قيد الحياة . وكانت خسائر الاتراك ٩٦٠٠ رجل بين قتيل وجريح وأسير منهم ١٢٠٠ جندي . وكانت جميع المعلومات التي تلقاها تونزند تدل على ان الاتراك حصلوا على امدادات جديدة وانهم قد بدأوا بالهجوم المضادّ . وفي ٢٥ تشرين الثاني اصدر تونزند اوامره بالانسحاب الى لجّ ، كما انه كان ينوي الانسحاب نهائياً الى الكوت. ووصلت جيوشه المنسحبة الى لجّ يوم السادس والعشرين ، ولكن الاتراك ، يعاونهم العرب ، تابعوا الضغط على الجيش المنسحب حتى انه أرغم على إخلاء لجّ يوم السابع والعشرين . وفي اليوم التالي وصل الى عزيزية . ولكن القبائل الشيعية الضاربة هناك الى الجنوب من عزيزية ضاعفت من هجماتها على الجيش البريطاني . كانت هذه القبائل من خشوم سعد والدرعية وام الطبول (٥) . واستمرّت القبائل في مهاجمة مؤخرة الجيش البريطاني مما حمّل مؤخرة الجيش على تبادل النار معهم مراراً وتكراراً (٦) . وفي الواقع ان الجيش البريطاني عندما بلغ امّ

---

(١) كما حدث مثلا في الكوتونية ، وفي معسكر فرايزر على مسافة اربعة اميال من عزيزية راجع : Townshend, op. cit, 151

(٢) Cab. 17/173/ op. cit., 45.

(٣) A.T. Wilson, op. cit. 85

(٤) Cd. 8610. op. cit., 29.

(٥) وتقع ام الطبول على مسافة ٨ اميال جنوب عزيزية .

(٦) Townshend, op. cit., 196.

الطول كان قد بَعُد كثيراً عن متناول الجيش التركي ، غير ان المجاهدين من القبائل استمرّوا في إنهاك الكتائب الانكليزية فقتلوا منهم عدداً ونهبوا سلاحاً وذخيرة (١) . واخيراً ، في الثالث من شهر كانون الاول ، وصل تونزند وجيوشه مدينة الكوت حيث وقعوا في الحصار الذي دام قرابة ١٤٧ يوماً . وفي اثناء الانسحاب فقد الانكليز خمسمئة رجل (٢) ، كما انهم فقدوا ايضاً سفينتين نهريتين للمدفعية ، الكومت وفيرفلاي (Comet, Firefly) وقد شعر تونزند بمرارة نفس شديدة لما لحق به من خسارة في الارواح والعتاد ، من جرّاء هجمات الفرسان من القبائل العربية . وفي ساعة يأس شديد كتب يقول : « لقد وجدت العرب ، في اثناء الاعمال العسكرية في العراق ، جماعة لا تعرف الرحمة كما انهم جماعة من الأوغاد الجبناء (٣) » . ويحاول التدليل على قوله هذا بسرد خبر عن عدد من الجنود البريطانيين لا يزيد على الستة وقعوا في ايدي رجال القبائل فجرّدوهم من ملابسهم - كما يزعم - وذبحوهم ذبحاً (٤) .

ان الموضوعية في البحث تفرض علينا ان نذكر ما فعله الانكليز في اثناء الاعمال العسكرية في خوزستان وعندما احتلوا العمارة. فانهم احرقوا قرىً وبيوتاً بمَن فيها من سكان . ويقول ولسن علناً انه لم ينج احد من سكان الخفاجيّة ، واذا كان بيت واحد قد سَلِم من الحريق فان ذلك كان صدفة من الصدف . وفي مناوشة وقعت بين الانكليز وبين قبيلة بني طروف قتل الانكليز ١٥٠ رجلاً من القبيلة واحرقوا بيوتهم وعلالهم ، كما انهم قتلوا الف رأس من الماشية . بعد هذا للمرء ان يسأل تونزند اي رحمة يتوقّعها من القبائل العربية؟ ومن يعرف العرب ومن يعرف عقليتهم يرفض الأخذ بالحكم الذي اصدره تونزند على العرب . اما ولسن — على الرغم من انه عبّر اكثر من مرّة عن ازدرائه واحتقاره لعرب العراق — فقد كان اكثر موضوعيةً عندما كتب يقول : «تعذيب العدو ، حتى وان كان من الكفار ، ليس من شيم العرب (٥) » .

في اواخر سنة ١٩١٥ سرت اشاعات في بريطانيا وفي الهند ان التدابير الصحية المتّخذة في العراق ليست مرضيةً ، ولا سيما تلك التي تتعلّق بالجرحى ومعالجتهم وطرق نقلهم من المعركة وإدخالهم المستوصفات وعند مطلع شهر كانون الثاني

---

(١) A.T. Wilson, op. cit., 89.

(٢) بحسب الأحصاءات التركية فقد الانكليز ٥٢٠ . راجع الحسني ، المصدر ذاته ، ص٢٧

(٣) Townshend, op. cit, 199.

(٤) المصدر ذاته .

(٥) المصدر ذاته .

من سنة ١٩١٦ اتخذت اجراءات لتعيين لجنة تدقق في هذا الأمر. وكانت اللجنة التي تشكّلت لهذا العرض تضم جورج هملتون (Hamilton) وايرل دونومور (Donoghmore) وهبو سيسيل (Cecil) وارشيبولد وليمسون (Williamson) وسيريان بريدج (Bridge) ونفيل لتلتون (Littleton) وجون هودج (Hodge) والآمر ودجود (Wedgewood) (١) . وكانت مهمة اللجنة كما جاء في قرار تعيينها : « التحقيق في أصل العمليات الحربية في العراق ، وبدئها وسيرها بما في ذلك من أمر الجنود الذين تقع عليهم القرعة للخدمة ، والامدادات والذخائر والتجهيزات والاسطول البحري والادوية للمرضى والجرحى ، ومسؤولية موظفي الحكومة الذين نيط بهم أمر توفير الحاجيات للقوات العسكرية التي تعمل في تلك المنطقة»(٢). ان نتائج التحقيقات التي توصلت اليها اللجنة جديرة بالانتباه . فقد وجدت اللجنة ان هدف الحملة العراقية ونطاقها لم يكونا محددين تحديداً كافياً بحيث تكون كل خطوة تُتخذ جزءاً من خطة متكاملة أُحكم وضعها مسبقاً(٣) . كما انها وافقت على ان التقدم المتتابع من البصرة الى القرنة ، ومن القرنة الى العمارة ومن العمارة الى الكوت ، كان أمراً ضرورياً يقتضيه تعزيز المواقع التي احتلها الجيش البريطاني ، اذاً كانت عمليات حربية دفاعية . اما التقدم نحو بغداد في الظروف التي كانت سائدة في شهر تشرين الاول ، ١٩١٥ فقد كان عملاً حربياً هجومياً يقوم على تقديرات سياسية وعسكرية خاطئة ، كما أن الجنود الذين قاموا بهذه العملية الهجومية كانوا قليلي العدد منهكي القوى وغير مُجهّزين عسكرياً بالتجهيزات الكافية . وأسفر الأمر عن استسلام اكثر من فيلق من أفضل الجنود البريطانيين تدريباً ، وكان عدد القتلى والجرحى في اثناء المحاولات الفاشلة التي قام بها الجيش البريطاني لفك الحصار عن الكوت قرابة ٢٣ ألف رجل . وقد وجدت اللجنة ايضاً ان الازدواجية في الاسلوب المتبع في تسيير دفة الحرب في العراق بين سملا في الهند ولندن في بريطانيا كان لها أثر سيّء ونتائج وخيمة العاقبة . ثم ان المسؤولية كانت مُجزّأة بين عدد كبير من الموظفين المسؤولين الذين كان ينبغي استشارتهم والأخذ برأيهم قبل الاقدام على عمل ما . أما السلطات التي كان يجب الاتصال بها لأخذ رأيها في العمليات العسكرية في العراق فهي: مركز القيادة في العراق نفسه ، ثم القائد العام في الهند ، ثم نائب الملك في الهند ، ثم الأمين العام

---

(١) cd. 8610, 1917-18, XVI, op. cit., p. 2

(٢) المصدر السابق ذاته ، ص ٣ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ١٠٠-١٠١ .

للخارجية في الهند مع سكرتيره العسكري الخاص، ثم المجلس الحربي ورئاسة الاركان الامبراطورية، وأخيراً الوزارة(١). وقد ذكرت اللجنة في تقريرها ان تجزؤ السلطة بين هيئات كثيرة يحد من فعاليتها، ومما لا شك فيه انه كان من العسير حصر اللوم في أحد منها او ارجاع الفضل اليها اذا كان هناك من لوم او اطراء. وهكذا كان الازدواج في الاسلوب المتبع سبباً في الهزائم التي وقعت في العراق في اثناء سنة ١٩١٥، وفي مستهل سنة ١٩١٦. ولم يطرأ تحسن ملموس على الاعمال العسكرية حتى تولت لندن ادارة الحملة. غير ان الأمر ودجود (Wedgewood) رفض التوقيع على التقرير لاسباب مبدئية. فقد وجد ودجود ان حكومة الهند طوال سني خدمة اللورد هاردنغ (Hardinge)، نائب الملك في الهند لم تظهر رغبة حقيقية في التعاون، لا بل انها كانت احياناً تعمل فعلاً على عرقلة سير الحرب وإحباطها. كما انه حمل حكومة الهند، في الدرجة الأولى، مسؤولية فشل الاعمال العسكرية في العراق في اثناء سنة ١٩١٥ – ١٩١٦، وذلك لانها كانت تقدم للقوات البريطانية معلومات خاطئة، ولم تلق بثقلها، ولا بمصادر الهند العظيمة، في المعركة لاحراز النصر. وكان يقول ان حكومة الهند كانت تتألف من شخصين لا ثالث لهما، وهما نائب الملك، اللورد هاردنغ (Hardinge) والقائد العام السير بوشان دف (Beau Champ Duff) (٢).

بدأ الحصار على مدينة الكوت يوم الرابع من شهر كانون الاول سنة ١٩١٥ وانتهى الى استسلام تونزند وجنوده يوم ٢٩ نيسان سنة ١٩١٦. وكان الاتراك قد ادركوا جيداً ان الجنود البريطانيين بعد معركة المدائن، وانسحابهم السريع الى الكوت، كانوا فعلاً منهكي القوى. ولكن الاتراك كانوا قد تلقوا، بعد ذلك، امدادات كثيرة من بغداد. وفي بادىء الأمر جهد نور الدين بيك، القائد التركي في تضييق الخناق على الجنود المحاصرين وهم بعد في حالة من التعب والإعياء. وعليه راح يقصف خطوط الدفاع البريطانية في شدة طوال عصر اليوم السابع من الشهر ذاته. كما انه بعث برسالة الى تونزند يطلب فيها اليه ان يتحاشى اراقة الدماء من دون طائل، وطلب اليه ان يستسلم ويلقي السلاح(٣). وكان قد استلم قيادة الجيش السادس التركي المارشال الالماني فون در غولتس (Goltz) الذي كان قد وصل الى بغداد في رفقة عدد من الضباط الالمان. فقرر المارشال الالماني غولتس ضرب

(١) المصدر ذاته، ص ١١٧.
(٢) المصدر ذاته، ص ٢٢١.
(٣) Townshend, op. cit., 221.

الحصار على الكوت ليحمل الانكليز على الاستسلام . غير أن تونزند عمل ما في وسعه لإعداد الجيش لحصار سيطول امده . فأخذ رهائن من وجهاء بلدة الكوت كي يتّعظ سائر السكان فيحسنون التصرّف في ذلك الظرف(١) . وارغم سكان البلدة على حفر الخنادق وعلى الاشغال في الطرق . والبنايات الحسنة التي كان يشغلها السكان صودرت لكي تحوّل الى مستشفيات للجرحى من الجنود البريطانيين . وكان من الطبيعي ان يستاء اهل الكوت من الاجراءات العسكرية التي كان تونزند قد اتخذها ، والتي اعتبرها من ضروريات الحرب . كما ان هذه الاجراءات التعسفيّة جعلت من السكان الآمنين المحايدين اعداء ألدّاء ينشطون سرّاً للعمل ضد البريطانيين. فان بعضهم استطاع ان يتصل سرّاً بالاتراك، كما ان البعض الآخر كان في حوزته بنادق حربية وذخيرة مطمورة في الارض لاستعمالها عند اول سانحة ضد الجيش البريطاني ، وهذا كان من الامور التي زادت في متاعب تونزند وهمومه (٢) .

في تلك الاثناء كانت قضية إمكان التعاون مع روسيا موضع درس وبحث من قبل انكلترا . فقد كانت الحكومة البريطانية ترى أن أحسن مساعدة يمكن للروس ان يقدّموها لتخفيف الضغط على الجيش البريطاني في العراق هي ان تشدّد روسيا من ضغطها على الجزء الشمالي الغربي من ايران وعلى منطقة القفقاز بحيث يستحيل على الاتراك في تلك المناطق ان يسحبوا من جيوشهم المرابطة هناك لارسالها الى جبهة بغداد . وقد رأى الجنرال نيكسون ، القائد العام في البصرة ان أحسن وسيلة لمنع جميع الامدادات العسكرية التركية من التوجه جنوباً ناحية دجلة هي إنشاء أفضل سبل التعاون مع الروس واسرعها، ولا سيما ان الامدادات البريطانية كانت تصل في بطء لان سفر المراكب النهرية شمالاً ضدّ المجرى يجعل المواصلات صعبة وبطيئة. فبعث نيكسون برسالة الى رئيس الاركان البريطاني يُلحّ فيها بالطلب اليه ان يسأل الروس ان يبدأوا بالزحف على بغداد بقوة كبيرة من كرمنشاه ومن خانقين على الحدود العراقية(٣) . غير ان نائب الملك في الهند كان يرى غير هذا الرأي في قضية التعاون مع الروس في العراق . فانه كان يعتقد ان مثل هذا التعاون مع الروس سيعطيهم ، آخرَ الأمر ، الحق في المطالبة بامتيازات في العراق، الأمر الذي سيُلحق الضرر بالمصالح البريطانية في هذه المنطقة . ومن ناحية ثانية فان التدخل الروسي العسكري «سيخلق لنا مأزقاً حرجاً بالنسبة الى الوعود والتعهدات التي كان السير

(١) المصدر ذاته ، ص ٢١٤ .
(٢) المصدر ذاته .
(٣) F.O., 371/2438/ (34/190948/182581

مكماهون قد قطعها للعرب » . وأخيراً كان نائب الملك يرى ان موقف الروس من المزارات والمقامات المقدّسة في بغداد وتوابعها سيخلق للانكليز مشكلة خطيرة مع العالم الاسلامي الشيعي (١) .

في تلك الاثناء كانت السياسة الألمانية تعمل ناشطة في كلٍّ من ايران وافغانستان . وكان القنصل الالماني لعام ، الدكتور ليستمان ، في بوشير قد حاك مؤامرة بالاتفاق مع السفير الالماني في طهران ، لاغتيال جميع البريطانيين في بوشير على يد رجال من القبائل الذين حرّضوا لهذه الغاية . وقام بتنفيذ المؤامرة هذه الهر فاسموس (Wassmuss) وكان قنصلاً عاماً سابقاً في بوشير ، ورجل آخر اسمه اريك بونشتروف (Bohnstroff) يعمل في شركة المانية – شركة فونكهوس وشركاؤه (Wonkhaus) – ورجل الماني ثالث كان يتجوّل في لورستان ، من أعمال ايران ، وهو في طريقه الى شيراز ، هؤلاء الثلاثة عقدوا اجتماعاً مع رؤساء القبائل المحلية هناك ، وبواسطة الرشوة وتقديم البنادق والذخائر طلبوا اليهم ان يقوموا بحرب مقدّسة – جهاد – ضدّ البريطانيين المقيمين بإيران . (٢)

أما الاسباب التي حملت الانكليز على الاحتفاظ ببلدة الكوت فلم يوضحها تونزند ايضاحاً دقيقاً على الرغم من انه ذكر بعض الاسباب السّتراتيجية لهذا الأمر . ولكن السبب الحقيقي – كما اوضحه التاريخ الرسمي للحرب – هو ان الإعياء الشديد كان قد أخذ الجيش البريطاني فلم يستطع التقدم خطوة واحدة ، لا الى الأمام ولا إلى الخلف . ويعترف تونزند نفسه بانه لم يرَ في حياته جنوداً أعياهم الضنى كالجنود البريطانيين الذين عادوا القهقرى الى الكوت ، كما ان الجنود الهنود لم يستطيعوا أن يقوموا بحركة ما من شدة الإعياء والتعب (٣) . وقد لوحظ ان فرقة الخيّالة البريطانية كانت قد غادرت الكوت قبل ان ضرب الاتراك الحصار عليها . ولكنها تعرّضت بعد ان غادرت الكوت لملاحقة قبيلة بني ربيعة وقبيلة عجيل – وعدد رجالهما ٨٠٠ فارس – لها ومناوشتها . كذلك تعرّضت للعدوان من قبل

---

(١) المصدر ذاته .

(٢) F.O. 371/2430 (34/58140/98697)

والمزيد من المعلومات حول نشاط الالمان في ايران وافغنستان راجع ايضاً : ١٠١٢٤٥ ، ١٠١٢٤٦ ، ١٠١٨٠٧ ، ١٠١٤٠٨ ، ١٠٤٣٩٦ ، ١٠٦٣٧١ ، ١٠٦٩٦٥ ، ١٠٧٦٢١ ، ١١٥٩٢٢ ، ١١٨٧٠٩ ، ١٢٠٢٢٢ ، ولمزيد من المعلومات حول نشاط المانيا في حضرموت راجع :

F.O. 371/2777 (44/55024)

(٣) تونزند ، المصدر ذاته ، ص ٢١٢ .

جميع القبائل الشيعية . وكان المعدل اليومي للإصابات التي كانت تقع في المناوشات التي تعرضت لها فرقة الخيالة من قبل الاتراك والقبائل العربية مئة اصابة وأحياناً كانت تصل الى المئتين(١) وفي التاسع عشر من شهر كانون الاول قام بعض الجنود البريطانيين بغارة ليلية وأسروا احد عشر أسيراً تركياً . وعند استجوابهم ذكروا بان اربعة فيالق تركية تحاصر الكوت وان القيادة التركية تتوقع يوماً بعد آخر وصول الفيلقين الثاني والخمسين والسادس والعشرين. وهذا معناه ان حوالي ٤٠ ألف جندي يحاصرون الكوت . ولم ترُق هذه الاخبار الجنرال تونزند اطلاقاً ، وأرسل برقية الى نيكسون يقول فيها إنه يأمل أن تطلب الحكومة البريطانية الى روسيا ان تهدد بغداد في صورة جدية لتخفيف الضغط عنه(٢) ولكي يبقي على معنويات جنوده كان تونزند يصدر مرة بعد أخرى بلاغاً يُطمئنهم فيه الى ان المدد أصبح قريباً في هذه الاثناء كان سكان الكوت - وغالبيتهم من الشيعة - يتعاونون سراً مع الاتراك لابلاغهم مركز القيادة في المدينة الذي كان الاتراك يحاولون قصفه كل يوم . وفي السابع عشر من شهر كانون الثاني ارسلت قوة بريطانية قوامها ٩ آلاف جندي في قيادة الجنرال أيلمر (Aylmer) الذي حاول يائساً ان يفك الحصار عن المدينة ، ولكنه عجز عن انجاز مهمته بعد ان فقد حوالي ٧ آلاف اصابة بين قتيل وجريح (٣) . وقد لعبت القبائل الشيعية دوراً بارزاً في محاربة المدد البريطاني ، ولا سيما في منطقة الشيخ سعد حيث كانوا هنالك بأعداد كبيرة ويحاربون بنشاط وفعالية(٤) . وحاول البريطانيون مراراً أخرى رفع الحصار عن اخوانهم في الكوت ولكن من دون جدوى . وكان السبب الرئيسي في فشل المحاولات هذه مقاومة القبائل الشيعية .

لم يبق لدى تونزند من بديل سوى ثلاثة كان عليه ان يختار أفضلها واقربها الى التنفيذ. فكان عليه إما ان يخترق الطوق بغارة عامة مفاجئة، و إما ان يقاوم، وإما، اخيراً ان يلجأ الى مفاوضة العدو . لكن تونزند اختار المقاومة ، وفي ٢٦ كانون الثاني أصدر بلاغاً أعلن فيه للجنود سبب قراره الصمود في الكوت (٥) . ومنذ ذلك

---

(١) Townshend, op. cit., 212.

(٢) المصدر ذاته ، ص ٢٣٠ .

(٣) A.T. Wilson, op. cit., 94

(٤) Townshend, op. cit., 242

(٥) ان عدد الأصابات التي وقعت في الفيلق السادس منذ دخوله الكوت في ٣ كانون الثاني ، ١٩١٥ ، حتى ٢٦ كانون الثاني ، ١٩١٦ ، بلغ ٢٢٢٥ ، وهذا العدد لا يشمل عدد الوفيات من الامراض . راجع : Townshend, op. cit., 264.

الحين أصبح عليه ان يجابه ثلاثة اعداء: الأتراك المحيطين بالكوت ، وجواسيسهم من العرب الشيعة في الكوت ، والفارين من جنوده . اما حيال سكان البلدة فقد اتخذ جميع الاحتياطات لاتقاء ضررهم . وابقى المؤن والذخيرة في مخازن وعنابر معزولة محروسة . ولكن تجدر الأشارة هنا الى ان لعرب الشيعة من اهل الكوت الذين لعبوا دوراً بارزاً في الحصار كجواسيس للاتراك كان في استطاعتهم دخول المدينة والخروج منها ليلاً وذلك بعبور النهر سباحة في ظلام الليل تحت غطاء واق من نيران الاتراك عبر النهر . وقد تمكّن ثلاثة رجال من الشيعة من إحاطة خطة سرّية كان قد اعدّها تونزند لعبور النهر . جرى ذلك ليل الرابع والخامس من شهر آذار عندما سبّح الثلاثة – وكانوا من النوتية – عبر النهر وهربوا الى الجانب التركي . وهناك اخبروا الاتراك ان تونزند يُعِد جسوراً طوّافة ومراكب نهرية مُسطّحة تتألف من الواح خشبية مشدود بعضها الى بعض ، وان تونزند يُبقي امرَ هذه الاستعدادات سرّياً . وفي صباح اليوم الخامس من آذار كان تونزند يستطيع رؤية تعزيزات من الجيش التركي تحتشد عند الضفة اليمنى قبالة الكوت حيث كان ينوي العبور . كما ان اهل الكوت راحوا يختزنون الحبوب ويخبّئونها على الرغم من التحذيرات الشديدة التي كان قد وجّهها تونزند والعقوبات الصارمة التي كان سينزلها بالذين توجد في بيوتهم اطعمة مخبّأة في الارض . وكانوا يرفضون قبول العملة الورقية التي كان الجنود يقدّمونها ثمناً للكماليات التي يبتاعونها من الحوانيت كالشاي والتبغ . في كلام آخر كان سكان الكوت يلجأون الى كل وسيلة في وسعهم للتعبير عن عدائهم للانكليز . وكانوا على ثقة من ان الاتراك سيخرجون من المعركة منتصرين ، ومن ان تونزند سيُهزَم آخر الامر . ويذكر تونزند في كتابه اسعار الحاجيات كما عُرضت في مبيع بالمزاد العلني حول امتعة ضابط توفّي فيقول : بلغ سعرُ علبة من السجاير تحتوي على مئة سيجارة مئة روبية (١) ، ومنظارٍ صغير ٢٥٠ روبية . وقرابة نصف كيلو من التبغ الوطني ٤٨ روبية ، وانه هو نفسه (تونزند) دفع ٣٠ روبية ثمن تنكة من الكاز لا يزيد ثمنها في انكلترا على ثلاثة شلنات (٢) . وصادر تونزند من الاهلين مقادير من الاطعمة المخبأة ، منها ٩٠٠ طن من الشعير . ١٥٠ طناً من الحنطة . و١٦٠٠ طن من السمنة (٣) . ولو لم يصادر هذه المقادير من الأطعمة لكانت الكوت استسلمت قبل يوم استسلامها في ٢٩ نيسان

---

(١) سعر الروبية .

(٢) Townshend: op. cit., 331

(٣) المصدر ذاته ، ص ٣٢٤ .

من سنة ١٩١٦ . والمشكلة الثانية التي كان على تونزند ان يجابهها هي قضية الجنود الهنود . فان معظم جنوده الهنود كانوا يرفضون ان يأكلوا لحم الخيول (١) ، فنهارت قواهم الجسدية ، ولم يعد الواحد منهم يستطيع ان يقوم بعمل ما . فارسل تونزند برقية الى الجنرال أيلمر يقترح فيها ان يطلب من المولوي في دلهي ان يفتي بأكل لحم الخيل بسبب الحصار . كما انه طلب اليه في البرقية ذاتها ان يطلب من علماء الدين من السيخ والدغرا والرجبوتي ان يصدروا ايضاً مثل هذه الفتوى الى اتباعهم من الجنود في الجيش البريطاني المحاصر (٢) . وتسلّم تونزند في ١٣ شباط جواباً من الزعماء الدينيين في الهند وفيه ترخيص للجنود الهنود بأكل لحم الخيل في اثناء الحصار فقط . وكان للفتوى باكل لحم الخيول وقع عظيم في نفوس الجنود وبلغ عدد الذين اخذوا في تناول لحم الخيول ٩٢٣٩ جندياً، وامتنع ١٥٠٠ منهم عن أكله. وكان على تونزند ان يجابه مشكلة اخرى تتعلق بجنوده من الهنود، وهي كثرة الفارّين من الجندية . فقد تكاثر عددهم كثيراً ، وفي اثناء الاسبوع الثاني من شهر نيسان كان عدد منهم يفرّ او يحاول الفرار كلّ ليلة .

ولحظ الاتراك ان عدد الفارين من جيش تونزند آخذ في الازدياد . ولكي يزيدوا في متاعبه ومشكلاته فانهم كانوا يرمون برزم تحتوي منشورات الى المدينة المحاصرة ، مكتوبة باللغة الهندية والأوردية ، وفيها تعهد لكل فارّ بانه سيُعطى قطعة من الارض وزوجة (٣) . وكان لهذه الظاهرة – الفرار من الجندية – اثر سيّء في نفوس الجنود الذين التزموا النظام والقانون . ان الجنود الهنود – وكانوا يشكّلون غالبية جيش تونزند – خلقوا ، ولا شك في ذلك ، هموماً وأثاروا مشكلات تركت في نفس قائدهم قلقاً روحياً وحزناً عميقاً خارت معه معنوياته وتماسكه . وفي وقت الحصار تصبح معنوية الجيش وتجالده امراً يفوق السلاح اهمية .

ان حصار الكوت ارغم الحكومة البريطانية على ايجاد أي وسيلة ممكنة من شأنها ان تخفّف الضغط على الجيش المُحاصر ورفع معنوياته . ومن الامور التي جرى

---

(١) في اثناء الحصار نفدت الخضار والحبوب ، فكان على تونزند وجيوشه ان يأكلوا لحوم الخيول والحمير والبغال والقطط . ولكن الهندي ، بحسب تقاليده الدينية ، محرم عليه أكل اللحم . ولذا فان معظم الجنود الهنود اصيبوا بالضعف والأعياء الشديد . وكان المعدل اليومي للذبائح ٢٠ حيواناً . وحتى غاية ١٠ نيسان من سنة ١٩١٦ كان من المقرر ذبح ٤٠٠ رأس من الخيل والبغال .

(٢) Townshend, op. cit., 274

(٣) Townshend, op. cit. , 326

تداولها لانتفاع بالثورة العربية التي كان يتزعمها الشريف حسين ولكن تقادير ضُبّاط الاستخبارات العسكرية كانت قد أفادت ان الثورة التي نشبت في الحجاز لم يكن لها اي وقع في نفوس القبائل العراقية التي كانت في معظمها من الشيعة كما ذكرنا آنفاً. حتى ان القبائل السنية الصحراوية التي كانت على اتصال بالزبير والخميسية تلقّت خبر نشوب الثورة العراقية بفتور وعدم مبالاة. وفي مدينة البصرة ذاتها انقسم الرأي العام فكانت الاقلية تقف الى جانب الثورة العربية، بينما اعتبرت الاكثرية ثورة الحسين ثورة ضدّ العهد. وهو عمل غير جائز (١) لذلك فكر الانكليز في اثارة القبائل العربية في شمال سوريا وحملها على الثورة ضدّ الاتراك. ولتحقيق هذا الغرض جنّد الانكليز بعض الاسماعيليين من اتباع الآغاخان كعملاء استخبارات تابعين لدائرة الاستخبارات البريطانية في دمشق وحلب وحمص وحماة كي يزوّدوا رئاسة الاركان في العراق بمعلومات تكون في عونهم في الحملة العراقية (٢).

وفي التاسع من شهر آذار ١٩١٦، بعثت وزارة الخارجية البريطانية ببرقية الى السفير البريطاني في باريس تطلب فيها اليه ان يتّصل بالآغاخان الذي كان يقيم بفندق رتس Ritz في باريس. وكان نص البرقية ما يلي: «انّنا في حاجة قصوى الى سُبُل مواصلات تزوّدنا بمعلومات عن شمال سوريا. واعتماداً على حسن رغبة الآغاخان في مدّ يد العون الى الحكومة البريطانية بجميع الوسائل المتوافرة لديه، فان الامين العام للخارجية في حكومة الهند يلتمس من سموّه (سموّ الآغاخان) التكرّم بتزويد سفير جلالة الملك في باريس بوسائل من شأنها ان تسهّل نقلَ الرسائل المختومة بيده، والمُرسلة الى مَن يعتمدهم من اعوانه الاذكياء الذين يختارهم من دمشق وحلب وحمص وحماة - اثنين او ثلاثة من كل بلد - او البلاد الواقعة الى القرب، الى مكتب الهند. وكل رسالة ينبغي ان يكون ظاهرها إعطاء توصيات لمستلم الرسالة ان يُعيد الرسول الحامل لها ومعه المعلومات الشفهية او المكتوبة وكأنه رسول من قِبلنا لا من قبل الآغاخان. ان الملازم الاول، السيد عبد الصمد شاه، (وهو رجل من الاسماعيلية) موجود الآن في البصرة يعمل في دائرة الاستخبارات. وفي هذه المناسبة نذكر ان الملازم الاول عبد الصمد شاه يرغب في ان يبعث برسالة شخصية من قبله الى سمو الآغا يقول فيها ما يلي: بصفتي الآن موظفاً في دائرة الاستخبارات، شعبة د، ترامى اليّ ان السلطات العسكرية هنا ترحّب بكل معلومات ومعونات تردها من سوريا وما جاورها. أفليس من مصلحة الحكم الدينية ان تنشطوا في تلك

---

(١) F.O. 371/2774 (44/147603/47233)

(٢) F.O. 371/2777 (44/46209).

الاقطار لخدمة القصية المقدّمة لديه جميعاً ؟ ولن تكون هذه المرّة الاولى في التاريخ ان الاسماعيليين هبوا لنجدة جلالة ملك الانكليز . هذا وان اللورد برتي (Bertie) قد اتصل بالآغاخان الذي ابدى سروره في ان يتشرّف – كما يقول هو نفسه – بتقديم اي خدمة في وسعه لجلالة الملك » (١) .

في اليوم العاشر من شهر آذار ، ١٩١٦ ، تسلّم تونزند رسالة من خليل باشا قائد القوات التركية في العراق وحاكم بغداد ، يطلب فيها اليه الاستسلام واعداً اياه بان الاتراك سيولونه اجلّ احترام واعتبار (٢) . وكان جواب تونزند انه لا يفكرّ اطلاقاً في الاستسلام . ولكن عندما ساءَ الوضع واخذ بالتأزم ، ولاسيما في الاسبوع الثالث من شهر نيسان عندما ارتفع عدد الوفيات بسبب الجوع الى عشرين نفساً في اليوم الواحد وطّد العزم على ان يفاتح خليل باشا بأمر الاستسلام . بدأت المفاوضات في ٢ نيسان ، ١٩١٦ وقد اصرّ خليل باشا في أثنائها على وجوب الاستسلام من دون قيد او شرط . فما كان من تونزند الاّ ان قبل بالأمر الواقع لانّ الأمر أصبح كله في يد الاتراك ولم يكن له حيلة فيه . كان ذلك يوم التاسع والعشرين من شهر نيسان . ولم يأت تونزند في كتابه على ذكر الاقتراح الذي تقدّم به يوم ٢٣ نيسان . – وهو اقتراح وافقت على مضمونه وزارة الحرب (٣) – ومؤدّاه انه على استعداد لدفع فدية في مقابل فكّ الحصار قدرها مليونا ليرة استرلينية . وهكذا استسلم يوم ٢٩ نيسان ١٣,٣٠٩ من الجنود والضباط البريطانيين (٤) الى الاتراك الذين اصدروا اوامرهم بأن يسيروا الى الأسر مشياً على الاقدام مسافة تبلغ الفاً ومئتي ميل عبر صحارٍ وجبال . وقد مات سبعون في المئة من الانكليز واربعون في المئة من الكتائب الهندية . وينبغي القول ان عرض دفع الفدية للأتراك في مقابل فك الحصار الذي تقدّم به الانكليز أفقد الانكليز هيبتهم الدولية وسمعتهم لان خصومهم من الدول استغلوا الحادث في العالم الى اقصى ما تكون عليه الدعاية في التفاخر والتباهي . – هذا على الرغم من ان الحكومة اخفت الخبر كلياً عن الصحافة الانكليزية – وجعلت منه الصحف الاخرى موضوعاً للصور الكاريكاتورية وللمقالات الافتتاحية (٥) .

لم يغتنم الاتراك السانحة التي سنحت لهم بعد استسلام الانكليز لملاحقة الجيش

---

(١) See F.O. 371/2777 (44/48137) for full text of Agha khan's reply.

(٢) نص رسالة خليل باشا ، المصدر ذاته ص ٢٩٤ .

(٣) *Official History*, II, 450-452

(٤) P.W. Ireland, *Iraq, a Study in Political Development*, 66.

(٥) A.T. Wilson, op. cit., 98.

البريطاني المهزوم وتحرير الارض العراقية كما اراد ذلك الجنرال الالماني فون درغولتس. بل كان الأمر على نقيض هذا . ولدينا اشارات في المراجع تشير الى زهو خليل باشا القائد التركي وقائد خلفه (١) بعد ان تمكّن من حصمه تونزند ومن قهر جيشه . وفي اثناء المدة الواقعة بين نيسان وكانون الاول من سنة ١٩١٦ كان الانكليز يعملون في جهد لأعادة تنظيم صفوفهم ، ولتحسين اساليب التموين والتجهيز بقدر ما كانت تسمح لهم الظروف بذلك بغية الاستعداد لأعادة الكرّة الهجوم على بغداد في معركة حاسمة – فانشيء خط حديدي بين البصرة والناصرية ، وآخر بين القرنة والعمارة– ووحّدوا تنظيم العمل ، وزادوا في التدابير الصحية الامر الكثير . وضاعف الانكليز ايضاً قوتهم الجوية وادخلوا المعركة انواعاً من الطيارات الجديدة التي تفضل الانواع التي استخدموها سابقاً (٢) .. واصبح لزاماً عليهم الآن – وبعد الخسارة التي منوا بها في الكوت ، الأمر الذي اضر بسمعتهم الحربية كثيراً – ان يحتلوا بغداد . لان احتلالها يحرم الاتراك من مركز ممتاز للحشد والتركيز ، هذا فضلاً عن ان مثل هذا النصر العسكري يعيد ثقة اهل منطقة الشرق الاوسط بقوة الانكليز ويترك في نفوسهم انطباعاً حسناً ، ولاسيما في ايران وافغانستان ، كما ان من شأنه ان يترك ايضاً انطباعاً مضاداً للانطباع الذي خلّفته هزيمتهم في معركة الدردنيل . ولا يقتصر احتلال بغداد على قضية اعادة نفوذ بريطانيا بعد خسارة الكوت ، وبعد محاولة تونزند دفع فدية وافقت عليها وزارة الحرب وقدرها مليونا ليرة استرليبية ، بل من شأنه ايضاً إحباط أي محاولة يقوم بها الاتراك والعرب في سبيل ائتلاف اسلامي تحت راية الجهاد . وكان النفوذ التركي في ايران من الامور التي كانت تقلق خواطر اعضاء اللجنة في وزارة الحرب البريطانية . وهكذا ، ولهذه الاسباب عيّنت القيادة البريطانية الجنرال س. مود (maude) لتنفيذ هذه المهمة : احتلال بغداد . فبدأ هجومه على الاتراك في إمام محمد يوم التاسع من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ وتمّ له الاستيلاء على هذه البلدة ، إمام محمد ، في اليوم التاسع من شهر شباط وفي الثالث والعشرين منه عبر الجيش البريطاني نهر الغرّاف وعسكر على الضفة اليمنى من دجلة . فانسحب الجيش التركي الى عزيزية يوم ٢٥ شباط مخلّفاً وراءه ثلاثة مراكب نهرية للمدفعية (البصرة وسلمان

---

(١) راجع الحسني في المصدر ذاته ، الجزء الاول ص ٣٠ . كذلك عبد الكريم العلاف في « بغداد القديمة » ص ٢٣٩ .

(٢) Longrig, S.H., op. cit, 88

وترغان)(١)واستمرُوا في الانسحاب حتى اتوا سمان باك يوم الثامن والعشرين—عندها بدا واضحاً لخليل بشا — ولكن بعد خراب البصرة — ان انتصاره على الانكليز في الكوت لم يكن انتصاراً حاسماً ونهائياً بل كان عليه ان يطرد الجيش الانكليزي الذي كان متمركزاً في العمارة والكوت فيحرّر بذلك ولاية البصرة بأكملها (٢). وهكذا قرّر التّخلي عن بغداد وارسل بذلك برقية الى استانبول يقول فيها : «في وجه هذا الضغط الذي يقوم به العدو منذ ثلاثة اشهر بقوة عسكرية تفوق قوتنا عدداً واسلحةً وذخيرة ارى ان الجيش الثامن عشر لا يستطيع الحراك ، هذا فضلاً عن ان معنوياته ، من الضبط الرفيع الرتبة الى الجندي العادي ، في ادنى درك ، الأمر الذي زاد في يقيني انه اذا وقعت غداً معركة بيننا وبين الانكليز فاننا سنفقد بغداد وسيقع الجيش التركي بكامل أسلحته وذخيرته غنيمة سائغة . وعليه بعد تقديري للموقف تقديراً واعياً ارى نفسي مرغماً على الانسحاب الى مسافة لقطع الاشتباك مع العدو لكي اتمكّن من اعادة الثقة الى نفوس جنودنا ، ولكي اعيد تنظيم قوتنا . ولذا أرى لزاما علي ان اتخلّى عن بغداد (٣) » .

وفي الصباح الباكر من ١١ آذار احتلّ الجيش البريطاني محطة السكة الحديدية العربية في بغداد (٤) . وعصر ذلك النهار نزل الجنرال مود نفسه من مركب نهري وذهب الى دار المعوصبة البريطانية في الوزيرية وهي حيّ من احياء بغداد . وكانت بغداد في ذلك اليوم في حالة فوضى واضطراب ، فاستغل الرعاع هذه السانحة فراحوا زرافات ينهبون الاسواق ويروّعون السكان (٥) . ولكن لم يلبث مود طويلاً حتى تمكّن من إعادة هيبة القانون والنظام وأصدر بلاغـاً موجّهاً الى « سكان ولاية بغداد (٦) » يناشدهم فيه الخلود الى السكينة . وينبغي القول هنا ان نصّ هذا البلاغ — على المدى البعيد — لم يكن في مصلحة الانكليز في العراق ، لان مضمونه ألهم الوطنيين العراقيين وبعث في نفوسهم الأمل بفوز قضيتهم ، كما ان البلاغ أصبح وثيقة في ايديهم يطالبون بموجبها بان تُعطى لهم حقوقهم من استقلال تامّ ناجز . وقد كثر الجدل في مجلس

(١) الحسني ، المصدر ذاته ، الجزء الاول ، ص ٣١ .
(٢) المصدر ذاته ، ص
(٣) Lloyd, Seton, *Twin Rivers*, 200.
(٤) I.O., L/ P and S/10, 978 (part I)
(٥) **Bell, G. Rview of the Civil Administration of Mesopotamia, 1917- 1920, 32.**
(٦) لمراجعة نص البلاغ راجع الملحق الرقم ١ في: **I.O. L/P and S/10, 978: (Part III)**

العموم البريطاني حول مضمون البلاغ وعدم ملاءمته للظرف الذي صدر فيـه (١) . وأبدى وزير خارجية حكومة الهند مخاوفه من ان بعض بنود البلاغ قد يؤدّي في المستقبل الى الاتّهام « باننا نقضنا الوعود عندما يحين الوقت لتطبيق ما ورد فيه من وعد بمنح البلاد التحرّر التام والاستقلال الذاتي » . واما وزارة الحرب البريطانية فانها ، على الرغم من موافقتها المبدئية على اعطاء عرب العراق الحكم الذاتي والاستقلال الذي يرغبون فيه في اشراف الانكليز ومساعدتهم ، كانت ترى انه لا ينبغي للحكومة البريطانية ، في تلك الفترة من الحرب ، ان تستخدم لغةً في بلاغاتها من شأنها ان تربطها بوعـود وعهود لا تستطيع تنفيذها . ومن جهة ثانية ادركت الحكومة البريطانية – بالنسبة الى المستقبل وبالنسبة الى سير العمليات الحربية – انّ اتباع سياسة ودّية يرضى عنها العرب في جميع انحاء الشرق الاوسط امرٌ مرغوب فيه جداً ، كما ان اعلان هذه السياسة وتبليغها الرأي العربي العام بأسلوب يستألف الى قلوبهم وخيالاتهم ، امرٌ على جانب من الاهمية القصوى . ومهما يكن من امر ، فان الحكومة البريطانية شكّلت لجنةً تتألف من اللورد كرزن (Curzon) واللورد ميلنر (Milner) والسيد تشيمبرلن (A. chamberlain) واللورد هاردنغ (Hardinge) لتنظر في مضمون البلاغ وموضوع الرسالة التي ستُبعث بهـا الى ضابط الارتباط السياسي التابع للحملـة العراقية (٢) .

بعد ان تمّ الاستيلاء على بغداد على يدي مود وجيشه بوقت قصير اسرع يهود العراق ، ويهود البلدان المجاورة ، الى تقديم التهاني وأخلص الولاء التاج البريطاني . فقد ذكر سامون سلمون ، زعيم الطائفة اليهودية في سورابايا وممثلها ، امام مود ان استيلاءه على بغداد جاء بمثابة خلاص للامة اليهودية بأسرها (٣). وفي هذه المناسبة تجدر بنا الأشارة الى ان الجالية اليهودية في العراق كانت تسعى جهدها لمدّ يد العون للانكليز في حملتهم ضدّ العراق . فقد بعث السيّد إيلي خدّوري – وهو يهودي بغـدادي معروف – في الخامس عشر من شهر حزيران ١٩١٥ ، برسالة من شانغاي الى القنصل البريطاني فيها ، السير افيارد فريزر (Fraser) يقول فيها انه يبدو محتملاً جداً ان تتمكن القوة البريطانية «» من احتلال بغداد قريباً، «وفي هذه المناسبة السعيدة يسرّني

---

(١) Debates, H.C. 21,3.17. See Text in Appendix I

ويشير الكتاب العراقيون الى هذا البلاغ بقولهم « وعد مود » اي ان مود ، في ذلك البلاغ ، وعدهم بانه سيمنحهم الاستقلال الذاتي في الحكم .

(٢) Cab. 23/2 (94/8 and Appendix I+II)

(٣) F.O. 371/3050 (44/156985/47361).

ويشرّفني ان أضع في تصرفكم قصري الجميل الواقع في بقعة مشرفة على النهــر ليكون مقراً لرئاسة الاركان ، او لايّ من موظفيكم كما ترتأون (١) » . وقد قبلــت وزارة الخارجية البريطانية العرض وبعثت برسالة الى فريزر تطلب فيها اليه ان ينقل شكر حكومة جلالته وامتنانها للعرض السخي وان يبلغه ان الانكليز سوف لن ينسون هذا الجميل . وتقدّم السيد خدوري بعرض آخر سخيّ وهو إقامة مستشفى للجيش البريطاني وللجاليات الاجنبية في بغداد على ان تخصص حكومة جلالته قطعة من الأرض فسيحة لائقة بالبنايات التي ستنشأ عليها من دور لسكن الأطباء وبيوت للطلاب وما شابه ذلك (٢) . فوعدت الحكومة البريطانية السيد خدوري بانها ستنظر في أمر العرض الثاني الذي تقدّم به . ان هذا الاهتمام ، وهذا الحرص الذي أبداه السيد خدوري — وهو يهودي بغدادي — على مساعدة الانكليز في العراق ، يمثّل الموقف الذي كانت تقفه الفئات غير المسلمة من احتلال بغداد ، لان هذه الفئات غير المسلمة في العراق كانت ترى في الاحتلال البريطاني تحقيقاً لرغبات واحلام كانوا يحلمون بها منذ اجيال .

---

(١) F.O. 371/2490 (44/97667/144714).

(٢) المصدر ذاته .

دورُ الشيعة في الاستفتاء الشعبي ١٩١٨ - ١٩١٩

انتهت الحرب بين الانكليز والاتراك الى التوقيع على هدنة مدروس (Mudros) في ٣٠ تشرين الاول ، ١٩١٨. وكانت السياسة البريطانية المتعلقة بشؤون الشرق الاوسط قد انيطت بلجنة تابعة لوزارة الخارجية يرئسها اللورد كرزن (١) . وكان السيد ادوين مونتغو (Montagu) الأمين العام لحكومة الهند عضواً في هذه اللجنة آنذاك . ومنذ اللحظة الأولى بَدت بوادر الشقاق واختلاف في وجهات النظر في ما يتعلّق بالسياسة البريطانية المقترحة للشرق الاوسط ، وانشطرت اللجنة الى فئتين متضادتين في الرأي : الفئة البريطانية الغربية والفئة الشرقية أو الفئة الهندية . وينبغي القول ان الفئة البريطانية الغربية كان لها الرأي الأوّل على منافستها من الفئة الشرقية الهندية ، ولكن على الرغم من هذا فان الفئة الشرقية الهندية كانت على صلة اوثق بمجرى الاحداث في العراق وتطورها . ذلك بأن العراق يتوسط بقعة شاسعة من الكرة الارضية ، تلك البقعة الواقعة ضمْن اطار النفوذ الاستعماري البريطاني . فكان من الطبيعي إدخال مصر والعراق في هذا الاطار. قبل التوقيع على الهدنة كان الشعب العراقي في مجمله — باستثناء الطبقة المثقفة النيّرة في بغداد والموصل ، وباستثناء علماء الدين في الأماكن المقدسة — يتقبّل فكرة الاحتلال البريطاني بشيء يسير من الرضى على ان مستقبل التجارة والفلاحة قد يكون مُزدهراً في ظلّ حكومة مركزية قوية في بغداد . وقد عبّر اهل البصرة عن هذا الموقف من الاحتلال البريطاني اذ ان ميناء البصرة أصبح ميناء مزدهراً وشعر الناس بأن في ازدهاره وتوسعه ما يعود عليهم بالربح والنفع . ولكن بعد انتهاء الحرب انتاب الرأي العام تغير في النظر الى امر الاحتلال . وكانت الأسباب التي دعت الى هذا التبدّل والتغير في الأمر تناقض البلاغات والمنشورات الرسمية التي كانت تصدر عن الحلفاء . فانه ، مثلاً ، على الرغم من ان نقاط الرئيس ولسن الاربع عشرة رُفِعت

(١) وكانت مهمة اللجنة «وضع سياسة للمناطق التي من المحتمل ان تظل تحت النفوذ البريطاني» راجع :

Young, H., *Independent Arab*, 297.

الى مجلس الشيوخ الاميركي في ٨ كانون الثاني من سنة ١٩١٨ لابرامها ، فانها لم تُنشر في العراق قبل الحادي عشر من تشرين الاول ، ١٩١٩ . والنقطة الثانية عشرة من نقاط الرئيس الاميركي ولسن تتعلّق بحق الامم في تقرير مصائرها ، ولا سيما تلك الدول التي كانت تحت سيطرة الاتراك . وفي ٨ تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ صدر الاعلان الصادر عن الانكليز والفرنسيين حول نواياهم في ما يتعلّق بالمناطق التي كانت واقعة تحت السيطرة التركية بما في ذلك العراق نفسه . يقول هذا الاعلان الانكليزي الفرنسي المشترك : « ان الهدف النهائي لدى كل من فرنسا وبريطانيا العظمى هو التحرير الكامل الناجز لجميع الشعوب التي خضعت طويلاً للحور التركي واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها ومبادرتها من الممثلين الشرعيين الذين ينتخبهم الشعب» (١) هذا البلاغ أدخل الى مسرح السياسة العراقية عنصراً جديداً وفكرة جديدة عن « الحكومة الوطنية والادارة الوطنية » . فان عرب العراق ، بعد سقوط بغداد في قبضة الانكليز ، كانوا يرون ويعتقدون التغيير الوحيد الذي طرأ على السياسة العراقية هو انهم تخلصوا من نير الاتراك ليقعوا في قبضة مستعمر محتلّ جديد . ولكن هذا البلاغ الجديد وما احتواه من مضمون عملا كثيراً على تغيير وجهة النظر وعلى بعث الأمل في نفوس العراقيين في صورة عامة .

كذلك اعتُبرت الخطبة التي القاها الجنرال مارشال ، القائد العام للقوات البريطانية في العراق ، بعد التوقيع على الهدنة في جمع ضمّ اعيان بغداد تأكيداً رسمياً لما كان قد سبق ان قاله الجنرال مود بعد سقوط بغداد وإعادة لقطع العهود للشعب العراقي بالاستقلال الوطني . وتضمّنت هذه الخطبة ايضاً وعداً باطلاق سراح اسرى الحرب بمن فيهم ١٠٧ منفيين شيعيين من النجف الى الهند ، وبرفع القيود عن التجارة ، وبتخفيف حدّة الحصار والتشدّد في تنقلّ الاشخاص ، كما انه سُمح بأعادة نقل الموتى للدفن في النجف وكربلاء ، وبالسماح للحجّاج بزيارة الأمكنة المقدّسة . وختم الجنرال خطبته هذه قائلاً : « أطلب اليكم ان تدركوا انّ الازعاج الذي يسببه وجود جيش في بلادكم امر لم نقصده ولا نريده وانما ضرورات الحرب املته علينا . وأعدكم باسم جلالة الملك الامبراطور بأني سأسعى في اقصى سرعة لأن أزيل كلّ ما من شأنه ان يحملكم على الشكوى والتململ (٢) » . وقد عمّم نشر هذه الخطبة بترجمتها العربية في جميع ارجاء العراق . وكان لها ، بالأضافة لما كان للبلاغ الفرنسي الانكليزي ، اثر عميق في نفوس العراقيين من آمال وتطلعات . وقد ضمّن البد

(١) Foster, Henry, *The Making of Modern Iraq*, 68

(٢) A.T. Wilson, op. cit. 102

رتشارد كوك (Coke) كتابه المعنون «قلب الشرق الاوسط» فصلاً عن تلك الفترة بالذات ووسم الفصل بقوله انه كان «عام الأمل» وبالفعل فان السنة التالية لهذه الخطبة كانت سنة أمل وتطلّع

وقد اعتبر ولسن (Wilson) ، نائب الحاكم المدني في بغداد ، البلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك بلاغاً يناقض وعد بلفور الذي قطعه لليهود في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧ في انشاء وطن قومي في فلسطين لليهود (١) . وهو يرى انه لم يكن هناك في الوضع السياسي لكل من سوريا والعراق ما يبرّر اصدار مثل هذا البلاغ . يقول ولسن ان التصريح هذا لم يأخذ في الاعتبار اقليات عنصرية مهمة في العراق مثل الاشوريين والاكراد (٢) . وترى الآنسة جرترود بل في مذكّرة عنوانها «تقرير المصير في العراق» ان البلاغ الانكليزي الفرنسي كان «ضرورة يؤسف لها(٣)» واضافت تقول ان البلاغ فسح في المجال لأمكانات اخرى كانت تعتبر، في صورة عامة، اموراً خطيرة تحمل على التخوّف والقلق، ولكنها في الوقت نفسه فسحت في المجال للدسائس السياسية لدى العناصر الأقلّ قلقاً ولكنها اكثر تعصباً وتزمتاً. وتقول الآنسة جرترود بل ان عودة المنفيين الشيعيين ، وعددهم ١٠٧ ، امر يفهم المرء مغزاه ونفعه في تهدئة خواطر العامة . وثارت مخاوف اليهود بسبب البلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك حتى انهم تقدّموا من السلطات البريطانية طالبين التجنس بالجنسية البريطانية في حال انشاء دولة عربية مستقلة في العراق . كذلك الحال لدى الجالية المسيحية فانها ايضاً ابدت تخوّفها من قيام دولة عربية مستقلة في العراق (٤) . يكفي القول انه في غضون اسبوع بعد اعلان البلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك اصبحت فكرة توليه امير عربي على العراق موضع بحث وتداول في كل مكان في العراق . ويستطيع المرء ان يدرك ان بيان مود كان امراً تمليه الضرورات العسكرية لان نتيجة الحرب وما ستسفر عنه كانت لا تزال في طيّ المجهول. ولكن الأمر المستغرب

---

(١) A.T. Wilson, op. cit., 103

(٢) في صيف سنة ١٩٦٨ ذكرت امام زعيم قبيلة شيعي وجهة نظر ولسن حول البلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك فقال لي ان ولسن كان يبدي اهتماماً بالاقليات وحرصاً على مصالحهم اكثر مما كان يبديه نحو الغالبية من السكان حيث كان يفرض ان يتفهم قضاياهم ومصالحهم بصفته نائب الحاكم المدني . وقد اصر الزعيم القبلي الشيعي هذا على ان اغفل ذكر اسمه .

(٣) A.T. Wilson, op. cit., 330

(٤) Bell, op. cit, 127

هو ن البلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك صدر بعد انتصار الحلفاء . وإذا ما حاول امرء تقييم المحتوى الذي تضمنته اتفاقية سايكس بيكو يرى جليـاً التناقضات والازدواجية في السياسة لدى كل من انكلترا وفرنسا . ويستطيع المرء ، في صورة عامة ، ان يقول ان السلطات البريطانية المدنية في العراق بعد الهدنة لم تكن على اتفاق مع وفد الصلح الى باريس في ما يتعلق بالسياسة المتبدة التي يسعى اتباعها في العراق . فقد كان ولسن ، نائب الحاكم المدني ، يجهل التيارات الرسمية في الرأي العام في ما يتعلق بشؤون العراق . كما انه كان في حيرة من امره حيال تحديد السياسة البريطانية في العراق ، لان الهند ومكتب وزارة الخارجية ، وحكومة الهند ، والمكتب العربي في القاهرة جميعها كان لها رأي في القضية (١) . وجميع التناقضات التي وقعت فيها سياسة الحلفاء في الشرق الأوسط ظهرت جلية واضحة المعالم في العراق وعلى حساب مستقبل العراق. فان مبدأ تقرير المصير الذي نادى به الرئيس الاميركي ولسن كانت له مفاهيم مختلفة لدى الشعوب المختلفة . فقد كان مفهومه لدى البعض « اقامة حكومة وطنية منبثقة من الانتخاب الحُرّ الذي يقوم به الشعب » . ولكن في مفهوم ولسن ، نائب الحاكم المدني في العراق ، كان مبدأ تقرير المصير يعني « عملية مستمرة متطورة وليس اختياراً أرعن بين خطط ومشاريع مبهمة غير مدروسة درساً كافياً » (٢) . هذا بينما كان الشعب العراقي يفهم مبدأ تقرير المصير على انه يعني — وبدون اسراف في القول — الاستقلال الناجز التام من دون حماية بريطانية لهذا الاستقلال. ولان هذا المصطلح « تقرير المصير » كان غامضاً مبهماً غير محدّد الإطار ، فان ولسن ، نائب الحاكم المدني في العراق ، في الاشهر القليلة التالية ، اتبع سياسة تتناقض في وضوح جلي مع رغبات حكومة جلالته ، كما انها كانت سياسة تتناقض مع العهود والمواثيق الرسمية التي قُطعت للشعب العراقي بموجب البلاغات والبيانات المتتابعة ، والتي اشرنا اليها آنفاً ، وتتناقض ايضاً مع البلاغ الذي اصدره البرلمان البريطاني في الخامس من شهر كانون الثاني ١٩١٨ (٣) .

وهكذا كانت المهمة ملقاة على عاتق اللجنة المشتركة في رئاسة اللورد كرزن لتضع خطوط السياسة البريطانية في العراق ، مع الأخذ في الاعتبار ان على العراق ، بصفته

---

(١) Wilson, op. cit., 109

(٢) Wilson, op. cit., 108

(٣) جاء في بيان البرلمان « ان الجزيرة العربية وارمينيا والعراق وسوريا وفلسطين في نظرنا ، بلدان جديرة بان يعترف بظروفها الوطنية المستقلة » .
F.O. 371/5071 (E 2945/13/44).

بلداً كان جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، ان يعتمد صلحاً مع تركيا على اسس سليمة ، كما عليه أن يحل جميع المشكلات الناجمة عن اتفاقية سايكس ـ بيكو ، وعن الوعود التي كانت قد قطعت للشريف حسين (المراسلات بين مكماهون والشريف حسين) والضغط الذي كان يمارسه الرئيس الاميركي ولسن لاقرار مبدأ تقرير المصير ، وعن جميع الوعود السابقة باقامة حكومة وطنية كما جاء في بلاغي مود ومارشال والبلاغ الانكليزي الفرنسي المشترك . وهكذا نرى ان مهمة هذه اللجنة كانت عسيرة في وجه هذه المشكلات . وكان الاختياران الأقصيان هما إمّا ضمّ العراق او الجلاء عنه ، وبين هذين الاختيارين الاقصيين عرضت حلول تسوية وفكر جديدة لحل المعضلة . وكان لا بدّ من ان يكون قرار اللجنة بين ان يكون الحكم البريطاني للعراق حكماً مباشراً . وبين الحكم غير المباشر . بينما ظلّت قضية الاستقلال الناجز التام ـ وهو ما كانت تصبو اليه غالبية الشعب العراقي ـ مسألة معلّقة لم تتناولها اللجنة بالبحث. واذا كان البريطانيون سيحكمون العراق حكماً مباشراً فانهم بذلك يؤمّنون طريقاً بديلاً الى الهند ، ويحمون الهند من ان تقع في يد البولشفيك ، كما انهم سيضمنون سلامة مصالحهم التجارية البريطانية وعلى رأسها مصالحهم في نفط عبادان وكركوك . غير ان الحكم المباشر يتعارض مع جميع ما ذكرناه من متناقضات في الوعود والمواثيق والاتفاقات التي قطعت من طرف واحد ، اي من قبل الانكليز ، او بالاتفاق مع حلفائهم . ولكن الحكم غير المباشر المتستر وراء حكم عربي زائف يعرّضهم لمشكلات تتعلّق بالأدارة وبالحكم ومدى سلطة كلّ منهما ومسؤولياتهما . اما الخبراء في شؤون القسم الغربي لشبه الجزيرة العربية الذين كانوا في حكم وظيفتهم ، اعضاء في هذه اللجنة لأبداء رأيهم في ملامح السياسة البريطانية في العراق ، فانهم كانوا يجهلون تمام الجهل ان في العراق غالبية شيعية بين السكان ، وان الاكراد في ولاية الموصل يشكلون جماعة كبيرة وان من المرجّح ان يثيروا مشكلات واضطرابات ، وان ابن سعود قوة يجب أخذها في الاعتبار . مثالاً لما قاله احد هؤلاء الخبراء وكيف كان يرى إدارة الحكم في بلاد العراق : كتب لورنس في لاوبزرفر يوم ٨ آب ، ١٩٢٠ ، « ان إدارة الحكم في العراق ، بالنسبة الى الرجل الفاضل الكريم ، اشبه بدمية في يد طفل » . لقد كانت المنافسة بين الفريقين من مخططي السياسة البريطانية شديدة حادّة ، وكانت الخصومة بينهما عنيفة بحيث تعذّر على اللجنة ان تصل الى قرار في ما يتعلّق بالسياسة التي ينبغي اتباعها في العراق . في تلك الآونة كانوا يشيرون الى لورنس بقولهم انه « وحش ولسن الأسود (١) » .

(١) Longrigg, op. cit., 116

ولكن لنا ان نسأل : ماذا كان الحلفاء ، في وجه عام، ينوون فعلاً عمله، وماذا كانت نوايا بريطانيا في وجه خاص؟ ان مَن يقرأ بتأن رسالتين مهمتَين رُفعتا الى اللجنة الشرقية والى لجنة الشرق الاوسط (١) ، الأولى منهما بعث بها السير برسي كوكس ، وبعث مكتب الهند بالثانية (الأولى منهما مؤرّخة ٢٢ نيسان ، ١٩١٨ ، والثانية مؤرّخة ٣٠ كانون الثاني ، ١٩١٨) يتبيّن له ان الفرنسيين في سوريا ، والبريطانيين في العراق ، انما كانوا ينوون فعلاً جعل القطرين محميتَين . الوحدة تابعة للفرنسيين والثانية للبريطانيين ، كما يتبيّن له ايضاً ان لبلاغ الانكليزي الفرنسي ينبغي الاّ يُحمَّل محمل الجدّ او ان يؤخذ بحرفيّة ما جاء فيه . فان السير برسي كوكس في رسالته المشار اليها آنفاً يتكلّم عن «واجهة عربية» أو ستار او قناع عربي كما انه يتكلّم عن « ضرورة تشجيع اليهود في العراق والحاجة الى تشجيعهم» . ويفضّل حثّ الدكتور حاييم وايزمان ، اذا امكن ذلك ، على ان يزور ، او على ان يبعث بمُمثّل يثق به الى بغداد للتأثير على اليهود في العراق لكي يقفوا الى جانب البريطانيين في سياستهم هناك . واما الدائرة السياسية في مكتب الهند فقد اشارت في رسالتها المشار اليها آنفاً الى «حاكم وطني او حكومة وطنية ولكن في حماية الانكليز في كلّ شاردة وواردة الاّ في الاسم» (٢) . (فان الاسم سيظلّ حكماً وطنياً وانما لسلطة تبقى في يد الانكليز) . وفي ٣٠ من شهر تشرين الثاني تلقّى نائب الحاكم المدني تعليمات بعث بها مكتب الهند وجاء فيها «ينبغي ان يكون مفهوماً لدى كل فرد ان مؤتمر الصلح هو الذي سيقرر نهائياً وَضْع المقاطعات العربية ومصيرها» (٣) . ولكن من ناحية اخرى – وهنا وجه التناقض – تؤكّد التعليمات هذه ان البلاغ الانكليزي الفرنسي (اتفاقية سايكس بيكو) يشكّل جزءاً من سياسة حكومة جلالته في اقامة

---

(١) عرفت هاتان اللجنتان – اللجنة الشرقية ولجنة الشرق الاوسط – اصلا باسم لجنة الادارة في العراق . وكانت وزارة الحرب قد شكلتها في اجتماعها ، الرقم ٩٨ ، المنعقد في ١٦ آذار ، ١٩١٧ . ثم تغير الاسم الى ان اصبح «لجنة الشرق الاوسط» (راجع الوقائع الرقم واحد من الاجتماع التاسع للجنة لادارة في العراق المؤرخ ٢٢ آب ، ١٩١٧) وفي ما بعد أدمجت وزارة الحرب في اجتماعها ، الرقم ٣٦٣ ، المنعقد في ١١ آذار ، ١٩١٨ ، لجنة الشرق الاوسط ، ولجنة روسيا ، ولجنة ايران ، في لجنة واحدة اصبحت تعرف باللجنة الشرقية . اما لجنة روسيا فقد كانت لجنة من لجان وزارة الخارجية ، واما لجنة ايران فقد كانت مشتركة يرئسها الأمين العام لوزارة الخارجية . راجع :
cab. 27/22

(٢) F.O. 371/5131 (E 13975/2719/44) See also, Pricate Papers of Miss G.L .Bell, Box 303/4/3. Faculty of Oriental Studies, Durham.

(٣) A.T. Wilson, op cit. 110

حكومة وطنية في « الأراضي المحرّرة » كما ان حكومة جلالته لا تنوي « فرض أي حكومات على هذه الشعوب لا ترضى عنها ولا تمثّل رغباتها وأمانيها » (١). واخيراً جاء في هذه التعليمات ان ولسن مفوّض اليه ان يُجري استفتاءً عاماً ، وان يبحث الى مكتب الهند بتقرير رسمي يوثق بصحته عن مختلف الآراء والميول لدى الشعب العراقي حول هذه النقاط الثلاث المحدّدة :

اولاً : هل يؤثر الأهلون اقامة دولة عربية واحدة تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل الى الخليج الفارسي تحت وصاية انكليزية ؟

ثانياً : في حال قبول الاهلين بهذا هل يرضون بان يكون على رأس هذه الدولة امير او شريف عربي ؟

ثالثاً : في حال قبول هذا المبدأ فمَن يريدون ان يكون على رأس هذه الدولة ؟

واختتم مكتب الهند تعليماته هذه بملاحظة على جانب من الاهمية (٢) : « انه لامر جليل القيمة عندنا ان يكون في متناولنا تقرير صحيح يكون تعبيراً صادقاً عن الرأي العام للسكان هناك حول هذه النقاط الثلاث ، تقرير نستطيع نشره على الملأ ونقول عنه انه تعبير محايد لشعب العراق » . ومن هنا كانت بداية مسرحية الاستفتاء الهزلية المضحكة كما يشير اليها ادباء العراق عندما يتحدّثون عن ذلك الحادث (٣) .

بعد ان تلقّى ولسن تفويضاً لاجراء الاستفتاء في العراق بعث بنسخة عن البرقية التي كان مكتب الهند قد ارسلها اليه ، الى جميع ضباط الارتباط وارفقها بتعليمات عن كيفية اجراء الاستفتاء . عندما يقرأ المرء التعليمات التي بعث بها ولسن الى ضباط الارتباط السياسيين يقف مذهولاً عندما يدرك ان ولسن كان توّاقاً الى فرض رأيه الخاص مسبقاً حول نتائج الاستفتاء . فانه يقول في تعليماته الى ضُبّاطه مثلاً : « لا تقبَل سوى الاجوبة المرضية والملائمة بالنسبة الينا » واذا اطمأنّ الضبّاط الى توافر مثل هذه الاجوبة عندما يعقدون اجتماعاً ويُلخّصون الاجوبة ، ويدوّنونها ، ثم يوقّع عليها اكبر عدد من الشخصيات . ويتابع كلامه فيقول لضبّاطه انهم اذا استشعروا ان الرأي العام ، « بزعامة الاشخاص الذين تستشيرونهم في الأمر وقيادتهم ، موآت لقضيتنا ومرضٍ في نظرنا ، عندها انتم مفوّض اليكم ان تعقدوا اجتماعاً تدعون اليه جميع الأعيان والمشايخ بغية عرض الاسئلة الثلاثة المشار اليها في رسالتنا . وتخبرونهم بأن اجوبتهم عن هذه الاسئلة ستُرسل اليّ (الى ولسن) وانا بدوري ارفعها الى الحكومة

---

(١) المصدر ذاته .

(٢) F.O. 371/5227 (E 7459/2719/44)

(٣) الفرعون ، المصدر ذاته ، ٦٩ . كذلك الحسني، المصدر ذاته، الجزء الاول، ص ١٠٥

البريطانية. ولكن اذا استشعرتم ان الرأي العام مقسم في صورة جلية، او اذا استشعرتم ان الرأي العام لا يميل الى جانبنا، او انه غير مرضٍ لدينا. فعليكم ان تؤجلوا عقد مثل هذا الاجتماع وتخبروني بالأمر كي ابعث اليكم بتعليماتي. في مثل هذه الحالة اذا جاءت نتيجة الاستفتاء في المناطق المجاورة مرضية فان ذلك من شأنه ان يترك انطباعاً حسناً في تكوين الرأي العام. واذا كان الرأي العام مؤاتياً مرضياً فمن المستحسن ان يدوّن كتابة وان يوقّع على المحضر اكبر عدد ممكن من الاشخاص» (١). ان كلّ من يقرأ في تاريخ العراق السياسي المعاصر لا يستطيع ان يفهم نتيجة الاستفتاء وما اسفر عنه من احكام ما لم يُمعِن النظر في التعليمات التي اصدرها ولسن لضباط الارتباط السياسيين في مختلف ألوية العراق. والمستغرب في تصرّف ولسن هو ان البرقية التي تلقّاها وفيها تفويض اليه خلوٌّ من اي اشارة توحي بان الحكومة البريطانية لم تكن جادّة مخلصة في التعرّف الى الرأي العام العراقي كي تهتدي بموجبه الى انشاء افضل نوع من الحكم في العراق. ومع هذا نجد ولسن نائب الحاكم المدني يسعى تعمداً الى الحصول على «اجوبة مرضية ملائمة» ومعنى قوله «اجوبة مرضية» هو دعوة الى تأييد استمرار الوجود البريطاني في العراق. والأمر الذي يُحيّر الألباب في قضية اجراء الاستفتاء ان الدعوة الى اجرائه جاءت من ولسن نفسه. ففي برقية بعث بها الى مكتب الهند يقول انه على استعداد لاتخاذ التدابير لأجراء الاستفتاء. ويؤكد في البرقية ذاتها انه على يقين من ان نتائج الاستفتاء ستُبرّر ظنّه (٢). ولكن مهما يكن من امر فان وزير خارجية بريطانيا اعترض على الروح التي صيغت فيها التعليمات التي بعث بها ولسن الى ضباط الارتباط في الألوية العراقية في شأن اجراء الاستفتاء. فقد ذكر وزير خارجية بريطانيا في برقية بعث بها الى وزير خارجية حكومة الهند ان عمل ولسن، الذي كان ربما يتصرّف بحسن نية وطويّة، لا يتفق مع الأوامر التي صدرت عن حكومة جلالته اليه، وبصفته موظفاً كان ينبغي عليه ان يصدع لهذه الاوامر وان يقوم بالمهمة كما أنيطت به» (٣).

لم يجر الاستفتاء على ما يرام، ولا سيما في المدن المقدسة لدى الشيعة: النجف وكربلاء والكاظمين. اما ولسن، نائب الحاكم المدني، فأنه لعلمه باهمية النجف من ناحية سياسية، فقد اراد ان يجري الاستفتاء فيها في اشرافه وإدارته شخصياً.

---

(١) C.O., 696, vol I. Memorandum 27190, Civil commissioner to Political Officers, Baghdad, nov. 30 th, 1918.

(٢) A.T. Wilson, op. cit., 108

(٣) F.O. 371/5228 (E 8483/2719/44)

فذهب الى النجف ليعرض على الاشراف والعلماء الأسئلة الثلاثة التي كانت محور الاستفتاء كي يتداولوها ويناقشوها . اما الذين حضروا الاجتماع فقد كانوا فعلاً من اعيان النجف وعلمائها ، وكانوا جميعاً من الشيعة ، باستثناء رجل واحد هو السيد هادي النقيب ، وهم : الشيخ عبد الكريم الجزائري ، ومحمد جواد ، ومحسن شلاش ، والشيخ عبد الرضا ، والشيخ راضي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، والسيد محمد رضا صافي ، والشيخ باقر الشبيبي (الذي كان يعرف آنذاك بشاعر الثورة) والسيد محسن ابو طبيخ ، والسيد نور ياسري ، والسيد علوان ياسري ، والشيخ عجيل الفرعون ، ومحمد العبطان ، والشيخ عبد الواحد سكر ، والسيد هادي زوين ، وشعلان الجون ، ومرزوق العواد ، وسرتيب المزهر ، ومزهر الفرعون (١) . ان وقائع هذا الاجتماع كانت عرضة للتحوير والمغالطة من قبل مؤلفين هما الآنسة جرترود بل (Bell) في مقالها المعنون « مذكرة حول تقرير المصير » وايرلند (Ireland) في كتابه: « العراق : دراسة في التطور السياسي » . فقد ادّعى كلاهما أنّ الذين حضروا الاجتماع الشيعي الذي عقد في النجف وافقوا بالإجماع على استمرار الحماية البريطانية من الموصل الى الخليج الفارسي بدون امير عربي (٢) . غير ان مزهر الفرعون الذي حضر الاجتماع ينكر ان الموافقة على استمرار الحماية البريطانية كانت بالأجماع ، لا بل يؤكّد ان الرجل الوحيد الذي وافق على هذا الأمر كان السنّي الوحيد ، السيد هادي النقيب (٣) . ويذكر الحسني – وهو من المؤرخين العراقيين المرموقين – وقائع ذلك الاجتماع تماماً كما ذكرها الفرعون . وبعد ان تكلّم هادي النقيب وقف كل من عبد الواحد سكر ، ومحمد رضا الشبيبي – الذي اصبح في ما بعد وزير التربية في الحكومة المؤقتة – ليقولا على مسمع من الملأ انهما يبغيان انشاء حكم عربي مستقل لا اكثر ولا اقلّ (٤) . اما نور الياسري ، الذي عُرف عنه انه كان رجلاً حذراً لبقاً في معالجة الامور ، فقد وقف وقال ان هذه الاسئلة الخطيرة المصيرية التي يتوقف عليها مستقبل البلاد بأسرها لا يمكن الأجابة عنها ارتجالاً . وطلب الى نائب الحاكم المدني ان يمهلهم بضعة ايام للنظر فيها . وقد استجاب الحاكم لطلبهم هذا وأمهلهم اياماً ، ولكنه لم يكن يتوقع منهم اجوبة مرضية . ثم ان الذين حضروا الاجتماع من اعيان الشيعة في النجف ذهبوا للاجتماع الى المجتهد الاكبر ، محمد كاظم يزدي ،

---

(١) الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ٧٤ .

(٢) Ireland, P.W. op. cit, 169; Wilson, op. cit, 332

(٣) الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ٧٥ .

(٤) الحسني ، المصدر ذاته ، ص ١١٠ .

ليستمعوا الى مشورته . فطلب اليهم المجتهد الاكبر ان يعيدوا النظر في الأمر مرّة وأخرى ، وان يختاروا ما هو أصلح للمسلمين في العراق . اما الشيخ عبد الواحد سكّر ، الذي اذا ما قيس بالآخرين ممّن حضروا الاجتماع فانه يفوقهم فطنةً وصفاء في التفكير والنظر البعيد ، فانه وقف في احد الاجتماعات التالية التي عقدت للتداول في الأمر وقال : « ايها الاخوة اننا لسنا على استعداد لتقبل الحكم الجمهوري ، كما واننا لسنا فرساً ولا اتراكاً ولا انكليزاً لكي ننتخب فارسياً او تركياً او اميراً انكليزياً . اننا عربٌ ، وينبغي علينا ان نرشّح اميراً عربياً يرئس حكومة عربية مستقلة» (١) . اما اعيان الشيعة فانهم . بعد اجتماعهم الى المجتهد الاكبر ، انتقلوا الى دار السيد نور الياسري ليتابعوا مداولاتهم ولكي ينتهوا الى قرار نهائي . وبينما هم في الاجتماع ، وبعد ان توصّلوا الى قرار نهائي يتمشّى مع رغبة الشيخ عبد الواحد سكر . دهم البوليس الدار وامر بفضّ الاجتماع مهدّداً باستعمال القوة (٢) . وكان لدى اعيان الشيعة المجتمعين من الأتباع ما يشجّعهم على الاصطدام بالبوليس ومناوشته ، غير انهم امتنعوا عن ذلك لعلمهم ان الانكليز سيتذرّعون باسم النظام والقانون فيحولون دون متابعة مشاوراتهم واجتماعاتهم . ولذا فانهم قرّروا الرجوع الى قبائلهم بعهد الاّ يتخذوا قراراً من طرف واحد ، والاّ يكونوا طرفاً واحداً في التعاون مع ضبّاط الارتباط الانكليز المحليين ومع اعوانهم . ويدّعي كلّ من الآنسة بل وايرلند ان اعيان الشيعة وقّعوا عن « مضبطة» في اثناء اجتماعهم الى ولسن يوافقون فيها على استمرار الحماية البريطانية بدون امير عربي . واستطيع الآن ان اقول ، بعد المقابلات التي اجريتها في صيف ١٩٦٨ في النجف مع المجتهد الاكبر ومع بعض اعيان المدينة ، انه لم تكن هناك عريضة وقّع عليها في ذلك الاجتماع (مضبطة كما كانوا يسمّونها) الاّ بعد يومين عندما قدم مدينة النجف السيد جعفر ابو التمّن — وهو محام من الكاظمين — من بغداد ممثّلاً الشيعة في الكاظمين وساعياً ليكون وسيطاً بين فريقي الشيعة في المدينتين ، النجف والكاظمين . فقد كان السيد جعفر ابو التمّن قد ابدى نشاطاً ملحوظاً في الكاظمين وفي بغداد في سعيه لتوحيد وجهتي النظر لدى السنّة والشيعة في العراق ، وللوقوف في وجه من تسوّل له ميولُ نفسه ان يقف الى جانب البريطانيين . فقد عرفته بغداد والكاظمين ومنطقة الشامية كاتباً وقف جهوده على مقاومة البريطانيين . وجميع الامور التي ذكرتها عنه الآنسة جرترود بل في مذكّرتها حول « تقرير المصير » عنه نفاها نفياً مطلقاً كلّ من عرفه وعمل معه . فقد ادّعت

(١) سعيد امين : الثورة العربية الكبرى ، الجزء الثاني ، ص ١٩ .
(٢) الحسني ، المصدر ذاته ، ص ١١١ .

الآنسة بل ان جعفر ابو التمن وَقّع على احدى المضابط في بغداد والتي طالب فيها اصحابها باستمرار الحكم البريطاني ، وانه كان يوماً من الايام عميلاً للشرطة (١) ولو ان السيد جعفر ابو التمن كان عميلاً ، كما اتهم بذلك ، لما كان اعيان الشيعة في النجف ممن كانوا يقاومون البريطانيين رحّبوا به كرجل صادق الوطنية ولما كانت منطقة الشامية استقبلته استقبالاً حسناً . كان يعلم ان الرأي العام في السياسة في منطقة الفرات الاوسط يتأثر جداً بالموقف الذي تقفه النجف . كما انه كان يدرك انه اذا وفّق الى توحيد الجهود السياسية التي يبذلها النجفيون فانه يستطيع ان يجمع في تلك المنطقة قدراً كبيراً من المضابط التي تستنكر الوجود البريطاني وترفض الحماية على العراق . غير ان ضابط الارتباط السياسي في منطقة الشامية ، وكان يعرف ان الرجل موهوب وله قدرة على التنظيم ، وان نجاحه في مهمته مضمون ، امر بتوقيفه على انه رجل غير مرغوب فيه يعمل على إثارة الشغب والخروج على النظام والقانون . ثم أرسل الى بغداد حيث جرى استجوابه وادخاله السجن بضعة أسابيع . ان هذه الأجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطات البريطانية أثارت العلماء في الأماكن المقدّسة واغضبت الفئة المفكّرة المثقفة في بغداد . كما انها اثارت سُخط الضبّاط العراقيين ومستشاري فيصل الذين كانوا يعملون معه في سوريا (٢) . واليك بعض هذه الأجراءات : فضّ المؤتمر الذي عقده الأعيان والعلماء الدينيون في المنطقة بقوة السلاح ، والقاء القبض على عالم شيعي معروف ووضعه في السجن ، والجهود المستمرة التي كان يبذلها ولسن لتلقّي الأجوبة « المرضية الملائمة لهم » فقط ، ونفي سبعة من ابناء بغداد المعروفين لنشاطهم المشبوه (بالنسبة الى الانكليز) في قضية الاستفتاء (٣). واسفر الأمر كلّه عن نشوء حركة عنيفة ضدّ البريطانيين في بغداد وفي الأماكن المقدسة ، في النجف وكربلاء والكاظمين

اما الاستفتاء في مدينة كربلاء فانه اتخذ سبيلاً أعنف واشدّ مما كان عليه في اماكن اخرى . فان المجتهد الشيرازي اصدر هناك فتوى كفّر فيها كلّ من كان يرغب في حكم غير اسلامي في العراق (٤) . وكانت هذه الفتوى قد صدرت عن الشيرازي اثر سؤال وجّهته اليه جماعة من علماء كربلاء . وكان لهذه الفتوى اثر عميق في

---

(١) A.T. Wilson.

(٢) Gertrud Bell, Memo on Self-Determination in mesopotamia, 6.

(٣) Bell's Confidential note, *Syria in october* 1919, referred to in Ireland, op. cit. 194.

(٤) راجع الفرعون ، المصدر ذاته ، ص ٨١ وفيه نص الفتوى .

نفوس المسلمين من اهل العراق ، لا في اوساط الشيعة فحسبُ ، بل انها جاءت مطابقة لعدد من الآيات القرآنية الكريمة التي تنصُ ان يطيع المسلمون اولي الأمر منهم لا ان يطيعوا السلطة الحاكمة اذا كانت من الكفار. ثم ان اعيان كربلاء عقدوا اجتماعاً للتداول في امر وُجوب الأخذ بفتوى الشيرازي . وقد التزموهـــا . ثم انّهم وقّعوا على مضبطة جاء فيها انهم يحبّذون قيام حكم عربي اسلامي برئسه احد ابناء السيد الشريف (شريف مكة اي الحسين) وانشاء مجلس تمثيي وطني يمثل شعب العراق (١). والى جانب التوقيع على هذه المضبطة فان اعيان كربلاء انتخبوا لجنة أوكلوا اليها جمع لكلمة في كربلاء ودعوة الأهالي الى رفض حلول التسوية في قضية العراق. وقد أُلقي القبض على ستة من الاعضاء الناشطين في هذه اللجنة في الخامس من ذي القعدة سنة ١٣٣٧ هجرية ونُفوا الى الهند ، وهم عمر حاجّ علوان ، وطليفح حسّون ، ومحمد ابـــو الحبّ ، والسيد مهدي مولوي ، والسيد محمد الطباطبائي ، وعبد الكريم عواد . فارسل المجتهد الشيرازي الى الحاكـــم المدني رسالةً احتجّ فيها على نفي أولئـــك الاشخاص (٢) . ويقول الحسني ان حكام جميع الألوية في العراق من ضبّاط الارتباط السياسيين كانوا يرفضون استلام اي مضبطة لم تكن في مصلحة البريطانيين وحكمهم في العراق (٣) . وكان من شأن هذا الرفض من قبل الحكام الانكليز ، ان السكان اخذوا يلجأون الى سُبل اخرى لتعبير عن شعورهم ، ولكنها سُبُل اعتبرتها السلطات البريطانية غير شرعية ومُخالفة للقانون والنظام . اما المجتهد الشيرازي ، بعد ان استشار علماء كربلاء واعيانها ، فانه قرّر ان يُرسل الى الشريف رسالة ينبه فيها عن الحالة في العراق ، ويلتمس منه ان يتدخّل في الأمر . وكان قد وقع الخيار على الشيخ محمد رضا الشبيبي ان يكون الرسول الشخصي الذي سيحمل الرسالة الى الشريف (٤) .

ان هذه الرسالة على جانب عظيم من الخطورة لانها كانت اول وثيقة فيها تحديد واضح لما تصبو اليه غالبية الشعب العراقي من امانٍ وطنية وتطلعات الى المستقبل . وقد وضع نصّ الرسالة الشبيبي نفسه في اشراف المجتهد الشيرازي وفي اشراف الشيخ عبد الكريم الجزائري وهو احد علماء الشيعة . وقد وزّعت الرسالة هذه سرّاً عـــلى القبائل المختلفة الضاربة في الفرات الاوسط . وكان حاملوها يخبّئونها في جلدة القرآن

(١) راجع الملحق الرقم ٤ .
(٢) الحسني ، المصدر ذاته ، ص ٧٥ .
(٣) المصدر ذاته ، ص ٧٧ .
(٤) راجع نص الرسالة هذه في الملحق الرقم ٥ . راجع ايضاً الحسني، المصدر ذاته ، ص ٧٧ . كذلك راجع جعفر الخليلي في كتابه « هكذا عرفتهم » ص ١٢٣ .

الكريم ذلك بأن الغرباء الداخلين الى لواء من ألوية العراق كانوا يخضعون على الحدود الى تفتيش دقيق . وكان المُشرف على توزيع الرسالة السيد حميد زاهد، وهو صاحب مكتبة معروفة في النجف ولها فروع في المناطق . وكان يساعده في عملية التوزيع السيد عبد المهدي ابي هاون والسيد علي الشرقي . وبعد ان كانت الرسالة قد توزّعت على قبائل الفرات الاوسط ، وبعد ان كان شيوخها قد وقّعوا عليها أرسلت الى لشطرة بيد حسين الشعربف . والى لواء المنتفق بيد الشيخ ابراهيم الاطيمش ليجري امرارها على شيوخ القبائل والزعماء ليوقّعوا عليها . ومن ثمّ تسليمها الى يد الشبيبي رسول المجتهد الاكبر

سافر الشبيبي سراً الى البصرة . ومن هناك الى الزبير ليلتحق بقافلة ضيدان بن حثلين شيخ قبيلة عجمان . وعندما وصل الى وادي فاطمة التقى علياً وعبد الله ابني الشريف اللذين كانا في انتظار مقدمه . ثم أنهما اصطحباه الى شريف مكة فقدّم اليه رسالة الشيرازي . فارسل شريف مكة الرسالة الى فيصل الذي كان في باريس لحضور مؤتمر الصلح . اما الشبيبي فانه قضى اربعين يوماً في الحجاز ثم سافر من هناك الى سوريا حيث أقام الى ان تشكّلت الحكومة العراقية الموقتة . في تلك الاثناء كان السيد محمد رضا ، ابن المجتهد الشيرازي ، يقوم بدور بارز في العمل الناشط ضدّ البريطانيين في كلّ من كربلاء والنجف . اما الآنسة جرترود بل فانها أسرعت في الاستنتاج ان المجتهد الشيرازي لم يكن ضدّ البريطانيين وانه « الى ذلك الحين كان يقف منا موقفاً ودّياً » . وتتابع كلامها فتقول انما كان ابنه محمد رضا يهيمن عليه (١). والواقع ان محمد رضا انما كان ينفّذ الأوامر والتعليمات التي كان يصدرها اليه ابوه . وعلى الرغم من ان جرترود بل تفضل سواها من الموظفين البريطانيين في معرفتها العراق وفي تفهمها عقلية شعب العراق فانّها كانت تعجز عن إدراك التصرّف السياسي الذي كان يتصرّفه الزعماء الدينيون من الشيعة كالشيرازي مثلاً . ففي احيان كثيرة كانت عواطفها واحاسيسها تطغى على روح الموضوعية عندها ، فأصدرت احكاماً تتعلّق بالشؤون العراقية التي كانت تجري في تلك الآونة لم تكن مبنية على واقع الحال ، ولا سيما في منطقة الفرات الاوسط حيث كان الشعور العدائي شديداً ضدّ البريطانيين. وتنبغي الأشارة الى ان المجتهد الشيرازي كان يعمل في الخفاء ضدّ الانكليز ، وما كان يظهره من اللطف والأيناس نحو ايّ موظف انكليزي قدم لزيارته انما هو نوع من التقيّة التي تمارسها الشيعة اذا اقتضت الحال ذلك . كذلك فعل الشيخ محمد كاظم يزدي ، فانه على الرغم من الودّ والصداقة اللذين كان يبديهما نحو البريطانيين

Wilson, op. cit., 333 (١)

فانه عمل كثيراً في الخفاء على تقويض دعائم السلطة البريطانية . اما الشيرازي فقد كان يُظهر العداء علناً للبريطانيين حتى انه اصدر فتوىً كفّر بموجبها اي مسلم يصوت من اجل حكم غير اسلامي .

كانت روح اعداء نحو البريطانيين في الكاظمين عنيفة . وكانت مساجد البلدة مكاناً حصيناً لاجتماع الناس ، فالمسجد حرَمٌ تنعدم فيه السلطة الزمنية الرسمية . وكانت الفتوى التي اصدرها الشيرازي ، المجتهد الأكبر ، تُهيمن على جو الاجتماعات التي كانت تُعقد في المساجد ، اذ انها كانت فتوى خطيرة حدّدت الأطارَ الاسلامي الذي ينبغي للمسلمين – في حال اتخاذ قرارات خطيرة حاسمة – ان يتخذوها ضمن هذا الأطار . ان اهمية فتوى الشيرازي تكمن في كونها تحديداً لحرية المسلم عند اتخاذ قرارات مصيرية. لذلك فوّض اهلُ الكاظمين الى ستة من علمائهم الأجلاء ان يضعوا عريضةً يطالبون فيها بأقامة حكومة عربية اسلامية دستورية يرئسها احد ابناء لشريف (١) . وكان الشخص الوحيد الذي شذّ عن هذا الأجماع رئيس بلدية الكاظمين الذي كان يمالىء الانكليز ، ويوافق على استمرار وجودهم في العراق ، لانه كان تاجراً يجني ارباحاً طائلة من تعاونه مع الانكليز ، ومن تجارته مع بريطانيين من اصل هندي كانوا قد استقروا في تلك البلدة (٢) . وقد بذل رئيس البلدية في الكاظمين جهوداً جبّارة لوضع عريضة مضادّة تطالب باستمرار الحكم البريطاني ، ولكنه بواسطة سلطته ، وبفضل ماله الوفير ، استطاع ان يجمع حوله عدداً صغيراً من فقراء الحيّ الذي يسكنه فقط .

اما اهل بغداد فقد كانوا على وعي سياسي أعلى مستوى من سائر السكان ، كما انهم كانوا اكثر نشاطاً وحيوية من غيرهم . وكان نائب الحاكم المدني قد اقترح تشكيل لجنة قوامها ٢٥ عضواً سنياً يختارهم القاضي السنّي ، ولجنة اخرى قوامها ايضاً ٢٥ عضواً شيعياً يختارهم القاضي الشيعي ليكونوا جميعاً ممثلين يمثلون سائر السكان في بغداد . واما النصارى واليهود وهما ملّتان تشكلان جالية كبيرة في بغداد – فقد تُرك الأمر لرؤسائهم ليختاروا ممثلين عنهم . ولكن القاضيين الشرعيين السني والشيعي لم يمتثلا الأوامر التي صدرت اليهما ، بل انهما دَعَوَا الى عقد اجتماع عام للمسلمين في بغداد يضم السنيين والشيعة ليختاروا ممثليهم هم انفسهم . وفي ذلك الاجتماع أُلقيت خطب نارية . وكان الممثلون الذين فازوا في الانتخاب ينتمون الى الجماعة التي تكنّ العداء للبريطانيين . وعندما اجتمع أولئك المندوبون الذين

---

(١) راجع البصير ، في المصدر ذاته ، ص ٨٢ . كذلك الحسني في المصدر ذاته ، ص ١٠٧

(٢) Bell's memoranda in Wilson, op, cit. 333

احتيروا في الاجتماع المشار اليه ، من سنيين وشيعيين ، الى نائب الحاكم المدني رفعوا اليه عريضة تتضمن ثلاثة اقتراحات من شأنها ان تضمن الشروط اللازمة لأجراء استفتاء حرّ سليم . وهي الشروط التي توفر لعراقيين الجوّ الحرّ الذي فيه يستطيعون ان يعبّروا عن آرائهم وشعورهم الوطني من دون وجل او خوف من عقاب السلطة. وكانت الاقتراحات الثلاثة التي تقدم بها الوفد المشترك ما يلي :

اولاً : انشاء مجلس تمثيلي وطني يمثل العراق بكامله بغية التداول في مستقبل العلاقات العراقية مع السلطة البريطانية وما ستكون عليه هذه العلاقات .

ثانياً : وجوب ضمان حرية الصحافة .

ثالثاً : إلغاء جميع القيود المفروضة على تنقل الاشخاص داخل العراق ، والسماح للعراقيين بالسفر الى البلدان العربية المجاورة (١) لكي يكونوا على اتصال وثيق بتطور الرأي العربي العام في تلك البلدان .

اما في ما يتعلق بنتائج الاستفتاء الشعبي الذي كان يدور حول الاسئلة الثلاثة (وقد سبقت الأشارة اليها) فقد اصدر المندوبون السنيون والشيعيون بياناً في ٢٢ كانون الثاني ، ١٩١٩ ، طالبوا فيه بأن تكون البلاد التي تمتد من حدود الموصل الشمالية الى الخليج الفارسي دولة عربية واحدة على رأسها ملك مسلم ، احد ابناء الشريف حسين ، مقيّد بمجلس تشريعي تمثيلي مقره بغداد عاصمة البلاد (٢) . ويذكر السيد علي البازركان ، الذي كان مندوباً سنياً حضر الاجتماع في بغداد ، في كتابه « الوقائع الحقيقية » بعض ما جاء في خطاب القاه المستشرق البريطاني مارغوليوث ، وكان حاضراً الاجتماع هذا . ومؤداه ان العراق قد اعتاد الحكم الاجنبي الغريب عنه ، وانه لا يستطيع حكم نفسه بنفسه . ولذا وجب على الشعب العراقي ان يختار الانكليز ليكونوا عليهم اولياء واوصياء (٣) . وتجدر بي الأشارة الى ان احداً من الذين كتبوا عن تاريخ العراق المعاصر لم يشر قط الى هذا الخطاب الخطير الذي القاه المستشرق مارغوليوث في الاجتماع . واذا كان الأمر هذا صراباً فاننا نتساءل: باي صفة يتكلّم الاستاذ مارغوليوث عن مستقبل العراق السياسي؟ اما في ما يتعلّق باليهود والنصارى فانهم امتنعوا بعناد عن التوقيع على العريضة التي وضعها المندوبون المسلمون، لا بل ان

---

(١) البصير ، في المصدر ذاته ، ص ١٦٠ .

(٢) راجع النص العربي في الملحق الرقم ٦ . وراجع ايضاً البصير ، في المصدر ذاته ، ص ٨٦ . وقد كان البصير احد المندوبين الشيعيين . راجع الحسني ، في المصدر ذاته ، ص ٧٣ .

(٣) البازركان « الوقائع الحقيقية » ص ٦٦-٦٧ .

اليهود وضعوا عريضة مستقلة التمسوا فيها الأبقاء على الأدارة البريطانية ، ثم حاراهم في ذلك النصارى (١) .

كانت هناك ثلاث هيئات سياسية تبدي اهتماماً خاصاً بنتائج الاستفتاء ، وهي لوزارة البريطانية في لندن ، والأدارة البريطانية في بغداد ، وشعب العراق . اما الوزارة البريطانية فانها كانت تعتمد على الادارة البريطانية في بغداد لتوفّر لها المعلومات الصحيحة الموثوق بها عن الرأي العراقي العام ، وهي معلومات لم تقدّمها لها الأدارة البريطانية في بغداد . اما الهيئة الثانية ، الأدارة البريطانية في بغداد ، فقد كان همها ان تُعدّ العراق ليقبل بأقامة حكم بريطاني في العراق وأما الهيئة الثالثة ، الشعب العراقيّ ، فقد كان في حيرة من امره إزاء الجهود التي كان يبذلها نائب الحاكم المدني في فرْض وجهة نظره وهي إقامة حكم بريطاني مباشر في البلاد . الأمر الذي كان العراقيون يعتبرونه امراً على غاية من الخطورة اذ من شأنــه ان يُشجّع على نشوء اضطرابات سياسية ، وبالتالي على قيام مصاعب وعقبات كأداء في وجه أي تسوية مقبلة تتعلّق بمستقبل البلاد في وسط تلك الفوضى الضاربة في البلاد . وازاء الشكوك والمخاوف انشأ المسلمون من سنيين وشيعيين قبيل منصرم شهر شباط من العام ١٩١٩ حزباً جديداً سمّوه « حرس الاستقلال » . ومن جملة الجماعة القليلة العدد الـــتي أسّست هذا الحزب نذكر الشيخ محمد باقر الشبيبي ، وهو شاعر نجفيّ معروف ، وعلي افندي الباركان ، وجلال بابان ، وشاكر بيك محمود ، الذي كان صديقاً مقرباً لدى فيصل . وتنصّ المادة الثانية من دستور هذا الحزب ان غاية الحزب القصوى هي نيل الاستقلال التامّ الناجز للعراق (٢) . وتنصّ المادة الثالثة ان الحزب هو الذي سيرشّح احد ابناء الشريف حسين ملكاً على العراق (٣) . وتتناول المادة الرابعة والخامسة والسابعة التدابير والسُبل التي من شأنها ان تُوصل الحزب الى غايته النهائية بما في ذلك التشديد على ضرورة الوحدة الوطنية العراقية بقطع النظر عن اختلاف الاديان والطوائف(٤). والفقرة الاخيرة تتوخى ، كما هو ظاهر ، الفسح في المجال لعضوية من هم غير مسلمين ، ولكن الحزب ظلّ طوال استمراره حزبـــاً اسلامياً في طبيعته . وكان رئيس الحزب الشيخ محمد الصدر وكان عالماً شيعياً مشهوراً .

---

(١) Wilson , op. cit., 335.

(٢) البصير ، المصدر ذاته ، ص ١٣٧-١٣٨ . والسيد البصير ، وهو من جملة من قابلتهم في العراق ، كان عضواً في هذا الحزب .

(٣) المصدر ذاته .

(٤) المصدر ذاته .

وكان الشيخ باقر الشبيبي ، وهو اخو محمد رضا الشبيبي الذي جئنا على ذكره آنفاً ، واسطة الارتباط بين بغداد والنجف . وعمل الحزب ما في وسعه لتوحيد الجهود السياسية وتنسيقها بين منطقة الفرات الاوسط وبغداد بغية ممارسة المزيد من الضغط على الاداره البريطانية في بغداد . وقد ساند الشيرازي ، المجتهد الاكبر ، الحزب وعضده وأبدى ارتياحه للخطوط السياسية التي حدّدها الحزب لاتباعها (١) .

امّا بالنسبة الى اهل العراق، سواءً اكانوا من السنة أم من الشيعة، فان نتائج الاستفتاء كانت لديهم واضحة جدّاً : قيام دولة مستقلة تشمل المنطقة من حدود الموصل الشمالية الى رأس الخليج الفارسي وعلى رأسها ملك من ابناء الشريف حسين مقيّد بمجلس تشريعي تمثيلي وطني . ولكن بالنسبة الى ولسن ، نائب الحاكم المدني فان نتائج الاستفتاء كانت على نقيض ما تخيّله العراقيون . فان غالبية السكان ، في نظر ولسن ، لم تكن ترغب في بديل من الحكم البريطاني(٢). حتى ان فكرة تمليك ملك عربي على العراق كانت غريبة لديه ، وقد صرف النظر عنها لان اقلية كبيرة كانت تطالب بملك عربي يرئس الدولة ذلك بأن ولسن حرّص منذ البدء على تدوين آراء الفئات التي كانت موالية للحكم البريطاني وترغب في استمراره ، كالكلدانيين ، مثلاً ، والكاثوليك واليزيدية واليهود الذين لو جمعت اعدادهم كلها لما شكّلوا ربع عدد الشيعة ، او ربع عدد السنة من سكان العراق . عندها بعث السيد مونتاغو (Montagu) يوم السادس عشر من شهر شباط ، ١٩١٩ ، ببرقية الى نائب الحاكم المدني يقول فيها ان حكومة جلالته تقدر بامتنان (٣) حرصكم وبراعتكم الدقيقة في تنفيذ المهمة التي نيطت بكم (اجراء الاستفتاء). ولم يقتصر تقدير حكومة جلالته على الشكر فحسب . بل ان مونتاغو يمعن اكثر فيقول « انهم يسرّون كثيراً اذا تفضّلت بارسال برقية فيها مخطّط تمهيدي لدستور دولة عربية ، او مجموعة من الدول العربية التي اقترحت انشاءها على اساس رغبات السكان كما افصحت عن ذلك في برقياتك السابقة ، وعلى أساس ان يكون الحكم الفعّال غير المنازع في ايدي البريطانيين » (٤) . عند ذلك تُرك الأمر لولسن الذي لم تكن آراؤه معتدلة ، على الاقلّ في نظر العراقيين ، لكي يضع مخطّطاً للدستور العراقي الذي سيكون اساساً لبناء الدولة – وراح يعمل على وضع مخطّط المقترحات

(١) البصير ، المصدر ذاته .
(٢) Wilson, op. cit., 114
(٣) Wilson, op. cit., 114
(٤) المصدر ذاته .

التي كان قد رفعها الى حكومته مُغفِلاً النقطة الاولى الأساسية ، اي اقامة دولة عربية . فقسّم العراق الى مناطق تضمن « اقامة حكم بريطاني فعّال غير منازَع » في المستقبل . والأمر الذي يُحيِّر الألباب حول فهم السياسة البريطانية في العراق آنذاك هو انها كانت سياسة تهدف الى جمع النقيضَيْن : اقامة نظام من الحكم قائم على رغبات اهل العراق وأمانيهم ، وفي الوقت نفسه تكون هذا النظام منسجماً لا يتعارض مع السيطرة البريطانية الفعّالة في حكم البلاد و دارة شؤونها . ولو انه جرى تحقيق مقترحات ولسن لكان العراق قد وقع تحت السيطرة البريطانية وادارتها ، ولكن هذه السيطرة لم تكن اطلاقاً قائمة على رغبات السكان وتطلعاتهم .

لم يكن في المقترحات التي وضعها ولسن من امر جديد . كان من المتوقع ان يحكم العراق مفوّض سام بريطاني يعاونه اربعة مفوّضين آخرين يعملون في إمرته ويديرون شؤون اربعة الوية : لواء البصرة ولواء بغداد، ولواء الفرات ولواء الموصل . ويعاون مفوّضي الالوية مجلسان : مجلس اللواء ومجلس الناحية . وكلا المجلسين يتألّفان من اعضاء يُعيَّنون تعييناً لا انتخاباً . ثم ان ولسن أوجز آراءه في ما يتعلق بمطالب الشعب من الاشتراك الوطني الفعّال في الحكم قائلاً : «أرى ان هذا المطلبَ الشرعي ، اي الاشتراك الفعّال في الحكم والأدارة ، يمكن تحقيقه لا عبْرَ إنشاء مجلس تشريعي مركزي ، ولا عبْر انشاء مجالس استشارية ، بل بأسناد المراكز الأداريّة العالية والتنفيذية ذات المسؤولية في ملاك الدولة الى مواطنين عراقيين مقيمين ينتمون الى عائلات عريقة النسب » (١) . وقد وافقت حكومة جلالته على مقترحات ولسن وارسلت له في ٩ ايار ، ١٩١٩ (٢) ، موافقتها هذه ، ولكنها اشترطت ان تكون مقترحاته تدبيراً ذا طابع مؤقت لا نهائي (٣) . ومهما يكن من امر فان مقترحاته لن توضع موضع التنفيذ الا بعد التوقيع على الصلح مع تركيا ، وبعد ابرام الصلح في مؤتمر باريس . وهناك ثلاث نقاط ينبغي لنا ان نشدد على اهميتها قبل انهاء الحديث في هذا الفصل عن الاستفتاء :

اولاً : ان التعليمات التي اصدرها ولسن ، والمقابلات الشخصية التي اجراها مع بعض الناس، والتي اجراها ضبّاط الارتباط السياسيون، والحرصَ الشديد الذي أبداه على ان لا يُسجّل في الاستفتاء سوى اصوات الموالين ، جميع هذه التدابير حالت دون وصول « التعبير الحقيقي لمشاعر العراقيين وأمانيهم » الى المراجع العليا .

---

(١) Wilson, op. cit., 118

(٢) المصدر ذاته .

(٣) Wilson, op. cit, 119.

في حكومة جلالته في لندن .

ثانياً : لقد بدا جلياً منذ البدء ان اعيان البلاد من شيوخ القبائل وسكان المدن ، رغبةً منهم في ان يكون سجل تصرفهم السياسي في نظر الحكومة سجلاً نظيفاً ، كانوا على استعداد لأن يوقعوا على مضابط يعربون فيها عن ولائهم ، وعن موافقتهم على استمرار الحكم البريطاني في العراق . وذلك لانهم كانوا يعلمون ان هذه المضابط وعليها تواقيعهم وإبداء موافقتهم ستُرسل الى الحكومة في بغداد حسب التعليمات التي صدرت الى ضباط الارتباط الذين كانوا يقومون بعملية الاستفتاء .

ثالثاً : ان معظم التصريحات والآراء التي ابداها الناس ، والتي اعتبرت معادية لاستمرار الحكم البريطاني في العراق أُهمل امرها ، وحذفت من التقارير الرسمية على انها لا تمثّل رأي الناس ورغباتهم . مثالٌ على ذلك البيان الذي اصدره مندوبو المؤتمر الذي عُقد في بغداد . والذي كان يمثل مسلمي بغداد ، أُهمل وحذف من التقارير الرسمية على انه لا يمثل ارادة سكان بغداد الذين يمثلون قطاعاً سياسياً واقتصادياً مهماً ، بينما كان القصد منه ان يكون بياناً وطنياً معبراً عن ارادة اهل بغداد ورغباتهم في السياسية (١) . والرأي الذي ابداه اهل كربلاء . وهي المدينة المقدسة الثانية في العراق لدى الشيعة ، لم يُشر اليه رسمياً في التقارير على انه تعبير عن ارادة الناس في كربلاء (٢) . كما انه لم يتوافر الحصول على بيان يمثل ارادة اهل سامراء ، وهي المدينة المقدّسة الرابعة لدى لشيعة . وموجز القول هو ان فشل الاستفتاء في اعطاء صورة حقيقية عن رغبات العراقيين واهوائهم كما عبّروا عنها ، وعجزه عن تمثيل الرأي العام وعكس صورة حقيقية له في جميع الأبعاد . كل هذا كان من شأنه ان يضلّل حكومة جلالته ، كما انه كان من شأنه ان يمهّد السبيل لقيام اضطرابات وثورات في البلاد .

---

(١) Bell op. cit., 6.

اما لونغرغ (Longrigg) فيشك في امر الاجتماعات التي كان يعقدها اعيان البلاد على اساس انها لم تكن تمثل ارادة الناس . ويضيف قائلاً ان الأسراع في الاستنتاج من ان استمرار الحكم البريطاني كان برغبة جميع سكان العراق ، باستثناء حفنة من السياسيين ناكري الجميل ، لم يكن له ما يبرره . راجع: Longrigg, op. cit., 118.

(٢) See Administration Report, Shamiyyah, 1919, 30; also Administration Report, Hillah Division, 1919, 17

إضطرابات ١٩٢٠ : ذروة النشاط السياسي الشيعي

شهد العراق بعد التوقيع على الهدنة فترة اتسمت بالارتياح العام فقد زالت القيود التي كانت الحرب قد فرضتها واصبح التنقل اكثر حرية ، وعادت حركة الاسواق التجارية بين مختلف اجزاء العراق الى سابق عهدها . ولكن عقبت هذه الفترة من من الارتياح والسوية فترة اخرى من ازدياد روح العداء ضد الانكليز وانتشاره في البلاد . وكان مصدر هذا العداء المدن المقدسة لدى الشيعة في العراق فقد وقعت معظم القبائل الضاربة شمال النجف على ضفاف الفرات ، ولاسيما في منطقة الجزيرة ، تحت تأثير الدعاية العربية الشريفية (نسبة الى الشريف حسين) التي كان مصدرها الحكومات العربية التي قامت في كل من دمشق وحلب . اما قبائل الفرات الاوسط والأسفل — وهم في معظمهم من الشيعة — فقد كانوا عرضة للدعاية التي تصدر عن النجف بصفتها المرجع الروحي لهم . وكل الاضطرابات المحلية التي جاءت في اعقاب حادثة الرميثة — وسنأخذ هذه الحادثة باسهاب في ما بعد كان يتزعمها رُسُل النجف ودعاتها وجماعة الموامنة (٢) .

---

(١) ان الحوادث التي وقعت في اعقاب حادثة الرميثة في اواخر حزيران من سنة ١٩٢٠ وصفت من قبل بعض الكتاب انها كانت « عصياناً » ومن قبل البعض الآخر انها « تمرد » . وفي رأيي ان استخدام كلمتي « عصيان » و « تمرد » جاء في غير محله . اذ ان العرب في العراق لم يكن يتوجب عليهم ان يخضعوا البريطانيين ولاسهم ، كما انه لم يكن لهم ان يخضعوا للادارة البريطانية الهندية في بغداد . وأن يوصف حمل السلاح في وجه الظلم او الغبن بانه « عصيان » و « تمرد » خطأ فادح في التعبير . هذا رأي أوثر ان صف تلك الحوادث بانها كانت اضطرابات .

(٢) الموامنة هم المعتمدون الدينيون المحليون الذين يمثلون المجتهد الاكبر في النجف ، ومفردها « المؤمن » في لغة العامة ، ويلقبونه بالشيخ . وهو مخول شرعي منوط به حل المشكلات بحسب الشريعة الاسلامية ، كالزواج والطلاق ، والأرث . ويشترط في المؤمن ان يكون خريج حلقة دينية من النجف . ويكسب عيشه مما يعطيه الناس في مقابل خدماته الدينية لهم. والى جانب هذه الوظيفة فان له وظيفة اخرى على جانب من=

وتبغي الأشارة الى ان اهل العراق ، بعد الهدنة ، كانوا يتوقّعون الخير من الادارة البريطانية الهندية في بغداد . ولكن على الرغم من زوال كثير من القيود التي فرضتها الحرب ، فانه لم يحدث امر جوهري من شأنه ان يُسهّل سير الادارة الحكومية بحيث يرضي عنه الرأي العام . فقد كان المتعلمون الناطقون باسم الحكومة يجهلون العربية ، كما انهم كانوا في زيهم الخارجي وفي آدابهم وعاداتهم يختلفون عن اهل العراق. اضف الى هذا ضروباً اخرى من الأزعاج للاهلين كاحتلال الدور والقصور التابعة لاعيان البلاد واغنيائها ، والطرق العسكرية والمعسكرات التي كانت عائقاً في سدّ الاقنية والترع الضرورية لري الارض الزراعية ، ناهيك بجميع الضرائب المفروضة على كل صنف من الغلال والمحاصيل « مما كان مكروهاً لدى الشعب اغنيائه وفقرائه (١) » . وكانَّ يعوز ولسن موظّفون ومعاونون لاثقون يعملون في امرته، اذ انه كان يُصرّ على ان يتوافر في الموظّف مستوى عال من الثقافة ومعرفة اللغة الانكليزية ، وهي امور لم تتوافر لدى الموظفين العراقيين العاطّلين عن العمل والذين زادت اعدادهم برجوع جماعة تَعدّ بالمئات من تركيا الى العراق مما زاد في عدد الناقمين غير الراضين عن الوضع الراهن . كانت هذه الجماعة الناقمة من دون عمل منقضة النفس تتراحم الى المقاهي حيث التربة صالحة لانتشار الاشاعات والترويج لها في اوساط الرأي العراقي العام الذي كان يتسم بالخيبة وفقدان الأمل. وفي صورة عامة نستطيع القول ان ادارة ولسن لم تنتفع كثيراً بما كان لدى العراقيين المثقفين من مواهب ومهارات (٢) . مثال على ذلك ان ولسن استدعى محامياً ممتازاً ، السيد ناجي بيك السويدي ، ليشغل منصباً استشارياً في بغداد ، ولكن السويدي وجد الجوّ المخيّم على البلاد قاتماً غير مؤات له فعاد من حيث اتى ونفسه منكسرة حزينة (٣) . وقد ذكر بعض الزوّار العراقيين من الغرب ان موقف ولسن في الحكم كان موقف المستعمر الذي استخفّ بقُدُرات العراقيين وتجاهلها . وانتشرت الأشاعات في بغداد حول وضع العراق تحت الانتداب البريطاني . وفي اواخر عام ١٩١٩ ذكر ان

= الاهمية ، وهي ان يقوم « بالقرايات » اي التعزي التي تقام في الايام العشرة الاولى من محرم احياء لذكرى فاجعة كربلاء التي قتل فيها الأمام حسين وجماعة من اتباعه ومن ذريته . ويتلقى المؤمن مكافأة مالية لقيامه بفروض التعزية من الجماعة التي تحضر التعزية . وعندهم اعتقاد انه كلما زاد الواحد منهم في سخاء العطاء للمؤمن الذي يقوم بفروض التعزية زاد أجره عند الله .

(١) Longrigg, op. cit., 113

(٢) Longrigg, op. cit., 114

(٣) I.O., L/P and S/10, 4722 (parts VII - VIII).

النساء البريطانيات والأولاد يتوافدون الى العراق باعداد كبيرة كأنهم يتوافدون الى مستعمرة بريطانية . وموجز القول ان اعمال الادارة البريطانية المدنية ومخططاتها كانت توحي باستمرار الحكم البريطاني الدائم في العراق . جميع هذه الاعتبارات التي جئنا على ذكرها امور يفسرها لنا تهيوء عدد كبير من العناصر العراقية الناقمة واستعدادها ، عند منصرم سنة ١٩١٩ لمناصرة اي حركة عدائية ضدّ الانكليز تقوم في البلاد وتتخذ شكلاً يكون تعبيراً عن هذه النقمة .

ولقد كانت ، بالاضافة الى هذا ، عوامل اخرى زادت النار لهباً . في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الاول ، ١٩١٩ ، احتلّ رمضان الشلاّش ورجال القبائل التابعة له ، مدينة دير الزور . وكان رمضان الشلاّش قد عُيِّن في تلك الفترة حاكم الفرات والخابور من قِبل حكومة حلب (١) . وألقي القبض على معاون الحاكم السياسي البريطاني في دير الزور وسُجن حتى ٢٥ كانون الاول . واصبحت دير الزور ، الى مدة ، مركز الدعاية ضدّ البريطانيين . وراح رمضان الشلاّش يشجّع القيام بغزوات ضدّ المعسكرات البريطانية ، ويرسل التهديدات بانه سيضم ولاية الموصل ذاتها . وقامت قبيلة العقيدات بمهاجمة البوكمال من دير الزور ونهبت البلدة . وكان الجباة السوريون يقومون بجمع الضرائب على عُمق في الأراضي العراقية . وكان البريطانيون ضعفاء في تلك المنطقة ، فلم يستطيعوا ان يقوموا باي عمل مضادّ سوى الاحتجاج والوعيد . ولكن بعد ان رجع فيصل من مؤتمر الصلح في باريس ، وكان ذلك في شهر آذار من عام ١٩٢٠ ، امر الشلاّش واتباعه بأن ينسحبوا من المنطقة فأذعنوا لأوامره . وفي مطلع شهر ايار عُقِد مؤتمر على الحدود في عشارة تمّ فيه الاتفاق على تعيين خطّ للحدود يقع الى غرب القائم تماماً (٢) . وفي الثالث من شهر حزيران احتلّ جميل المدفعي — وهو ضابط عراقي — وجماعة من رجاله قوامها ٣٠٠ رجل من قبيلة شمّر جربا تلّ عفر ، وهي بلدة تقع على مسافة اربعة اميال غرب الموصل وقتل ضابطاً بريطانياً هو الرائد (J.E. Barlow) (وكان ضابط الارتباط السياسي) والملازم أول B. Stuart (ضابط جندرمة) و A.V. Walker (معلم في سلك الجندرمة) والجندي الرقم ٣٢٢٨٧ وهو W.R. Lawler

---

(١) Wilson, op. cit, 231.

(٢) I.O., L/P and S/10, 5202 (parts I-III)

من فرقة الهوزار السابعة ، كما انه هدّد بالتحرك والهجوم على مدينة الموصل (١) . اما السيارتان المصفحتان اللتان بعثت بهما السلطة العسكرية في الموصل الى تـل عفر فان العرب نصبوا لهما مكمناً على الطريق وقتـل ضابطان بريطانيان واربعة عشر جندياً . غير ان الانكليز بعثوا بطابور من جيشهم الى الموصل لمعاقبة جميل المدفعي وانصاره في ٥ حزيران . وتمكنت هذه القوة من طرد جميع سكان تل عفر ، ابريـاء ومذنبين ، ـ وجلّهم من الابرياء ـ الى الصحراء ، غير انهـا لم تستطع ان تعاقب قتلة الضبّاط البريطانيين (٢) وتنبغي الأشارة هنا الى ان أمل البريطانيين في التغلّب على القوة العربية في تل عفر كان معقوداً على تدخّل الجندرمة في اخذ مواقع حربية تفصل بين الجيش المتّجه نحو البلدة وبين القوة العربية ، ولكن وُجد في ما بعد ان علي افندي ، احد قادة الجندرمة كان هو قاتل الضابط البريطاني ستيوارت (٣) . كان حادث تل عفر وتشريد الجيش الانكليزي اهالي البلدة ومطاردة النساء والاطفال الى الصحراء بمثابة صبّ الزيت على النار ، فثارت النفوس والتهب الوضع . ومما زاد في قلق الانكليز وفي حراجة موقفهم ، ان احد المجنّدين الذين كانوا يستخدمونهم في الجيش البريطاني كان الضابط الذي قتل الملازم اول ستيوارت . وعُقدت اجتماعات مهمة في بغداد وفي المدن المقدّسة ضمّت زعماء من الشيعة والسنّة . وقد تمّ التقارب السنّي والشيعي على ايدي اربعة من الزعماء يمثلون الطائفتين : السيد محمد الصدر وجعفر ابو التمّن عن الشيعة ، ويوسف السويدي وعلي البازركـان عن السنّة . وفي مطلع شهر آذار اصدر المجتهد الاكبر في كربلاء فتوى جاء فيها ان قبول وظيفة حكومية في ادارة البريطانيين امرٌ تحرمه الشريعة الاسلامية (٤) . فطغت موجة من الاستقالات في منطقة الفرات

---

(١) Debates, H.C., 15.6.20, Vol. 130, p. 1074. Also F.O. 371/5129 (E 6164/2719/33).

ويعلق ولسن على الحادث هذا فيقول : لقد لفت الرائد بارلو ، ضابط الارتباط السياسي ، الذي كان موجوداً في مكان الحادث الى ان الرأي السائد هو ان تل عفر كان المكان الذي يقصده جميل المدفعي بعمله العسكرية تلك . وقد أوصى ضابط الارتباط السياسي في الموصل ان ترسل نجدة لمعاونة الموجودين في تل عفر ، كما اني شخصيـاً ألححت بارسال النجدة بعد موافقة هيئة الاركان . وكانت فرقة حامية واحدة تكفي لهذه المهمة العسكرية ، ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث . وهذه الحادثة مثال على الأسلوب الذي كان يتبعه الجنرال هلداين (Haldane) وشعاره : « عجل ولكن بتمهل ! » راجع : Wilson, op. cit., 273-4

(٢) Wilson, op. cit, 274.

(٣) Ireland, op. cit, 258.

(٤) F.O. 371/5071 (E 2111/13/44).

الاوسط والأسفل ، دلالة على اطاعة المجتهد الاكبر ونزولاً عند مضمون فتواه . وعندما قتل أحد المجندين العرب في الجيش البريطاني وهو يقوم بوظيفته في الديوانية لم يصل على جثمانه احد من رجال الدين بحسب الفرائض الشيعية . وفي دمشق توج فيصل ملكاً على سوريا فأعلنت جماعة من كبار الضباط والموظفين الاداريين في العراق قرارها دعوة الاخ الاكبر لفيصل ، الامير عبد الله ، ليكون ملكاً على عرش العراق، وهو قرار احدث ضجة كبرى في بغداد وفي الأماكن المقدسة(١). وعلى الرغم من تطور الأحداث فان الأدارة البريطانية غير المرغوب فيها استمرت في تجاهلها وفي اقصائها العراقيين المثقفين عن وظائف الحكومة . وفي اوائل شهر أيار تلاشت آمال العراقيين بنيل الاستقلال التام الفوري وذلك في اعقاب اعلان صدر في بغداد تضمن نبأ موافقة الحلفاء في مؤتمر سان ريمو على وضع العراق تحت الانتداب البريطاني . كان النبأ بمثابة ضربة قاصية . وجاء هذا النبأ المشؤوم مصدقاً لما كان قد شاع بين الناس من ان الانكليز تما هم في العراق ليبقوا في العراق . شعر الناس بأنهم لا يزالون في منأى عن العصر الذهبي الذي كانوا يحلمون به (٢) . اما مطران الطائفة السريانية الكاثوليكية ، ومطران الطائفة السريانية الارثوذكسية ونائب بطريك الكلدان ورئيس الجالية اليهودية فانهم بعثوا الى جلالة الملك جورج الخامس ببرقية يلتمسون فيها من جلالته ان يتقبل شكرهم المتواضع لقبول حكومة جلالته الانتداب على العراق راجين ان يبرهن العهد الجديد تحت الانتداب البريطاني عن عميق ولائهم الى التاج البريطاني (٣) . بعد صدور هذا الأعلان قلقت الخواطر في بغداد وفي الاماكن المقدسة وثارت النفوس ، وراح الناس يعقدون الاجتماعات في المساجد حيث حثّ الخطباء أهلّ العراق على ان يثوروا ضد البريطانيين ، كما انه وقعت اصطدامات بين عامة الناس وقوات السلطة ، وراحت المصفحات تجوب شوارع مدينة بغداد . وسعى المندوبون وهم اعضاء لجنة سُنية شيعية قوامها خمسة عشر عضواً من اعيان البلاد ، تمت الموافقة على انتخابها في مؤتمر عام عُقد في المسجد الرئيسي الكبير في بغداد — الى الاتصال بولسن طالبين اليه ان يفسح

---

(١) Wilson, op. cit. 237
يقول ولسن ان من بين الذين اتخذوا هذا القرار رجال يتحلون بالشجاعة والكفاءات الممتازة ، وكانوا من قد اكتسبوا ثقة البريطانيين وضباط جيشهم في سوريا .

(٢) كان من الطبيعي ان تسرع غرفة تجارة البريطانية وجمعية الشبان المسيحية ، اللتان كان لهما مصالح في العراق ، الى التعبير عن رضاهما عن قرار حكومة جلالته . راجع التفاصيل في : F.O. 371/5228 (E 9413/2719/44).

(٣) F.O. 371/5227 (E 7288/2719/44).

لهم في المجال لعرض مقترحاتهم عليه كي يرفعها الى حكومة جلالته . غير ان ولسن حاول تجنبَ اللقاء بهم . وقد نعتهم في رسائله التي كان يبعث بها الى رؤسائه بأنهم جماعة « أقاموا انفسهم ممثلين ومندوبين » . ولكنه عاد عن قراره هذا اولاً لأصرارهم على ضرورة الاجتماع اليه ، وثانياً لأدراكه ان لهذه الجماعة عدداً هائلاً من الأتباع والانصار . وفي آخر الأمر ضرب لهم موعداً لمقابلتهم صباح الثاني من شهر حزيران . ولكنه احتياطاً وحذراً من مغبّة هذا الاجتماع ، وجّه الدعوة الشخصية الى قرابة اربعين رجلاً من الاعيان معظمهم من اليهود والنصارى الذين كانوا موالين للعهد البريطاني في العراق(١) . وكان خطابه الترحيبيّ الذي ضمّنه تهديداً ووعيداً بمثابة إثارة وسخط لدى المندوبين الذين كانوا رجالاً عُرفوا بشجاعتهم واقتدارهم ومنزلتهم الاجتماعية في الاوساط العراقية . وقد أنذرهم باللجوء الى مقاومة العُنف بالعنف اذا ما حاولوا إثارة الشغب والقلاقل في البلاد(٢) . ولكن المندوبين ضبطوا أعصابهم واكتفوا بتقديم عريضتهم المكتوبة التي طالبوا فيها بتشكيل مجلس وطني على الفور يمثل الشعب العراقي وينتخب حسب قانون الانتخاب العثماني الذي كان معمولاً به في البلاد(٣) . وتكون لهذا المجلس الوطني المنتخب السلطة والصلاحية لوضع اقتراحات لتشكيل حكومة وطنية بحسب ما جاء في البلاغ الانكليزي الفرنسي . ومن الشروط الضرورية للقيام بهذه الخطوات حرية الصحافة . وقد أخبرني أحد المندوبين الذين حضروا تلك المقابلة — وهو رايح العطية من قبيلة حميدات في منطقة الشامية — والذي حظيت بمقابلته في بلدة برمانا (لبنان) في صيف ١٩٦٩ ، ان خطاب ولسن التهديدي المتعجرف لم يكن ليثبّط من عزائم المندوبين بل زادهـا اصراراً على الصمود في مطالبهم «حتى وان أدّى ذلك الى الثورة المُسلّحة» . وفي كلام مختصر كان ذلك الاجتماع الى ولسن سبباً الى تعميق الهُوّة بين وجهة نظره ووجهة نظر الوطنيين المندوبين الذين كانوا يمثلون السنة والشيعة . ثم ان ولسن ، في اليوم التالي لمقابلة تلك ، قام بزيارة لمدينة الحلة وطويريج بالطائرة ، وقابل بعض شيوخ القبائل هناك . ثم انه قابل ضباط الارتباط السياسي في كربلاء والنجف لتلقي معلومات منهم عن الوضع في هاتين المدينتين — وفي اثناء هذه الجولة التي قام بها ولسن كان ان المجتهد الأكبر في كربلاء يعمل جاهداً على اثارة النقمة وروح العداء ضد الانتداب البريطاني . ووزّعت على سكان النجف والقبائل رسائل

---

(١) وكان من بين وجهاء الطائفة اليهودية ساسون دانيال وساسون حزقيال ويهوذا زلوف .

(٢) F.O. 371/5228 (E 8609/2719/44).

(٣) F.O., 371/5227 (E 6060/2719/44).

كان قد كتبها وعليها ختم المجتهد الأكبر يحثُّ فيها الأهلين على الوقوف في وجه البريطانيين(١) . وكان سحب الجيوش البريطانية من العراق قد بلغ حدّ التدني . الأمر الذي شجّع العراقيين اكثر فأكثر على ان يتصلّبوا في مطالبهم ، وعلى ان ينهجوا سبيل العنف في سبيل تحقيق السياسة التي كانوا قد اختطوها (٢) . ويعزو ولسن استعداد القبائل الشيعية للجوء الى وسائل العنف ، في الدرجة الاولى ، الى خفض عدد الجنود البريطانيين في مختلف الحاميات ، والى انسحاب الموظفين من ذوي الكفاءات ومغادرتهم البلاد في إجازات . ويعبّر ولسن عن آرائه في ما يتعلّق بالسياسة التي ينبغي اتباعها فيقول انه ، في الوقت الذي يحاول فيه اتباع سياسة تنسجم مع نصّ شروط الانتداب وروحه ، لا يمكن لبريطانيا ان تحتفظ بمركزها في العراق كدولة منتدبة عبر مصالحة العناصر المتطرّفة وتسوية الامور سلمياً معها ، بل ينبغي لها ان تكون على استعداد ، وبتجاهل جمعية الامم ، لأن تتمهّل وان تتأنّى في انشاء المؤسّسات الدستورية او الديموقراطية التي من شأنها اذا طُبّقت — بحسب اعتقاده — على البلدان الشرقية فان أملها في انجاح ضئيل جداً(٣) . هذه صورة حاولنا رسمها عن وضع السياسة العراقية قبيل انفجار الأزمة في أواخر شهر حزيران في بلدة الرميثة .

ان اول اصطدام مسلّح دموي بين العراقيين والقوات البريطانية وقع في بلدة الرميثة ، وهي قرية صغيرة في منطقة الديوانية . وحدث ان شعلان الجون ، شيخ عشيرة الظوالم ، وهم فخذ من بني جحيم ، لم يُسدّد ما كان يتوجّب عليه من كلفة زراعية استحقّ دفعها عن السنة الماضية (سنة ١٩٢٠) وقيمة السلفة تقلّ عن مئة ليرة استرلينية (٤). وكان مساعد ضابط الارتباط السياسي ، الملازم هايث (Hyatt) يرى ان هذا الرجل ، شعلان ، « رجل مشاغب ووقح » ولا يرى مندوحة عن توقيفه . وفعلاً اوقفه وبعثه في القطار مساء اليوم الذي اوقفه فيه الى الديوانية (٥) .

(١) J.O., 371/5227 (E 6058/2719/44)

(٢) خفض عدد الجنود البريطانيين في العراق من ٢٢٠ الف جندي الى ٩٠ الفاً بين شهري تشرين الثاني ، ١٩١٨ ، وحزيران من سنة ١٩٢٠ . راجع
Military Aspect of the mesopotamian Problem
وهي محاضرة القائد النقيب شبرد (E.W. Sheppard) ونشرت في مجلة **J. C. Asiatic Soc.** المجلد ٨ ، الجزء الاول ، ١٩٢١ ، ص ١٣ .

(٣) J.O., 371/5228 (E 8483/2719/44).

(٤) London Gazette, july 5th, 1920, 5330, Dispatch no. 3.

(٥) Wilson, op. cit., 277

وهذا السبب المباشر لانفجار الأزمة في نظرنا سبب تافه غاية التفاهة ، فضلاً عن ان هنالك دلة تشير الى ان توقيف شعلان لم يكن لعجزه عن تسديد قيمة السلفة الزراعية بل لان الملازم داي (C. K. Daly) كان يعتقد ان شعلان على اتصالات مشبوهة مع النجف وكربلاء المدينتين اللتين كانتا آنذاك تعملان ما في وسعهما لإرسال الدعاة والرسل الى مختلف القبائل طالبين اليهم توحيد العمل ضدّ السلطة البريطانية . وعندما سأل احدُ اعضاء مجلس العموم البريطاني السيد ورمزلي - غور (Ormsby-Gore) ؛ المستر ونستون تشرشل عن سبب نشوب الثورة في الرميثة أجاب ان السلطة البريطانية القت القبض على الشيخ شعلان الجون لانه كان يحاول إثارة القبائل وحملهم على الثورة (١) . كما ان تشرشل اوضح في ردّه على هذا السؤال قائلاً انه من المرجح ان تكون اسباب الثورة التي قامت في الرميثة ضدّ البريطانيين اهتياج او اثارة دينية مصدرها النجف . وفي الواقع ان رسول النجف الى الرميثة كان رجلاً يدعى رحمة الله الظالمي (٢) . وجاء توقيف شعلان يعرِّض خطة النجفيين في الرميثة لمخاطر كثيرة . فان شعلان أخطر احد اعوانه ، غثيث الحرجان ، بانه ينبغي ان يصدر اوامره الى قبيلة الظوالم لكي يفكّوا اسر شيخهم (شعلان) بقوة السلاح ، ويشرعوا باعلان الثورة المسلحة فوراً ضدّ الانكليز حيثما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . واضافت التعليمات الصادرة عن النجف انه بالنسبة الى بنود الانتداب لا يحق لبريطانيا استخدام قوات عسكرية ، وان ما لدى بريطانيا من جنود في العراق قد سُحِبَ مُعظمهم بالفعل اما الى ايران ، او الى الهند . وكانت هذه المعلومات التي قدّمتها النجف بمثابة صب الزيت على النار . فقد كان الجوّ المتوتر مهيّأ لتلقف مثل هذه الاخبار المطمئنة . فارسلت قبيلة الظوالم عشرة رجال من احسن رجالها المدربين على الحرب والقتال لكي ينقذوا شعلان من سجنه (٣) وهم : حميد ن حاج قاصع وجنجيت حاج قاطع ، وحمود الراضي ، وعبد العبارة ، وخضير العبود ، ونجم العبد الله وابو عيون الحرجان (وهو اخو غثيث المشار اليه آنفاً) وعجيل الراضي ، وقصّاد المخرّب ، ودخيل العبود . وقد نفّذ أولئك الرجال مهمتهم في ٣٠ حزيران ، ١٩٢٠ ، اي في اليوم التالي لتوقيف زعيمهم شعلان (٣) . وبعد تخليصه من السجن صدرت الأوامر من النجف بقيام الثورة واعلانها ضد الانكليز ، وللحال ضرب جميع رجال قبيلة الظوالم الحصار على ضابط الارتباط الانكليزي وحاميته بدءاً من الرابع من شهر تموز ، وقطعوا السكة

---

(١) Debates H. C. 13.7 1920, vol. III p. 2162.

(٢) الحسني ، الثورة العراقية ، ص ٦٤ .

(٣) F.O. 371/5227 (E 7826/2719/44).

الحديدية شمال وجنوب الرميثة . كذلك قامت قبائل اخرى بمهاجمة مكاتب الحكومة ، بناءً على الاوامر التي صدرت من النجف . في بلدة السماوة وحاصروا الكتيبتين المرابطتين فيها . وقطعوا ايضاً خطّ السكة الحديدية شمال البلدة وجنوبها (١) . ومعنى قطع خط السكة الحديدية في الرميثة والسماوة قطع المواصلات الحيوية ، في تلك الفترة ، بين البصرة وبغداد فكان لزاماً على البريطانيين اخضاع قبيلة شعلان وقمع الثورة فوراً لان حوادث الرميثة والسماوة تركت اثراً عميقاً في هياج الرأي العام بين القبائل في لواء المنتفق الثائر حيث كان السيد هادي المقوتر رسول النجف يعظ الناس ويحثهم على الجهاد المقدس ضد الانكليز . وفي هذه الاثناء كانت مطبعة كربلاء تعمل ليلاً نهاراً على طبع منشورات لتُوزَّع على الاهلين . وقد خُصِّص احد هذه المنشورات للتحدث عن عبارة وردت على لسان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية مؤداها ان حملة الجنرال اللنبي على فلسطين كانت آخر حملة صليبية واعظمها شأناً ، وذلك اثارة للشعور الديني . ويتابع هذا المنشور كلامه فيتحدث في ايجاز ، ولكن في لغة نارية ملتهبة ، عن الحروب الصليبية القديمة وما رافقها من وحشية وفظائع اقترفها الصليبيون على ارض فلسطين . الى ان يخلص الى القول انه ينبغي للمسلمين ان يقاوموا بقوة السلاح جميع هذه المحاولات الغادرة الماكرة التي تقوم بها الدول المسيحية في كل من فلسطين وسوريا والعراق ، تلك المحاولات التي تهدف الى تقويض اركان الدين الاسلامي. ما المنشورات الكبيرة العريضة التي كان يصدرها حزب العهد في بغداد فقد كانت تختلف في مضمونها عن منشورات كربلاء التي كانت تشدد على ناحية الدين. فان منشورات بغداد كانت تتبع خطاً يهدف الى تبيان حقوق العرب– بصفتهم عرباً – في ان يحكموا انفسهم ، وان يحرروا اوطانهم من الاحتلال والسيطرة الاجنبية . اما بالنسبة الى الشيعة فقد كانت القضية تختلف اختلافاً كلياً . فان ما كان يشار اليه في قولهم « احتلال او سيطرة اجنبية » انما هو في الواقع سيطرة مسيحية تناوىء الاسلام ، ولكن كان الواحد يلحظ انّ في عداد حزب العهد رجالاً مسيحيين ، بينما كان جميع الزعماء السياسيين الذين انضموا الى النجف من خُلَّص المسلمين .

كانت حوادث الرميثة والسماوة ، بالنسبة الى الانكليز ، عكاً لعرض العضلات بينهم وبين قبائل الشيعة الذين كانوا يأتمرون بأوامر الرسل المبعوثين اليهم من قِبَل النجف . فكان من الامور الحيوية لدى الانكليز فكّ الحصار عن الحاميتين في البلدتين واعادة النظام والقانون الى سابق عهدهما في دوائر الحكومة هناك. واذا عجز الانكليز عن تحقيق هذا الأمر فلا شك في ان القبائل ستنظر اليه على انه بمثابة انتصارها. فارسل

(١) J.O. 371/5227 (E 8268/2719/44).

البريطانيون نجدةً عسكرية الى كلٍّ من الرميثة والسماوة لتنفيذ المهمة . وقد جرت محاولات عدةً لفك الحصار عن الرميثة ولتحريرها من سلطة الثوار ولكنها جميعها اخفقت الأمر الذي شجّع الثوار على الصمود في مراكزهم . ثم في الاول والثاني والثالث من شهر تموز ارسل المزيد من الجنود ولكن هذا المدد العسكري اخفق ايضاً في زحزحة الثوار من القبائل عن مراكزهم . وفي السابع من تموز ارسلت حملة عسكرية اخرى لانقاذ الموقف ولكنها عادت على أعقابها خائبة بعد ان كانت قد تكبّدت خسائر فادحة في المعارك(١) . واستطاع رجال القبائل الشيعية ان يستولوا على ستة قطارات حديدية مسلّحة وان يخرجوها عن الخطّ الحديدي بين السماوة والديوانية. وفقد الجنود المحاصرون في الرميثة عدداً من القتلى والجرحى ، كما ان كتيبة كانت قد أرسلت لنجدتهم تكبّدت ايضاً خسائر فادحة(٢) . وكانت السلطات العسكرية البريطانية تموّن الجنود المحاصرين في الرميثة من الجوّ ، كما ان الطائرات كانت تقصف بقنابلها وبرشاشاتها جموع القبائل المحيطة بهم ، مساندة منها لجنود الحملة التي كانت قد أرسلت لانقاذ الحامية(٣). وقد فُقدت ١٧٠ سيارةً ، كما ان القائد العام كان قد استنفد جميع احتياطيه فأرسل يستنجدّ بالهند لإرسال قدر كبير من المدد العسكري ، وأعطي صلاحية كاملة في اتخاذ اي اجراءات يراها مناسبة للوضع العسكري سواء أكان ذلك تكثيفاً وتركيزاً للقوة العسكرية ام انسحاباً .

ولكن على الرغم من جميع الامدادات العسكرية الضخمة فان الوضع ظلّ خطيراً في نظر القيادة البريطانية حتى انها اضطرت آخر الأمر الى تقديم توصية بالانسحاب من ولاية الموصل (٤) . ولم يتمّ الإفراج عن حامية الرميثة المحاصرة إلاّ في الحادي والعشرين من شهر تموز . ثم ان الجنود البريطانيين حلوا عن البلدة وخلفوا وراءهم مؤخّرة من الجيش لتغطية انسحابهم . ولكن تلك المؤخّرة تعرّضت لهجمات عنيفة قام بها رجال القبائل الذين انتفعوا اذ ذاك بهبوب عاصفة رملية شديدة الكثافة (٥). وأصبح العراق آنذاك ، كما وصفه الجنرال في رسالة من رسائله(٦) ، « اشبه ببرقٍ متجمد السطح تبرز فيه نتوءات حيثما يرتفع الضغط عن سطحه»(٧) وكان قد أسفر

---

(١) London Gazette op. cit, 5331

(٢) Debates, H.C. 15.7. 1920. vol. 131, p. 2577.

(٣) Debates. H. C. 20, 22.7. 1920 vol 132 pp. 216, 625)

(٤) J.O. 371/5228 (E 8483/2719/44).

(٥) Debates, H.C. 27.7. 1920, vol. 132 p. 1190

(٦) London Gazette, Sir A. Haldane's Dispatch of 8.11.20. no. 32379, supp., 5.7.21

(٧) Ireland, op. cit. 267.

ارسالُ الجنود من الحلة الى الديوانية عن قيام ثورة في منطقة الحلة حيث احتلت قبيلة بني حسن بلدة الكفل في ٢٠ تموز بأمر صدر اليها من النجف . وتكبّدت الكتيبة التي أوفدت الى الرميثة لانقاذ المحاصرين من الجنود البريطانيين خسائر جسيمة : ٣٥ قتيلاً و ١٥٠ جريحاً كان من بينهم خمسة من الضباط الانكليز ، وكان الباقون من الجنود الهنود من مختلف الرتب العسكرية(١) . فكان لزاماً على القيادة البريطانية ان تحرر الكفل ، فأرسلت ثلاث كتائب من فرقة مانشستر الثالثة ، واحدة منها ورقمها ٣٢–١ من السيخ الروّاد ، واثنتان من الفرقة المعروفة ب «سند هورس» رقم ٣٥ ، وبطارية من مدافع الميدان لكي تقوم بهذه المهمة . وأسفرت المغامرة عن انسحاب هذه القوة بعد أن تكبّدت خسائر جسيمة : ١٨٠ قتيلاً و٦٠ جريحاً ، وأسر قرابة ١٦٠ جندياً ، هذا عدا الخسارة الفادحة في وسائل النقل(٢) . وهذه الانتكاسات البريطانية شجّعت قبائل الفرات الاوسط على القيام بمزيد من الهجمات وعلى المزيد من المغانم . فقامت قبائل المشخاب ، جنوب النجف ، بمهاجمة بلدة ابو صخير ، وضرب الحصار على الكوفة في العشرين من شهر تموز ، ولم يُرفع عنها الحصار حتى اليوم السابع عشر من شهر تشرين الأول . وقد عمل الرائد نوربري (P.F. Norbury) ضابط الارتباط السياسي في منطقة الشامية ، يعاونه النقيب مان (J.S. Mann) ما في وسعهما لحصر نشاط القبائل السياسي والعسكري المعادي للبريطانيين ضمن إطار معيّن ، غير انهما لم يفلحا في مسعاهما . وعقدا اجتماعاً دعيا اليه زعماء القبائل في دار الشيخ الزعيم مرزوق العوّاد ، شيخ قبيلة العوابد ، وذلك في ٧ تموز . ولكن الاجتماع لم يسفر عن شيء ايجابي . بل الواقع انه وسّع شقة الخلاف بين الموظفين البريطانيين وزعماء القبائل . وقام الشيخ علوان الياسري وعبد الواحد سكر والسيد هادي زوين ، وهم من اعيان الشيعة البارزين في منطقة الشامية على رأس جيش من رجال قبائلهم بضرب الحصار على الحامية البريطانية التي نجت من شرّ ما كان يتوقع لها بفضل مساعي الرائد نوربري الذي أفلح في عقد هدنة موقتة مع أولئك الزعماء الذين ذكرناهم آنفاً(٣) ، أبقيت بموجبها بلدة ابو صخير في يد العرب . وفي منطقة الفرات الأوسط فقد جلا البريطانيون عن الرميثة وسدّ الهندية والمسيّب . أما السماوة والكوفة فقد ضربت القبائل الشيعية الحصار عليهما . وفي اثناء حصار الكوفة قتل النقيب مان

---

(١) Wilson, op. cit., 278

(٢) op. cit., 279

(٣) الحسني ، المصدر ذاته ، ص ٨٧ .

Mann برصاص المحاصرين ، وفقد الانكليز خمسة وعشرين قتيلاً من جنود حاميتهم وسبعة وعشرين جريحاً . وكان رجال قبيلة الفتلة يقصفون الحامية ، مرة بعد أخرى ، مستخدمين في ذلك مدفع هاون من عيار ١٨ كانوا قد غنموه في ٢٤ تموز . وأفلحوا بواسطة هذا المدفع في ان يغرقوا مركباً حربياً نهرياً اسمه «فيرفلاي» (Firefly) وكانوا يجمعون أسرى الحرب البريطانيين في مدينة النجف . وبلغ عددهم ١٧٠ أسيراً منهم قرابة ثمانين جندياً ينتمون الى فوج مانشستر . هذا ، وقد عَمِل آغا حميد خان ، الممثل البريطاني في النجف ما في وسعه لاقناع اهل النجف وحملهم على معاملة اسرى الحرب معاملة كريمة . ويشير السير ايلمر هلداين في كتابه الى « الاساليب الفظّة القاسية » التي كان أهل العراق يمارسونها ضدّ اسرى الحرب ، كما انه يضيف قوله إن هذه الأساليب تذكّرنا بأفظع الأساليب الوحشية التي وصفها فوكس (Fox) في مؤلّفه «كتاب الشهداء». اما ولسن فينفي صحة الاتهامات التي اوردها هلداين ، ويقول عن الأسرى البريطانيين في النجف إنّ « من الدلائل التي تشير الى أنهم ، آخر الأمر ، عُوملوا معاملة كريمة ما بدا عليهم من إمارات الصحة والتغذية الحسنة عندما أُطلق سراحهم » . ويضيف قوله : « إني لا أتذكّر حادثة واحدة عثرت عليها في ملّفات الوثائق الضخمة ، أو في تقارير دوائر الاستخبارات ، أو في ملفات الدائرة السياسية ، تُبرهن على ان العرب كانوا يعذّبون الأسرى عن سابق تعمّد وتصميم(١) » . كذلك تشير التقارير التي تلت ، والتي أرسلت الى وزارة الخارجية البريطانية الى ان معاملة الاسرى البريطانيين من قِبل العرب كانت معاملة كريمة (٢) . وقد سمحت السلطات الشيعية في النجف لطبيب بغدادي عُرِف عنه أنه كان صديقاً مقرّباً للسلطات البريطانية المدنية بأن يقابل الأسرى ، وبأن يقدم لهم الألبسة والأدوية وأموراً أخرى من وسائل الراحة والترفيه (٣) .

كان للانتكاسات العسكرية التي حلّت بالانكليز في الفرات الأوسط أثر عميق في نفوس اهل الفرات الاسفل وفي لواء المنتفق . وقد ذكرنا آنفاً ان رسول المجتهد الأكبر وممثله في الفرات الاسفل كان السيد هادي المقوطر الذي كانت مهمته إثارة خواطر القبائل هناك وحملهم على القيام بثورة ضد الانكليز في تلك

(١) Wilson, op. cit., 299.
راجع ايضاً نص الرسالة التي كتبها المجتهد الاكبر حول اسرى الحرب البريطانيين في النجف » في الملحق الرقم ٧ .
(٢) Debates. H. C., 21. 10. 1920, vol. 133, p. 1092
(٣) Debates. H.C. 9.8.1920, vol. 133, p. 51.

المنطقة . « ان استمرار نشاط هذا السيد الشديد التعصب في إلهاب شعور القبائل ، وما كان في متناوله من مقادير ضخمة من الذهب ، لا يمكن ان يكون له سوى غاية واحدة ، واذا استطاع ان يستمرّ في نجاز مهمته ، والقضيّة قضية وقت ، فان كلّ المنطقة الممتدة من السماوة الى الجدر ستعلن قيام الثورة(١) » . إن سكان لواء المنتفق ، ، كما يدل عليه اسمه ، يتألفون من اتحاد يضمّ عدداً من القبائل عدد نفوسها يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة . وهي قبائل متحضّرة ونصف متحضرة كانت تدين بالولاء قبل قيام ثورة زراعية، لأسيادهم السعدون الذين كانوا يتزعمون ذلك الاتحاد القبلي . وفي سنة ١٩٢٠ لم يبق للاسم من معنىً ذي بال سوى أنه كان اسماً تاريخياً عرفوا به ، ذلك بأن الاتحاد عاد فتجزّأ الى عدد كبير من القبائل والعشائر وسجلّ علاقاتهم مع الاتراك كان سجلّ حروب وثورات . وقد أنيطت السلطة التنفيذية في لواء المنتفق بضابط سياسي بريطانيّ يقيم بالناصرية ويعاونه ضبّاط ارتباط سياسيون مقرّهم في كل من قلعة سكّر وشطرة وسوق الشيوخ وفي الناصرية ذاتها . وكانت منطقة الغرّاف ، وسكانها من المتحضّرين الذين استوطنوا البقعة على ضفتي النهر الذي يتّصل دجلة بالفرات . تقع ضمن صلاحية الموظفين البريطانيّين في قلعة سكّر وشطرة . وكانت بلدة سوق الشيوخ تضم قبائل الفرات الأوسط التي تسكن في منطقة المستنقعات ، كما ان الناصرية كانت تضم القبائل الضاربة في المنطقة المحيطة بها . وفي أواخر شهر نيسان انصرف علماء النجف الى عقد اجتماع . بتوصية من المجتهد الأكبر . يُدعى اليه شيوخ القبائل في الغرّاف والحلة والديوانية والشامية وزعماؤها . وقد اقسم اعضاء ذلك الاجتماع بالقرآن الكريم انهم سينسفون خطوط السكك الحديدية ، وسيقاومون الحكومة كل في منطقته . أما الضابط السياسي في الناصرية فكان قد تسلّم رسالةً من الحاكم المدني تدور حول ذلك الحلف الذي عقدته القبائل والذي يتزعمه ويدير شؤونه علماء النجف(٢) . وكانت غاية الحلف ومقصده إقامة حكومة دينية تستمدّ سلطتها من النجف . وتلقّت قبائل شطرة وسوق الشيوخ وقلعة سكّر رسائل مختومة بختم

---

(١) C.O.696,vol. 3,Administrative Report of the muntafiq Division,1920,5

ان إتيان التقرير هنا على ذكر « المقادير الضخمة من الذهب » يوحي بان صاحب التقرير كان يريد ان يقول ان القبائل في هذه المنطقة كانوا معادين للانكليز بسبب الرشوة وبسبب شرائهم بالذهب . ولكن الرشوة لا تفسر لنا سر استعداد القبائل لمحاربة الانكليز حتى النهاية . اما السبب الحقيقي لقيام الثورة فاننا سنأتي على ذكره في سياق البحث .

(٢) C.O. 696. vol.3. *Administrative Report, Muntafiq*, 1920, op. cit.2.

بها علماء النجف يحثونها فيها على التعاون مع زعمائهم . وكان مجتهد كربلاء يعظ في الناس حاثاً إياهم على الجهاد . كما أنه كان قد بعث بمئات الرسل الى جميع انحاء الفرات الأوسط والأسفل ليقوموا بهذه المهمة ، مهمة الحث والدعوة الى الجهاد(١) . وكان أول اضطراب وقع في شطرة حيث كان للقائمقامين الاتراك مقبرة . للذين وقعوا ضحية تاريخ مديد كان يتسم بالفوضى الضاربة في تلك البلدة . وأسفرت العمليات العسكرية في الرميثة عن تدفق سيل من اللاجئين الى منطقة الغرّاف . ولم يكن تدفق اللاجئين ليترك انطباعاً في أذهان الناس أنهم هربوا من وجه القوة او سلطة الحكومة بل الواقع هو أنهم جاءوا ليضعوا نساءهم وأطفالهم في مكان أمين . ولكي يشتروا مزيداً من البنادق والذخيرة ، ومن ثمّ يعودون الى ساحة الحرب . وازدادت الحالة في قلعة سكر تردياً يوماً بعد يوم ، وفي ١٢ آب وصلت طائرة الى البلدة تحمل رسالة أمراً من الحاكم المدني موجهاً الى النقيب كروفورد (Crawford) بوجوب التوجه فوراً الى الناصرية(٢) ، وذلك حفاظاً على سلامته . اما الحالة في الخضر فقد كانت خطيرة جداً . ففي ١٢ آب أطلق القناصة من رجال القبائل النار بغزارة على الحامية البريطانية التي كانت تتألف من ٧٥ جندياً عراقياً . ومن قطار مسلح . ومركبتين نهريتين (٣). وفي صباح اليوم الثالث عشر من آب قررت القيادة العامة ان هذه الحامية يجب إجلاؤها ونقلها الى اور ، وهي نقطة اتصال . وفي أثناء الانسحاب هذا تمكنت القبائل من ازاحة عربات أحد القطارين المسلحين عن خطه الحديدي ، وانهالت عليه النيران من قرية السوريشة فتكبدت الحامية المنسحبة عدداً من الاصابات . وقد خلّف انسحاب الحامية البريطانية من الخضر حالة خطيرة متوترة في كل انحاء لواء المنتفق حيث شعر الناس بأن الحامية التي كانت تحول دون امتداد الاضطرابات واتساعها قد انسحبت ، وان الحالة الآن مؤاتية في اللواء كله للقيام بثورة ناجحة . أما الوضع في منطقة الفرات ، حيث كان رسل النجف ودعاتها يقومون بنشاطهم من مدينة سامراء على الفرات الأعلى حتى الغرّاف في الفرات الاسفل ، فقد كان خطيراً جداً حتى ان القيادة العامة راحت تتساءل اذا لم يكن من الافضل التخلي عن خط الفرات كله والتركيز على البصرة وذلك لحماية خط دجلة(٤) . وأصبح آنذاك على القبائل الشيعية ان تعمل على تعزيز مكاسبها من الانتصار على السلطة المدنية باحتلالها

---

(١) f.o. 371/5228 (7849/2719/44)

(٢) C.O. 696, vol. 3, op. cit, 9

(٣) C.O. 696, vol. 3, op. cit., 10.

(٤) C.O.696, vol. 3, *Administrative Report, Muntafiq*, 1920, op.cit., 11.

مدينة الناصرية . وراح السيّد هادي المقوطر ، وكان ، كما ذكرنا ، مبعوث النجف ، كما انه كان رجلاً بارزاً ذا عقل مطبوع على السياسة والدهاء — يخطّط للمؤامرة . وكان من خيوطها أن يدخل شيوخ قلعة سكّر ، بعد الجلاء عنها ، على رأس أعوانهم البالغ عددهم اكثر من مئتي رجل ، بلدة شطرة بمظاهرة الغرض منها ، كما قيل ، ان يعبّروا عن ولائهم وإخلاصهم للنقيب البريطاني توماس . ولكن خيون لعبيد أخبر توماس أن مجيئهم انما هو خدعة وجزء من مؤامرة غايتها إثارة منطقة الغرّاف كلها ومن ثم الهجوم على الناصرية . ولو ان هذه الخطة التي دبّرتها النجف كانت قد نجحت لكان توجّب على الانكليز ان يرسلوا طابوراً من جنودهم من البصرة لاسترداد الناصرية ، بعد ان يكون قد قطع مسافة مئة واربعين ميلاً في صحراء مجدبة قاحلة لا ماء فيها . والتقرير الذي بعثت به ادارة لواء المنتفق في ذلك الحين يشيد بخدمات خيون ويقول : « مهما يكن شكل الحكومة العتيد لهذا البلد ، فان خدمات الشيخ خيون ينبغي ألاّ يُغفَل أمرها بل علينا ان نذكرها بالخير (١) » .

وفي هذه الاثناء طرَأ حادث كان يمكن ان يكون له أثر عميق في مجرى الحوادث وفي الوضع العام ، وهو وفاة المجتهد الأكبر مرزا محمد تقي الشيرازي الذي كان يقوم بدعاية ناشطة مركّزة في اللواء كله بواسطة مبعوثيه ودعاته . توفّي المجتهد الأكبر في ١٨ آب بعد فترة من المرض(٢) . وخلفه شيخ الشريعة كمجتهد أكبر ، ولكنه كان يقول باتباع سياسة أشدّ عنفاً ضدّ الانكليز . وقد أصدر بلاغاً وُزّع في جميع الألوية الشيعية في العراق (٣) .

وقد أرسل شيخ الشريعة ، المجتهد الاكبر ، رسلاً ودعاة جدداً أحسن نشاطاً وأشدّ اندفاعاً وتحمساً الى المنتفق لكي يحتلوا الناصرية وبذلك يضعون منطقة الفرات الاسفل كلّها تحت سيطرة النجف . وقد وصل مبعوثه الى شطرة حيث هبّ ألوف من الناس الى استقباله . وكانوا قد جاءوا خصيصاً الى شطرة للترحيب به ، وأقاموا له « هوسة » (٤). وفي تلك الليلة أطلق الأهلون اكثر من مئتي طلقة على العلم البريطاني المرفرف فوق بيت النقيب توماس ، فكان عليه ان يقوم بمغامرة جريئة ،

---

(١) op. cit, 20, I.O., L/PS/10,301, Intelligence Report by cox, no.2, appendix II,

(٢) F.O. 371/5077 (E 10326/2719/44).

(٣) تجد نص الرسائل التي تبودلت بين الحاكم المدني وشيخ الشريعة في الملحق الرقم ٨ .

(٤) الهوسة في لغة العراقيين تعني رقصة حرب يقوم بها الرجال ممسكين ببنادقهم مرددين بيتاً من الشعر العامي فيه حماسة وتفاخر . وقد كتب علي الخاقاني كتاباً ممتعاً عن الهوسات العراقية .

وذلك انه خرج من البيت واندفع نحو طائرة كانت بانتظاره واستقلّها ونجا بنفسه(١) . وقد كَثُرَ عدد الذين فرّوا من الشرطة وأصبح أمراً مألوفاً ، وذلك انهم عند المِحكّ آثروا أن يُولوا ولاءهم الى مبعوث النجف . وإلى قادة القبائل وزعمائها . وفي بلدة السماوة ارتأى الانكليز أن يقوموا بعمل حربي ضدّ البلدة من الجوّ ، فقاموا بقصفها بالقنابل مرّات عديدة(٢) . وأُنيطت بفرق انقاذ عديدة مهمة إنقاذ السفينة البحرية « كرينفلاي » (Greenfly) ولكنها أخفقتْ كلها في تنفيذ المهمة . وكان ملاّحو السفينة قد لجأوا الى حجرة صغيرة ضيقة ليتّقوا لهيب صيف العراق ، ولم يكن لهم من الماء سوى ماء النهر الكدر . وانقطعت عنهم أخبار العالم الخارجي فلم يكونوا يعلمون ما يجري خارج السفينة المحاصرة ، هذا الى جانب تعرّضهم لقبيلة جويبير التي كانت تمطرهم وابلاً من النار لا ينقطع . ولم ينجُ أحدٌ منهم بل لاقوا حتفهم جميعاً . وكانت كارثة السفينة كرينفلاي بمثابة كارثة نزلت بسمعة الانكليز في لواء المنتفق . وأسر رجال القبائل سفينة حربية أخرى بمَن عليها من ملاّحين واسم السفينة(S.9) .

إن خسارة الانكليز في الخضر وفقدانها مع قطارين مُصفّحَيْن في ١٣ آب ، وعزْل بلدة السماوة في اليوم ذاته ، وفقدان الانكليز عدداً من سفنهم الحربية في الفرات الأعلى في ١٥ آب . والجلاء عن شطرة في ٢٠ آب ، والاستيلاء على السفينتَيْن الحربيتين كرينفلاي والاخرى . والجلاء عن بلدة سوق الشيوخ في اليوم الاول من أيلول . وإبادة قوة بريطانية في أثناء محاولتها انقاذ معسكر السكة الحديدية في السماوة اليوم الثالث من شهر أيلول . وغيرها من الانتصارات الثانوية التي أحرزتْها القبائل . جعلتهم يتيقّنون من ان ثورتهم التي قاموا بها في لواء المنتفق تكلّلت بالنصر والنجاح .

حتى الثاني عشر من شهر آب لم تكن الثورة قد نشبت بعد في المنطقة الواقعة بين بغداد والرمادي ، أو في منطقة الفرات الاعلى حول الفلوجة في لواء الدليم . فقد ظلّ الشيخ علي السليمان من الدليم والشيخ فهد بن هذّال ، وكلاهما من زعماء القبائل السنية . دوماً مواليَيْن مخلصَين للانكليز ومن حلفائهم ، وطالما بقي هذان الزعيمان مُسيطرَيْن على قبائل الدليم فانه لم يكن يتوقّع نشوب اضطرابات في هذا اللواء . غير ان قبيلة واحدة في لواء الدليم كانت مصدر متاعب يمكن وقوعها

(١) C.O. 696, vol. 3, *Administrative Report*, *Muntafiq*, 1920, op. cit, 13

(٢) Op. cit., 16

ضدّ الانكليز ، وهي قبيلة الزوبة وزعيمها الشيخ ضاري المحمود الذي اغتال الكولونيل ليشمان(١) (Leachman) الحاكم السياسي في ذلك اللواء في ١٢ آب . كان اغتيال ليشمان ضربة قاصمة حلّت بالادارة المدنيّة في لواء الدليم ، ومنذ ذلك الوقت نشطت المنطقة الى القيام بأعمال عدائية ضد الانكليز لأنّ الجوّ كان مؤاتياً لمثل تلك الاعمال . وأصبح الحديث عن اغتيال ليشمان في خان نقطة(٢) موضع تندُّر وقيلٍ وقال بين رجال القبائل حتى وفاة ضاري — الذي اغتاله — سنة ١٩٢٨ . ويبدو انّ ليشمان كان يشك في ولاء قبيلة زوبة (الزوبع) واخلاصها للادارة المدنية . والواقع انه كان هناك من الدلائل على عدم اخلاصها ما يبرّر ما داخله من شكٍّ في أمرهم . ذلك بأن قبيلة الزوبع كانت قبيلة تميل الى الشيعة ، ومن المرجّح انها كانت ، في تلك الفترة ، قد اتّصلت بالنجف مركز التحريض السياسي في منطقة الفرات الاوسط . ومهما يكن من أمر فانّ ليشمان ، رغبةً منه في امتحان اخلاص ضاري وولائه ، بعث اليه برسالة يطلب فيها اليه ان يوافيه الى خان نقطة في ١٢ آب . وكان ليشمان ، قبل لقائه مع الشيخ ضاري ، قد استحصل على تفويض من الحاكم المدني يستطيع بموجبه إعفاء ضاري من دفع سلفة كان قد استلفها لشراء البذار في السنة السابقة وتأخر عن الدفع(٣) . وقرب الظهرّ التقى ليشمان بضاري

---

(١) وهو Lieut-Col. Gerad E. Leachman, C.I.E.S.S.O. Royal Sussex Ryt وقد دفن في الفلوجة في معسكر هناك . وكان قد قدم العراق لاول مرة سنة ١٩٠٨ . كما انه شهد معركة الشعيبة ، ورافق الطابور السادس الى كوت العمارة . وكان الحاكم السياسي في منطقة دجلة في اثناء سنة ١٩١٥ . وشهد احتلال العمارة والكوت ومعركة المدائن (Ctesiphon) . وعاد الى الكوت مع جيش تونزند ولكنه غادرها مع الخيالة قبل دخول رجال القبائل اليها بساعات قليلة . وظل في منطقة دجلة في اثناء فترة الترميم ومن ثم تقدم بجيشه وشهد احتلال بغداد سنة ١٩١٧ . وبعد زيارة قصيرة قام بها الى مصر وفلسطين والحجاز في اثناء سنة ١٩١٧ عاد الى العراق ليتولى حاكمية لواء الدليم شهد في اثنائها الاستيلاء على الرمادي وهيت وعانة . وفي شهر ايلول سنة ١٩١٨ عندما بدأت الاعمال العسكرية ثانية في منطقة دجلة ألحق بالفيلق الاول بصفة ضابط ارتباط سياسي ولعب دوراً بارزاً في العمليات العسكرية التي أدت الى استسلام الاتراك في قلعة الشرقاط واكتسبه مدالية استحقاق لأعماله المجيدة في الميدان . وشهد استسلام لواء الموصل والاستيلاء عليه وتولى حاكميته الى ان أصيب بمرض ارغمه على ان يطلب رخصة العودة الى بريطانيا . وعندما عاد الى العراق تولى حاكمية لواء الدليم وظل في منصبه هذا حتى زمن اغتياله .

(٢) وقد تغير الاسم الى خان ضاري تكريماً له لاغتياله ليشمان . ويقع هذا الخان بين بغداد والفلوجة على مسافة ٢٣ ميلا من بغداد وعشرين ميلا من الفلوجة .

(٣) Wilson, op. cit. 292.

الذي كان قد وصل الخان في ساعة مبكّرة . وجرى الحديث بينهما حول الغلال والدخل . وفي اثناء الحديث وصلت جماعة من العرب تقول إنّها أوقفت على مسافة ميلين من الخان وسُلبت . فأرسل ليشمان على الفور ضابطاً ومعه عشرة رجال ، كما انه أرسل خمسة من رجال قبيلة زوبع ليلقوا القبض على اللصوص(١) . ويُظن ان ليشمان اتّهم الشيخ ضاري بالحادث ، وانه أسمعه كلاماً خشناً قاسياً ، وأنذره بأنه اذا كان لايستطيع ان يحافظ على النظام والقانون في منطقته فان الإدارة المدنية سوف تقاضيه على دفع السلفة المستحقة عليه ، كما ان السلطة المدنية ايضاً لن تعتبر الشيخ ضاري بعد شيخ قبيلة زوبع الاوّل(٢) . كان الشيخ ضاري شيخ قبيلة شديد الإباء ، معتداً بنفسه كثيراً وصاحب دهاء وحيلة . ولكنه ضبط أعصابه وتماسك واستأذن بالخروج . ثم انه استشار رجاله في الأمر ، وبعد ساعات من المداولة قرّ قرارهم أن الوقت مؤات لقتل ليشمان وإعلان الثورة في لواء الدليم . ثم إن الشيخ ضاري عاد مع رجاله الى الخان وطلب الى الحراس أن يأذنوا له بالدخول لأنه يريد التحدّث الى ليشمان . فصدرت الأوامر اليهم بأن يسمحوا له بالدخول . وعندما دخل الشيخ ضاري وابنه سليمان أطلق الأخير رصاص مسدسه على ليشمان وجرحه عندها استل الشيخ ضاري سيفه وأجهز عليه(٣) . وكان مقتل ليشمان إيذاناً بقيام الثورة في لواء الدليم .

اما أنا فأرى ان لشمان لم يعالج الحادث بحكمة . فان المعاملة الفظّة التي عامل بها ليشمان الشيخ ضاري في حضور رجاله كانت اهانة أثارت ما في نفسه من عزّة وإباء ، ولو انه كان وحده في المقابلة لكان في الأمكان ان يتجالد وان يكظم غيظه ، ولكن امام رجاله — الذين هم ايضاً شعروا بالأهانة — كان الأمر اشدّ ايلاماً في نفسه . في تلك الفترة سادت الفوضى الشاملة جميع انحاء الفرات الاوسط والاسفل ، كما ان الثورة التي قامت بها القبائل اثبتت ان الأدارة الحكومية البريطانية اذا ما تعرّضت للضغط فانها لا تستطيع الصمود . وقد تعرّض الوجود البريطاني كلّه للخطر الشديد في جميع المناطق التي ذكرناها آنفاً . غير ان الشيخ ضاري ورجاله كانوا قد ادركوا ان الظروف لم تصبح بعد مؤاتية لنشوب الثورة العامّة في لوائهم . وكان السيد محمد الصدر ، مبعوث المجتهد الاكبر في لواءيْ الدليم وسامراء يقوم بنشاط كبير بين رجال قبيلة الزوبع ، قبيلة الشيخ ضاري ، ولم تكن جهوده المبذولة بدون جدوى ، بل كان

(١) Haldane, op. cit., 171.

(٢) الحسني ، المصدر ذاته ، ص ١٠٩ .

(٣) Haldane, op. cit. 171.

الأمر على نقيض هذا (١) . وكان الوعيد والتهديد اللذان يوجههما ليشمان الى رجال القبيلة ، والمعاملة الخشنة الفظّة التي عامل بها الشيخ ضاري ، هذه وغيرها أثارت الحقد في نفوسهم بحيث مقتوه ولم يعودوا يستطيعون تحمل خشونته وسوء معاملته . ولسبب من الأسباب كان بعض الكتّاب البريطانيين يعتبرون ليشمان رجلاً حسن المعرفة بالعرب لذا فانه الرجل الذي يستطيع ان يضبط امورهم ويدير شؤونهم اذا اقتضت الحال . وقد يكون السبب في تقدير كفاءته هو ما احرزه من نجاح في لواء الدليم عندما كان الضابط السياسي هناك . ومهما يكن من امر ينبغي لنا ان نذكر ان ليشمان لم يكن مستقلاً ودون ان يكون لديه فلس واحد ينفقه على رشوة قبائل الفرات الاعلى في تلك الفترة المشحونة بالقلاقل والاضطرابات ، وفي وقت انسحبت فيه الجيوش ؛ كما ذكر ارنست ماين (Main) في كتابه « العراق : من الانتداب الى الاستقلال » ص ٧٥ . فان الأعانات المالية التي كانت تعطى للشيوخ والمبالغ المخصّصة للتحرّي في لواء الدليم حيث كان ليشمان الضابط السياسي ارتفعت من ٥٠ الف شلينغاً اي ٣٧٥٠ ليرة استرلينية في سنة ١٩١٩ (كما ورد في تقديرات الموازنة لسنة ١٩١٩ – ١٩٢٠ ، ص ١٠) الى ٢١ الف استرلينية في سنة ١٩٢٠ (كما ورد في تقديرات الموازنة لسنة ١٩٢٠ – ١٩٢١ ص ٢١) . واما السبب الآخر في نجاح ليشمان الجزئي في لواء الدليم فهو ان غالبية سكان هذا اللواء من السنّة ولا سيما قبيلة عنزة اتباع الشيخ فهد بن هذّال الذي كان حليفاً مخلصاً وفياً للانكليز في العراق . اما الاضطرابات التي وقعت في اواسط منطقة الفرات الاسفل فقد كانت النجف وعلماؤها من الشيعة يرعونها ويديرون شؤونها ، طالبين إقامة حكم دينيّ يقوم على مبدأ من مبادىء الشيعة الأساسية : الأمامية ، اي حكم الأمام . ولان الشيعة تأخذ بمبدأ الحكم الدينيّ ، حكم الأمام ، فان قسماً كبيراً من السنّة في العراق لم يستطيعوا ان يتخطّوا الاعتبارات الطائفية . فكانوا يشكون في نوايا الشيعة وفي الثورة التي قاموا بها ، وكانت من وحيهم .

بعد مقتل ليشمان أصبح من اليسير على مبعوث النجف ، السيد محمد صدر الدين ، ان يثير الاضطرابات والقلاقل في لواء سامراء . فقد أفلح صدر الدين في إقناع الشيخ حبيب الخيزران ، شيخ قبيلة عزة ، ان ايام الانكليز في العراق قد اصبحت معدودة ، ولكي نعجّل في تقصير هذه الأيام علينا ان نحاربهم لنحملهم على مغادرة البلاد . وبعد ايام من المداولات والمناقشات أقسم الشيخ حبيب الخيزران بالقرآن الكريم انه سيُخلص في الولاء لمبعوث النجف والتعاون معه . ونجاح صدر الدين في استمالة

---

(١) F.O. 371/5081 (E 13338/2719/44).

الخيزران أضاف الى أتباع النجف الوفاً من المقاتلين . وراح الخيزران يُرسل مبعوثين من قبله الى مختلف انحاء اللواء يدعون القبائل والعشائر الى الانضمام الى مبعوث النجف والتعاون المخلص معه . وهكذا شكّل الخيزران وفداً يتألف من اعيان قبيلة عزّة وقبيلة البوعلقة وحمّلهم قرآناً شريفاً ووجّههم الى قبيلة البوحيّازة ليقسموا عليه يمين الولاء والاخلاص لمبعوث النجف . الشيخ صدر الدين . وكانت مهمة هذا الوفد ان يُقدّر الرجال المدربين الكاملي السلاح في القبيلة في هذا اللواء . وقد لخّص الشيخ صدر الدين اهداف الاعمال الحربية التي سيقومون بها ضد الانكليز في لواء سامرّاء :

اولاً : إقامة حكومة عربية في سامراء تتشكّل من الشيوخ والأعيان في اللواء ويتولّون ادارة شؤونها .

ثانياً : وجوب تسليم جميع الموظفين السياسيين والمدنيين الى الثوار في دالي عباس كي يُبعث بهم الى النجف .

ثالثاً . جميع ممتلكات الدولة في سامراء يجب ان تنتقل الى ايدي الثُوّار (١) .

غير ان الرائد بري (E. S. Berry) ، الذي كان الضابط السياسي في سامراء رفض شروط الشيخ صدر الدين ، وراح ينظّم اجهزة الدفاع في المدينة واضعاً ايّاها في حالة من التأهب . وبدأت القبائل اعمالها الحربية ضد الانكليز بعمليات تخريبية في خطوط مواصلاتهم . فقطعوا خطّ القطار الحديدي بين سامراء وبلد في نقاط معيّنة ، كما انهم قطعوا اسلاك البرق على مسافة اميال . وهدّموا جسراً على قناة دجيل . وكانت المنطقة الى شمال سامراء منطقة ذات اهمية عظمى بسبب مرور خطّ الموصل بها ، وبسبب خطّ ثانوي للمواصلات مع كركوك .

واستجاب اهالي بلد — وهي بلدة في لواء سامراء — لمطالب صدر الدين تقديم الحبوب والأطعمة المختلفة ، كما ان عدداً من رجال البلدة انضمّوا الى صفوف المحاربين من الثوار . وفي ٢٨ آب قام الثوار بزعامة صدر الدين بمهاجمة مبنى القيادة العامة للواء سامراء القائم في مدينة سامراء ولكنّهم اخفقوا في الاستيلاء عليه . وفي منتصف شهر ايلول اعيد النظام والقانون في اللواء الى سابق عهده . وسامراء بلد يتّؤمه الحجاج من الشيعة لزيارة المقامات فيها . على الرغم من ان غالبية سكان المدينة من السنّة . اما مدينة سامرّاء ففيها اربعة مساجد اهمها مقاماً ورفعةً جامع الأمام العسكري حيث دفن اثنان من احفاد النبي ، علي الهادي بن محمد الجواد والحسن العسكري بن علي الهادي . ويضم المرقد أيضاً حليمة اخت علي الهادي ونرجس زوجة الأمام الحسن العسكري وفي عهد الخلافة كان هناك سرداب شُيّد في مكانه الجامع .

(١) C.O. 696, vol. 3, **Administrative Report of The Samarra' Division, 1920, 2.**

وكان الخليفة القائم آنذاك قد ارسل جنوده لألقاء القبض على محمد المهدي ، وهو بعدُ صبي في الثامنة من عمره ، الذي ، كما زعموا ، لجأ الى السرداب للاختباء فيه . فدخل جنود الخليفة الى لسرداب تفتيشاً عنه وفجأة تسرّب الى السرداب ماء بئر هناك فهرع الجنود الى الخروج منه قبل غرقهم في السرداب . وفي اليوم التالي ، عندما حاول الجنود ثانيةً التفتيش عن الصبي ، لم يعثروا على اي اثر له هناك . اما الشيعة فيقولون انه مات بينما تعتقد الشيعة انه غاب وسيعودُ يوماً ليملأ الارض قسطاً وعدلاً بعد ان ملئت جوراً وظلماً .

في الخامس من آب ارسل وزير خارجية بريطانيا برقية الى ولسن يطلب فيها موافاته بالأسباب والاهداف الحقيقية للثورة في العراق وان يبعث بجوابه برقياً . وكان تعليل ولسن للأسباب في بادىء الأمر تعليلاً غامضاً يُقصَد منه المراوغة والتملص من الأجابة . وفي نظر ولسن ان وراء الثورة دوافع وتدخلات اجنبية . وهي الاسباب الحقيقية لنشوبها . فقد كانت سوريا تقوم بدعاية على نطاق واسع في العراق ، وكذلك تركيا ، أضف الى هذا تدفق الاموال على العراق دعماً لتلك الدعاية (١) . وفي نظر ولسن ان فكرة القيام بثورة فكرة غريبة عن اذهان عامة الناس في العراق (٢) . وبعد اسبوع ، في الثاني عشر من شهر آب بعث ولسن ببرقية اخرى يعتبرها مؤلّف هذا الكتاب اقرب الى المعقول لانها تلامس الحقيقة الأساسية لنشوب الثورة ، وهي ان الأسباب الكامنة وراء نشوب الثورة فقدان لادارة المدنية تلك الشعبية التي كانت الادارة البريطانية قد اكتسبتها في مطلع الاحتلال . وقد أقرَّ بذنبه وقصوره « في استعجال الأمور في القضايا الادارية التي حدّت من حرية القبائل وتقاليدها (٣) » . ولكن على الرغم من اقراره هذا فانه ظلّ يعتقد ان المسؤولية تقع مناصفة بين الادارة من جهة ، وبين الشيوخ وزعماء القبائل من جهة اخرى . وهنا يبدو ولسن غير راض عن السياسة المتبعة في معالجة امور القبائل التي كان يدافع عنها كلٌ من كوكس(Cox) ودوبس (Dobbs) والتي لم تكن ، في الواقع ، سوى تعديل للنظام الذي وضَعَه وطبّقه بنجاح السير روبرت ساندمان (Sandeman) في بلوجستان . وسأعود الى معالجة هذا النظام في سياق البحث . ولكن ولسن ، على الرغم من هذا كله ، فانه في برقيته الثانية الى وزارة الخارجية تحاشى ، او انه اغفل ذكر النقاط المهمة التي كانت سبباً من اسباب فقدان الادارة تلك الشعبية التي تمتّعت بها في مطلع لاحتلال . غير

(١) Wilson, op. cit. 310.

(٢) المصدر ذاته .

(٣) Wilson, op. cit. 311.

ان تشرشل لم يكن ميّالاً الى الأخذ بالنظرية القائلة ان وراء هذه الثورة العراقية كان التدخل التركي ومحاولة الاتراك إثارة الشعب العراقي . وقد رفض ان يأخذ بالحسبان ان الاتراك يتدخلون في شؤون العراق في صورة رسمية او انهم يثيرون الأهالي. ولكنه اشار الى ان هناك فلولاً قليلة العدد من الجيش التركي تساعد العرب (١) . اما هوغارث (Hogarth) فيعتقد ان الثورة القبائلية التي نشبت سنة ١٩٢٠ لم تكن سوى ثورة شيعية نظّمتها ودبّرتها النجف وكربلاء (٢) .

ان الأسباب التي ادّت الى ثورة ١٩٢٠ كانت متعدّدة ، وكانت في معظمها تعود الى السياسة العامة التي اتبعتها الادارة المدنية . وما لا شك فيه ان تدخلاً اجنبياً غير رسمي ، ومعونات مالية وَجدت سبيلها الى النجف وكربلاء ، ولكن الحقيقة الثابتة هي ان بذور النقمة ، واسبابَ الاضطرابات ، كانت قائمة في البلاد ، سَواء أكان هناك تدخلٌ اجنبي او تحريض من الخارج ام لم يكن ، وسواء أكانت هناك اموال تتدفق على المدينتين ام لم تكن . وعندما اشير الى التدخل او التحريض الاجنبي ، فلست اعني المانيا وتركيا فقط ، بل الولايات المتحدة ايضاً . فان قنصل الولايات المتحدة ، وعدداً من الاميركيين الذين كانوا يقيمون بالعراق في تلك الفترة ، كانوا ينقلون الى الوطنيين من العراقيين ، وبتفصيل واسهاب ، كل ما كانت تقوله الصحافة البريطانية او تذكره من امور لم تكن في مصلحة السياسة الامبريالية التي كانت تتبعها حكومة جلالته (٣) . ولو ان اهل العراق ، او لو ان غالبيتهم كانت راضية عن الادارة المدنية البريطانية لما كان فُسح في المجال للمؤامرات الاجنبية لأن تعمل عملها في البلاد ولما ثار الناس على جيش الاحتلال . وكان السيد كنهان كورنوالس (Cornwallis) ، المستشار الانكيزي لدى فيصل ، يعتقد ان الاسباب كانت كامنةً في البلاد في جميع الاوقات ، وان الثورة جاءت نتيجة مباشرة لسياسة الانكليز في العراق ، ولكن الاسراع في قيامها وفي عنفها وحدّتها كان لمجرّد اتحاد القوى الخفية التي كانت تعمل على القضاء على الامبراطورية البريطانية مع القوى الناقمة في العراق (٤) . اما الرائد براي (Bray) ، ضابط الاستخبارات الخاص ، والملحق بالدائرة السياسية في مكتب الهند ، فقد كان يرى غير هذا الرأي . كان يرى ان السياسة البريطانية في العراق كانت احد العوامل التي ادّت الى قيام الاضطرابات

(١) Debates, H.C., 27.7 1920, vol 132, p. 1190.

(٢) See private papers of D.G. Hogarth, a manuscript of Talk (1920) on *The Arab Situation* 1920. D.S. 77.1 (DR 588.25), M.E.C. oxford.

(٣) J.O. 371/5228 (E9849 /2719/44).

(٤) F.O. 371/5230 (E 12339/2719/44).

لا العامل او السبب الرئيسي لها . فانه كان على يقين ، بما كان لديه من دلائل واضحة ، من ان سبب الاضطرابات يعود الى عوامل خارج العراق (١) . فان الحكومة العربية في دمشق والحكومة التركية في استانبول كانتا تتطلّعان بشوق الى رؤية الانكليز يصارعون الغرَق في رمال العراق المتحركة. غير ان الانكليز كان في مقدورهم ان يتجنّبوا كثيراً من الخسائر التي مُنوا بها لو ان الادارة المدنية كانت قد اتخذت بعض التدابير الاحتياطية في مطلع سنة ١٩١٩ . وكانت الخلافات الشخصية التي قامت بين السير أيلمر هلداين ، القائد العام لقوات الجيش ، وبين ارنولد ولسن الحاكم المدني في العراق تخلق جواً من عدم التعاون بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية. وجعلت البريطانيين يظهرون بمظهر الضعف والعجز ازاء اعدائهم . لقد وقعت السياسة البريطانية في الشرق الأدنى ، في الفترة الواقعة بين ١٩١٦–١٩٢٠ تحت تأثير شخصيتين بريطانيتين – ولا اقول تحكّمتا فيها – وهما ، في الجانب السوري، الكولونيل لورنس الذي كان يشجّع العرب هناك في تطلعاتهم القومية وأمانيهم في الاستقلال ولكنّ دوافعه كانت عداءه للفرنسيين . واما في الجانب العراقي فقد كانت الشخصية الثانية السير ارنولد ولسن الذي كان يعمل على خنق تلك الأماني العربية وقتل التطلعات القومية. ولم يكن ولسن يخفي نواياه كما انه لم يحاول اخفاء الدواعي الى عمله السياسي هذا . وكان من الجليّ الواضح ان الأمر الحيوي بالنسبة الى حكومة جلالته هو اقرار سياسة موحّدة . أما بالنسبة الى المؤلف فان اسباب الثورة الأساسية فهي ما يلي :

اولاً : كان اصرار الادارة البريطانية على تحصيل الضرائب المفروضة على كلّ محصول زراعي ، وعلى كل محصول بستان تحصيلاً كاملاً أمراً مكروهاً لدى الفقير والغني على السواء . حتى ان القبائل ، كقبيلة بني حشيم من لواء المنتفق مثلاً ، وجدت نفسها سنة ١٩١٩ مرغمة على دفع ضرائب فادحة وذلك لأول مرّة في تاريخها(٢) . وكان تحصيل مصلحة الواردات ، في تلك السنة نفسها ، في لواء المنتفق . أعلى تحصيل في الفترة الواقعة بين ١٩١٦ - ١٩٢٨ . وإليك ثبتاً بواردات المنتفق من سنة ١٩١٦ – ١٩٢٨ :

١٩١٦	–	٥٢,٤٦٤	جنيهاً .
١٩١٩	–	١,٦٦١,٨٢٣	جنيهاً .
١٩٢٢	–		
١٩٢٦	–	١,٠٠٢,٦٥٩	جنيهاً .

(١) المصدر ذاته .

(٢) C.O. 696, vol. 2, Administration Report, Diwaniyyah Division, 1919, I.

١٩٢٨ — ١,٢٧٧,٢٣٣ جنيهاً . (١)

ففي لواء المنتفق ، مثلاً ، ارتفعت ضريبة الدخل على كل فرد من أقل من خمس روبيات في سنة ١٩١٦ الى خمسة شلنات في سنة ١٩١٩. وبعد اضطرابات سنة ١٩٢٠ عادت وانخفضت ثانية سنة ١٩٢٢ الى شلن . ولم تكن القبائل التي تؤدي مثل هذه الضرائب على الدخل ترى اي نفع او فائدة تعود على منطقتهم توازي ما كانوا يدفعونه من ضرائب . وكانت المبالغ المحصلة من لواء المنتفق والديوانية والشامية ، وهي ثلاثة الوية شيعية ، في سنة ١٩٢٠ تُقدر بـ ٥٥٣٣١٠٠ شلن او قرابة ربع مجموع الدخل من الألوية العراقية وعددها أربعة عشر لواءً (تقديرات الموازنة ، ١٩٢٠–٢١ ص ٤) . وكانت المبالغ المخصصة في الألوية الثلاثة ١٩٢٩٤٤٠ شلناً (المصدر ذاته ص ٥) .

ثانياً : كانت السياسة القبلية التي تبنتها الادارة البريطانية في العراق سبباً آخر رئيسياً لنشوب الاضطرابات . ففي مناطق عديدة كانت عداوة شيوخ القبائل الثائرة موجهة في الدرجة الأولى ضد موظفي الحكومة الذين كانوا بمثابة شيوخ أسمى سلطة من شيوخ القبائل . والواقع ان عداوة شيوخ القبائل في اضطرابات سنة ١٩٢٠ لم تكن موجهة ضد الانكليز بقدر ما كانت موجهة ضد الذين نصبوا انفسهم شيوخاً في الوظائف الحكومية(٢) . كانت الادارة البريطانية ، كما كان رجال القبائل العاديون ، ينظرون الى أولئك الشيوخ السامون كأداة حكومية . ولكن الحوادث برهنت في ما بعد ان اولئك الشيوخ الذين كانت ترضى عنهم الادارة البريطانية وتعضدهم أساؤوا استعمال السلطة التي أعطيت لهم لمنافعهم ومصالحهم الشخصية . وكان مصدر تلك المنافع المادية التي حصلوا عليها النظامَ البريطانيَ المتبعَ في تحصيل ضرائب الدخل . وكان النظام السائد في التخمين ينطوي أولاً على إحصاء النفوس في القبيلة ثم إلقاء مسؤولية التحصيل على الشيوخ — وهذا يتفق مع المبدأ السياسي المتبع في جعل شيخ القبيلة بمثابة حاكم للقبيلة في مقابل نسبة مئوية تعطى لهم مكافأة على أتعابهم . أما شيوخ الحكومة ، ويُعرفون في العراق بالسركال ، فكانوا يعتبرون حجر عثرة في سبيل الشيوخ الثانويين وشيوخ العشائر

---

(١) C.O. 696, vol 3 *Administration Repport*. muntafiq, 1921, 31, Report of the Accountant, 1922-23 (Baghdad, 1924), 11-12., report on the operations of The Revenue Department, Ministry of Finance, 1926-27, 23; Ibid., 1928-29,32.

(٢) C.O. 696, vol, 3, Shelswell, G.H. A.p.O., Samawah: *Official Report on the Causes of the Tribal Disturbances in the Samawah District, August 9th*, 1920.

الذين كانوا يجدون في القومية الجديدة السبيل الوحيد للتخلص من سلطة الحكومة وسراكلتها .

ثالثاً . بعد التوقيع على الهدنة فسح في المجال في الدائرة السياسية في الادارة البريطانية لتوظيف عدد من الضباط الانكليز الذين لم يكن في الامكان الاستغناء عن خدماتهم العسكرية في إبّان العمليات الحربية . وقد وصف لونغرغ هؤلاء الموظفين الجدد من الضبّاط القدماء بقوله إنهم كانوا اداريين من الهواة العابثين(١) . لم يكن لدى هذه الفئة من الموظفين العسكريين الجدد ي ختبار في ادارة الشؤون التي انيطت بهم ، ولا نستثني أحداً منهم . وكانت تنقصهم معرفة طبيعة أهل العراق ، الشعب الذي كانت هذه الفئة تحكمه وتصرّف شؤونه . كما انه كان على هذه الفئة أن تتعلّم يوماً بعد يوم أبسط الأمور الضرورية لتصريف أمور الحكم بيُسر ورفق . وقد وزع هؤلاء الموظفون العسكريون على الاقضية مثل سطرة وقلعة سكر والديوانية وعفَج ، بينما كان تولّي اسلطة الادارية في المراكز في يد موظفين تابعين لمجلس الخدمة المدنية في حكومة الهند . ومن هنا يتضح لنا ان التعليمات الادارية التي كانت تصدُر عن المراكز الادارية في العر ق كانت تقوم في الدرجة الأولى على اختبارات سابقة اكتسبها الموظفون من عملهم في الهند . فكانت النتيجة نشوء نظام إداري في العراق صارم جداً . ولم يقتصر الأمر عى أن الناس في العراق لم يعتادوا مثل هذا النظام القاسي ، بل انهم لم يكونوا مهيّئين لتقبله . وكان موقف الموظّفين الإداريين الجدد موقف الغرّ الشديد العزيمة الشديد الغرور بنفوذ بريطانيا وعظمتها ، مما جعلهم يستخفون بالمحاذير والمخاطر التي كانت تكتنف البلاد في تلك الفترة من الزمن(٢). ولو انهم كانوا اكبر سناً وأحسن اختباراً في معاملتهم العرب على ما هم عليه من خلق وسجايا لكانوا أفلحوا في القيام بالمهمات المناطة بهم على أحسن صورة . وقد جاء في Monthly List of gazetted offices الجزء الاول (بغداد ١٩٢٠) ان ٩٦ في المئة من الضباط السياسيين في مختلف الأقضية لم يكونوا قد بلغوا بعدُ سن الأربعين ، وثلثيهم لم يكونوا قد بلغوا الثلاثين من العمر ، وثلاثة وعشرين في المئة منهم كانوا في سن الخامسة والعشرين او اقل من ذلك . ومن مجموع الموظفين الإداريين ٨٧,٥ في المئة كانوا دون الاربعين واثنان وأربعون في المئة منهم كانوا دون الثلاثين . وكان عمر نائب الحاكم المدني نفسه ٣٥ سنة . حتى ان هيوبرت يونغ (Young) كتب في مطلع سنة ١٩١٩ يقول إن حكومة العراق أكبر من أن يتولّى

(١) Longrigg, op. cit, 112.

(٢) Longrigg, op. cit., 102.

أمرها شاب كالزعيم ولسن . وراح يقدّم النصح لوزارة الخارجية لبريطانية قائلا انه كلما أسرعت وزارة الخارجية في إعادة السير كوكس (Cox) الى العراق كان ذلك أفضل للمجانسين(١) . ان الشيخوخة او التقدّم في السن عند العربي الأبي يعني غنىً في الاختبار ، وجلالاً في الوقار ، كما أنه يتضمّن معاني الرجولة وبدون الاختبار والوقار لا يستطيع مرؤ أن يُعنى بشؤون العرب من الناحيتين ، ناحية الطبع العربي وخلقه . وقد أخبرني أحد شيوخ الدوانية عن شعوره تجاه ولسن ، فقال بلهجته العراقية : « والله أو مر هالولد الاشقر الأملس حسّها مار بقلبي » .

رابعاً : ان أهمّ عامل من العوامل الشديدة الأثر التي أثارت الشعور القومي الوطني في نفوس العرب ، وبعثت في نفوسهم الآمال الحرة ، ما صرح به ، في أثناء الحرب ، سياسيو بريطانيا وحلفائها . فقد كان العراقيون يذكرون ما جاء في بلاغ الجنرال مود (Maude) من تعهد بتحرير العراق من كلّ سلطة أجنبية ، كما أنهم يذكرون خطاب لويد جورج الذي ألقاه في الخامس من شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٨ . ويتذكرون جيداً المبدأ الثاني عشر من مبادىء الرئيس الاميركي ولسن . وقبل كل شيء آخر يذكرون البلاغ البريطاني الفرنسي الصادر في الثامن من شهر تشرين الثاني ، سنة ١٩١٨ . ان جميع هذه التصاريح التي صدرت في إبان الحرب أقنعت العراقيين بأن آمالهم وتطلعاتهم الوطنية ستتحقق على أيدي البريطانيين . ولكن في الثالث من شهر أيار ، ١٩٢٠ ، نُشر في جريدة Baghdad Times ان الانتداب على العراق وقع على بريطانيا ، النبأ الذي أثار خواطر العراقيين وألهب مشاعرهم . كما انه جاء برهاناً جديداً على ان بريطانيا لا تنوي القيام بتعهداتها السابقة ولا أن تفي بالوعود التي قطعتها على نفسها . وفي أعقاب نشر النبأ عن قبول بريطانيا مهمة الانتداب على العراق أخذت إمارات التقارُب الشيعي السني تظهر على المسرح السياسي . وكان حلول شهر رمضان من تلك السنة موافقاً للتاسع عشر من شهر أيار فاتخذ مجرى التقارب الشيعي السنيّ معنىً جديداً . وبدأ التعاون بين الفئتين يظهر للعيان جلياً واضحاً . فانّ ذكرى المولد النبوي تقع عادة في هذا الشهر ، ولوحظ ان الشيعة والسنة احتفلوا بذكرى العيد معاً في الجامع الكبير دلالةً على الوحدة بينهما . وكانت تُلقى الخطب السياسية والأشعار الوطنية الحماسية في أعقاب الصلاة وإقامة شعائر العيد . وجميعنا نعلم ما للكلمة ، نثراً وشعراً ، من أثر في تحريك عواطف العربي ومشاعره العميقة . وبدأت تقع مناوشات واصطدامات بين العامة والسلطة الحكومية . فرأت الحكومة نفسها مرغمةً على تسيير دوريات

---

(١) J.O. 371/4150 (44/134 386/144).

من المصفحات في شوارع المدن . وجاء إعلان قبول انكلترا مهمة الانتداب على العراق بمثابة زيت يصب على النار ليزيد في توتر الجو المضطرب في العراق .

خامساً : إن قيام الدولة العربية في سوريا جعل الوطنيين العراقيين يتطلعون الى جيرانهم السوريين كحماة لهم من الاحتلال البريطاني وحكمه . فقد وجهت رسائل التهنئة الى كل من الأميرين فيصل بمناسبة تتويجه ملكاً على سوريا ، وعبد الله بمناسبة انتخابه ملكاً على العراق . وفي الرسالة الموجهة الى الامير عبد الله ترحيب حار وتعهد بان يخلصوا له الولاء (١) . وقد وقع على الرسالة شيوخ منطقة الشامية والسماوة والرميثة وقبائل المنتفق واسيادها . كما وقع عليها أيضاً أعيان النجف والكوفة والحلة .

سادساً : في أثناء الاسبوع الثالث من شهر حزيران جرت سلسلة من الاعتقالات في كربلاء والحلة . وكان من جملة المعتقلين مرزا محمد رضا ابن المجتهد الاكبر محمد كاظم يزدي ، الأمر الذي زاد الجو المشحون التهاباً في منطقة الفرات الاوسط . وفي نظر ولسن كان لهذه الحملة من الاعتقالات أثر بعيد الغور في نفوس العراقيين . فقد خفت حدة الاضطرابات ، على حد قوله ، وعادت الثقة الى نفوس شيوخ القبائل وزعمائها ، وأخذت واردات الخزينة تصل في انتظام ، وعادت الامور الى سابق عهدها من الاستقرار والسلام في منطقة الفرات الاوسط (٢) . وبعد الاعتقالات تحسن الوضع في جميع المناطق الشيعية باستثناء النجف ، على زعم ولسن ، التي ينبغي معالجة الاوضاع فيها في وقت لاحق . ونفي جميع المعتقلين الى جزيرة مقفرة صخرية موحشة في الخليج الفارسي واسمها هنجام ، وهي تبعد كثيراً عن مضايق كلارنس . مناخها في الصيف مناخ لا يستطيع امرؤ تحمله وذلك لارتفاع الحرارة فيها ارتفاعاً كبيراً يزيدها سوءاً معدل الرطوبة العالي أضف الى هذا كثرة الذباب والحشرات المختلفة (٣) .

سابعاً : كانت الخلافات الشخصية القائمة بين ولسن وهلداين من أهم العوامل في قيام الاضطرابات . فقد كان ولسن على رأس الإدارة البريطانية المدنية ، وكان هلداين القائد العسكري العام . كان الرجلان على خلاف وتباين في الأطباع وفي وجهات النظر وفي السن (٤) . فقد كان هلداين في الثامنة والخمسين من عمره .

---

(١) راجع نص هذه الرسالة الموجهة الى الامير عبد الله في الملحق الرقم ٩ .

(٢) F.O. 371/5227 (E7725/2719/44).

(٣) نقلا عن « Gazetteer of the Persian Gulf » العدد ٦٢٩ .

(٤) Wilson, op. cit., 277.

وكانت خدماته السابقة ، في معظمها ، في الجيش البريطاني ، بينما كان تسعون في المئة من جيش الاحتلال في العراق من الجنود الهنود. وكان وضع الادارة وضعاً معقداً . كما ان الوضع السياسي كان وضعاً دقيقاً يتطلّب اختباراً خاصاً ومعرفة واسعة في شؤون العراق كي يستطيع الموظّف الاداري معالجتها . وقد كتب هلداين نفسه في مؤلّفه يقول : « في تلك الفترة (في شهر آذار ، ١٩٢٠) لم تكن لدي أي فكرة محدّدة عن النظام الذي بموجبه سنحكم العراق(١) » . وفي الواقع انه بعد مرور شهر على انزال الجيوش البريطانية اكتشف ان هناك ميناء على نهر عمر فوق البصرة حيث ، كما يقول هو نفسه ، « بُني رصيفان وثمانية عشر حاجزاً ومركزان او محطّتان للنقل لنهري(٢) » . كان الوضع العسكري الذي جابهه هلداين وضعاً عسيراً شاقاً . وكان عدد القوات في امرته ١٣٣ ألف رحل منهم ٤٧ ألفاً من الجنود المحاربة(٣) . وكان من الجنود المحاربة اربعة آلاف ومئتان من البريطانيين ، وثلاثون ألفاً من الهنود من مختلف الرتب . وكان على هلداين أن يحرس حوالي ١٤ ألف أسير تركي . كما كان في حملته هذه ٥٥٠ امرأة و ٤٠٠ طفل . أضف الى هذا مخيمات للاجئين في مدينة بعقوبة وفي غيرها تضم قرابة خمسين ألف لاجىء من الاشوريين والأرمن . وكان الجنود البريطانيون الذين يعملون في إمرته ، ومن دون استثناء ، لا يعرفون شيئاً عن العراق لانه بلد جديد لديهم ، كما انه كانت تعوزهم الخبرة العسكرية(٤) . وكانت خطوط المواصلات في العراق – وكانت صيانتها من الضروريات العسكرية المهمة – تبلغ قرابة الفي ميل . وعلى الرغم من جميع هذه المسؤوليات لم يكن هناك من أثر للثقة بين الجهات العسكرية البريطانية والجهات السياسية . فقد كان ولسن في أوائل شهر حزيران ، يرى أن الوضع قريب من الانفجار وألحّ على هلداين بأن يُسرع في طلب نجدات عسكرية . ولكن هلداين كان متفائلاً ، فعاد في ٢٤ حزيران ، راضياً عن نفسه ، الى كرند (Karind) حيث تمركزت القيادة العامة(٥) . وكانت الرسالة الجوابية التي بعث بها هلداين الى ولسن حول طلب المزيد من النجدات العسكرية تنم عن عدم ثقة العسكريين بالتقارير التي كان يرفعها الضباط لسياسيون والتي كانت تنبىء بخطورة الوضع

---

(١) Haldane, op. cit., 5

(٢) op. cit. , 8.

(٣) op. cit., 325.

(٤) Wilson, op. cit., 272.

(٥) op. cit., 276

في العراق(١) . وانعدام الثقة هذا ، وانعدام التعاون بين الجهات العسكرية والجهات البريطانية السياسية جعلا الانكليز يظهرون بمظهر الضعف ازاء اعدائهم . وهذا الضعف البادي على السياسة لبريطانية المشوشة يمكن اعتباره احد اسباب نشوب الثورة في سنة ١٩٢٠ . وكانت إصابات البريطانيين في هذه الاضطرابات من الأول من حزيران حتى الاول من شهر تشرين الاول ، ١٩٢٠ كما يلي :

– من صف الضباط البريطانيين : ٢٢ قتيلاً ، توفي من الجروح اثنان . عدد الجرحى ٣٦ ، مفقودون ٥

– من البريطانيين من مختلف الرتب : ٢٧ قتيلاً ، توفي من الجروح ٤ . عدد الجرحى ٤٣ ، المفقودون ١٣٨ ، توفي في الأسر اثنان .

– من الجنود الهنود : ٢٤٤ قتيلاً ، توفي من الجروح ١٠٠ ، عدد الجرحى ٩٩٦ ، والمفقودون ٣٠٢

– من الملحقين بالجيش الهندي : ١٢ قتيلاً ، توفي من الجروح ٣ ، عدد الجرحى ٤٤ ، المفقودون ٢٨

النجدات العسكرية التي لحقت بالجيوش البريطانية في العراق من الاول من شهر آب حتى ٢٦ تشرين الاول ، ١٩٢٠ :

٣ كتائب بريطانية من المشاة .

١٧ كتيبة هندية من المشاة .

بطارية واحدة من المدفعية الملكية .

فرقتان من الرشاشات .

كتيبة واحدة من الجيش الامبراطوري .

أضف الى هذا عدداً من العمال الاضافيين الملحقين بالجيش ، وعددهم ، عادةً ، يتناسب مع عدد الجنود(٢) .

ننتقل الآن بالقارىء الكريم الى الاجابة عن هذا السؤال : ماذا حققت الثورة في العراق ؟ اما بالنسبة الى البريطانيين فانهم نظروا اليها على انها كانت خروجاً على السلطة والقانون ، وانها كلفتهم ٤٢٦ قتيلاً من البريطانيين ، و ١٢٢٨ جريحاً ،

---

(١) للاطلاع على موقف القيادة العامة من الحكام البريطانيين السياسيين راجع : Haldane, op. cit. 92.

(٢) Debates, H.C. 26.10. 1920, vol. 133, P. 1561.

اما الأصابات التي وقعت في صفوف الجنود الوطنيين من العراق فقد بلغت قرابة ٨٢٠٠ . راجع : F.O. 371/5081 (E 14397/2719/44)

و ٦١٥ مفقوداً وأسيراً(١) ، هذا الى جانب النفقات المالية التي لم تقلّ عن ٤٠ مليوناً من الاسترليني ، وهذا المبلغ سُحب من الخزانة البريطانية(٢) . فكانت الثورة العراقية ، وما كلّفته من مال وخسارة في الارواح سبباً لدى عامة الشعب المنهوك القوى ولدى الصحافة في تجديد المطالبة الصاخبة التي كانت تنادي : « انسحبوا من العراق » . اما بالنسبة الى الموظفين البريطانيين ، وبالنسبة الى الموظفين الذين عملوا في الادارة المدنية فقد كانت هذه الثورة فاجعة قضت على كثير مما كانوا قد انجزوه من أعمال في العراق(٣) . ولكن بالنسبة الى العراقيين أنفسهم ، ولا سيما بالنسبة الى القبائل الشيعية في الفرات الاوسط والاسفل حيث وقعت معظم الاعمال العسكرية الحربية فان الثورة كانت « حرباً وطنية لنيل الاستقلال » تهدف الى ارغام الانكليز على اقامة حكومة وطنية ، وعلى منح الاستقلال للبلاد . ويشارك العراقيين في نظرتهم هذه الى الثورة كل من المؤرخ توينبي (Toynbee) وريتشارد كوك (Coke) (٤) . ومهما يكن من أمر فان اضطرابات سنة ١٩٢٠ لم تغيّر شيئاً في روح السياسة البريطانية العتيدة في العراق . غير انها أثرت في اسلوب التنفيذ . فانها جعلت العراقيين يدركون مبلغ القوّة في العمل الموحّد المركّز الذي لم تستطع حتى الحكومة البريطانية وما في متناولها من قوّة لا تُقهر ان تقف في وجهه . واظهرت الثورة ايضاً الضعف والانقسام الملازم لطبيعة الشعب العراقي نفسه . وأخيراً كشفت الثورة عن وجوه القادة والزعماء الذين قُيّض لهم ان يلعبوا دوراً بارزاً في الحركة الوطنية التي كانت تهدف الى نيل الاستقلال وعرّفتهم الى عامة الشعب العراقي . ولكن ينبغي لنا ألاّ ننسى ما احدثته الثورة من أضرار مادية فادحة في البلاد . والآن نتساءل : هل كانت ثورة ١٩٢٠ وما أحدثته من اضرار أمراً محتماً لا مناص منه ؟ وهل كان في إمكان الانكليز ان يتحاشوا ذلك الانفجار ؟ واترك الجواب عن هذا التساؤل الى ضابط سياسي بريطاني سابق في مدينة كركوك الذي قال : « لو انه كان هناك تصميم او تخطيط سابق لإقامة حكم ذاتي عراقي ، ولو انه جرى تنفيذ مثل هذا المخطط سنة ١٩١٩ ، ولو ان عمل اللجان اقتصر على الامور الحيوية الرئيسية ، ولو انه أُغفِلَ أمرُ احتجاجات ولسن وما كان يتذرّع به من اسباب ، ولو أن الحكومة البريطانية ابقت كوكس في منصبه

---

(١) London gazette op. cit. Appendix 4,5346

(٢) Longrigg, op. cit. 123

(٣) Wilson, op. cit. 302

(٤) Toynbee A.J. *Islamic World*, 53; Coke, R., *The Arab's place in the Sun*, 193.

في بغداد : اقول ، لو ان هذه الامور جميعها تمت لكُنّا قد تجنّبنا كثيراً من متاعبنا وخسائرنا ولما كُنّا خلّفنا وراءنا إرثاً من الكراهية والبغضاء» (١) .

(١) Longrigg, op. cit., 100.

معارضة الشيعة للحكومة الموقتة
تتويج فيصل ملكاً على عرش العراق

ان الوجود البريطاني في العراق والاحتفاظ بمركزهم في هذه البقعة عامل على غاية من الأهمية بالنسبة الى مصالحهم العامة في الشرق الاوسط وفي الهند. فان امكانات العراق الاقتصادية من ثروة نفطية ، ومن قطن وحبوب تجعل منه بلداً ذا مستقبل مُضمَّخ بالثروة الاقتصادية. فقد كانت التقديرات في ذلك ان العراق يستطيع انتاج مليوني بالة من القطن ومليون طن من القمح. اما النفط فقد كان في تلك الفترة كمية مجهولة ، ولكن التوقعات المحتملة كانت كافية لجذب رساميل الشركات الكبيرة ولاستمالة التوظيف في العراق. ومن الوجهة الستراتيجية كان احتلال بريطانيا للعراق والاحتفاظ به أمراً على غاية من الاهمية. فان العراق يقع على طريق الهند وعلى طريق الشرق الاقصى ولذا فان موقعه الجغرافي مهم بالنسبة الى الطيران والمواصلات البرقية ، وأقصر طريق للمواصلات بواسطة الخطوط الحديدية. وكان الانكليز في ما مضى من الزمن يفكرون في الاستيلاء على ميناء البصرة عند رأس الخليج الفارسي تدعيماً لقوتهم البحرية في تلك المنطقة. وميناء البصرة مهم لا سيما بالنسبة الى المصالح النفطية البريطانية في عبادان وفي عربستان. ولكن قيمة هذا الميناء تبطل كلياً اذا كانت بغداد في يد قوة معادية لبريطانيا. فمن وجهة سياسية نلاحظ ان السيطرة البريطانية على بغداد من شأنها أن تعزز مركزها ووضعها في المنطقة وان تُسهّل عليها امر تحقيق سياستها في ايران. ونحن اذا تذكرنا هذا الأمر يسهل علينا تعليل القلق الذي انتاب حكومة جلالته كما انه يسهل علينا ان ندرك حرص الحكومة البريطانية على تهدئة العراق ، وعلى اقامة حكومة وطنية تتستر وراءها ، حكومة تتعهد بالاعتراف بالمصالح البريطانية في العراق بموجب اتفاقية توقع عليها مع الجانب البريطاني.

في مطلع شهر تشرين الاول من سنة ١٩٢٠ انتهى عهد الحكومة العسكرية التي تشكلت في العراق منذ الاحتلال بوصول السير برسي كوكس الى البصرة. ولكن استمرت العمليات العسكرية في المناطق الواسعة في الفرات الاوسط والأسفل وأعلنت فيها الاحكام العرفية وذلك بسبب استمرار الاضطرابات التي كانت قد

وقعت في الصيف . وفي الواقع ان نصف القطر العراقي كان يعارض الحكم القائم عند مقدم كوكس وبطريقة ناشطة . فكان لزاماً على كوكس ، قبل اتخاذ أي اجراءات لإقامة حكومة موقتة ، ان يعمل على تهدئة الحالة في البلاد حيث كانت القبائل لا تزال في حالة من الثورة المسلّحة . كان مقدم السير برسي كوكس حديثَ الناس الرئيسي في اثناء الشهرين ، ايلول وتشرين الاول ، فكثرت التفسيرات وتنوّعت ، وزاد الحَدْس والتخمين . ولكن زعماء الشيعة مع اللجنة الجبدرية – وكانت تمثل السلطة الشيعية العليا – وعلى رأسها المجتهد الاكبر نفسه ، كانوا يقومون بدعاية ناشطة واسعة النطاق ضدّ المخاطر التي تنطوي عليها سمعة كوكس ونفوذه وكانت اللجنة تتألف من أبو قاسم الكاشاني وابو حسن الاصفهاني وميرزا عبد الحسن (ابن الشيرازي) وأحمد ملاّ كاظم الخراساني والسيد نور الياسري . وراحت اللجنة هذه تحذّر العراقيين من مغبة سياسة كوكس الماكرة ، وتطلب اليهم في إلحاح وإصرار ألاّ يسرعوا في إعطاء الوعود وقطع العهود على أنفسهم إلاّ بعد الروية والتفكير الرصين(١) . وكان الثوار يحتفظون بالاستيلاء على كربلاء والنجف وتويريج والرميثة وهيت وقسم كبير من وادي الفرات بما في ذلك الجزء الاوسط من السكة الحديدية (٢) . ولم يبق في يد السلطة المدنيّة سوى الناصرية في لواء المنتفق وكانت السماوة والكوفة لا تزالان محاصرتَيْن . ونُهبت مكاتب الحكومة في الحلّة وفي كربلاء وأُحرقت الملفات والوثائق الرسمية(٣) . ولكن إعادة القانون والنظام إلى سالف عهدهما تتطلّب بعض الزمن . واول منطقة استأثرت باهتمام كوكس كانت منطقة الفرات الاوسط مركز الاضطرابات والقلاقل ، لأنه كان يرى أنّ تهدئة الحالة في مناطق اخرى ، وإعادة النظام والاستقرار فيها الى ما كانا عليه ، أمرٌ يتوقّف على إعادة النظام اولاً في الفرات الاوسط . وكان المتكلّم باسم اللجنة الجبدرية ، السيد ابو قاسم الكاشاني ، قد أعلن ان اللجنة ترفض الصلح ، مهما يكن نوعه ، كما انها ترفض الهدنة مع جيش الاحتلال والادارة المدنية ، مشيراً الى ان أي تسوية سلمية من شأنها ان تمنح الانكليز الفُرص المناسبة لإعادة تنظيم انفسهم على اسس متينة من ذي قبل ، وان تضعهم في مركز القوة بحيث يُمْلون

(١) J.O. 371/5081 (E 13563/2719/44).

(٢) قدرت الخسارة التي لحقت بالسكة الحديدية ، وبالنقص في الدخل التجاري في اثناء اضطرابات سنة ١٩٢٠ بمبلغ ٤١٢,٥٠٠ استرلينية . راجع
C.O. 696, vol., 3, Administration Report, 1920-22,24.

(٣) C.O. 696, vol 3, Administration Report, Justice, 1920, 3-4.

شروطهم(١) . ولكن كربلاء استسلمت في ١٣ تشرين الاول ، والكوفة في ١٧ تشرين الاول ، وتبعتهما النجف تلقائياً بعد ذلك(٢) . واستُردّت بلدة السماوة في ١٢ تشرين الاول . اما الرميثة ، حيث وقع اول اصطدام فقد استعادها الجيش البريطاني بعد يومين من هذا التاريخ . وفي اواخر تشرين الثاني استسلمت جميع قبائل منطقة الشامية ، وكان من شروط الاستسلام تسليم الاسلحة والذخائر . واما زعماؤها فان بعضهم استسلم وفرّ الآخرون عبر الصحراء الى سوريا او الى الحجاز . وحتى منتصف شهر شباط كان الجيش البريطاني يعالج امر الاستسلام وتنفيذ الشروط التي كان قد فرضها على الأهلين . وكان تسليح القبائل تاماً كاملاً ، فلم يكن من الحكمة في شيء ان يترك امرُ حلّ هذه المشكلة (نزع السلاح) للحكومة العربية ، لأن ذلك معناه انها ستعجز عن توطيد الأمن والاستقرار الضروريين لاقامة ادارة حكومية فعّالة . حتى ان الغرامات التي كان الجيش البريطاني قد فرضها على رجال القبائل كان يُقصد بها ان تكون نوعاً من الضمانة لنجاح مشروع اقامة الحكومة العربية المقترَحة للمستقبل . (٣)

كانت تهدئة العراق امراً يتوقف نجاحه على نزع السلاح من ايدي رجال القبائل . ولكن نزع السلاح نزعاً تاماً لم يكن ميسوراً في تلك الفترة ولم يكن على شيء من الواقعية ، وذلك لاسباب عديدة . اولاً ، لانه لا يمكن نزع السلاح من ايدي رجال القبائل ، مع العلم ان بعضهم يطلب اليهم ان يودعوا اسلحتهم عندما يدخلون المُدن والحواضر . ثانياً ، لان القبائل الوادعة الآمنة التي تقيم مضاربها على حدود المناطق المتحضّرة لا يمكن نزع سلاحها نزعاً كاملاً الا بعد أن تتعهد لهم السلطة البريطانية بحمايتهم من الغزو الذي يتعرضون له ، ولم يكن الانكليز على استعداد لمثل هذا التعهد . ثالثاً ، لان حكومة جلالته كانت ترغب في خفض عدد جيوش الاحتلال فانه لم يكن من الميسور ان يقوم الجيش بعملية نزع السلاح نزعاً فعّالاً في جميع ارجاء العراق لان ذلك يقتضي مزيداً من الجنود . واخيراً لم يكن من المستطاع ، مادياً وعملياً ، نزع السلاح في بعض مناطق العراق مثل منطقة الاهوار حيث يستحيل على الجنود القيام بمهمتهم على أكمل وجه . وهذه الاسباب مجتمعة

---

(١) F.O. 371/5081 (E 13338/2719/44).

(٢) C.O. 696, vol, 3 Administration Report, 1st. october, 1920-31st march 1922,1.

(٣) كان مجموع ما سلم من الاسلحة والذخيرة حتى السادس والعشرين من تموز ، ١٩٢١ كما يلي : بنادق ٦٤,٤٣٠ منها ٢١,٠٠٠ بندقية عصرية . و ٣,١٨٥,٠٠٠ طلقة . راجع : Administration Report op. cit,1

قضت على كلّ تفكير في نزع السلاح بقوة الجيش. فاقترح السير برسي كوكس نزع السلاح تدريجاً . كما انه اقترح ان يتمّ نزع السلاح في المناطق التي يعمل فيها الجيش لقمع الاضطرابات ، وفي المناطق التي يقوم فيها الجيش بعمليات حربية فعلية . في هذه الظروف ينبغي فرّض تسليم الاسلحة ، اذا امكن ذلك ، كجزء من الغرامات وكشرط من شروط الاستسلام . اما في المناطق الاخرى فقد اقترح كوكس ان تقوم الادارة المدنية بجمع السلاح تدريجاً بحسب ما تنص القوانين المتعلقة بالاسلحة وبحسب ما نصّت بنود الاتفاقية المتعلقة بالاسلحة والملحقة بمعاهدة الصلح (١) .

كان لفشل الحركة الثورية في الفرات الاوسط اثر عميق في نفوس سكان لواء المنتفق الذي كان لواءً كثيف السكان وهم من الشيعة . وقد سادت اللواء حالة من التوازن والاستقرار بفضل تعاون شيخَيْن من شيوخ القبائل كانا يتمتّعان بنفوذ واسع . ولكن على الرغم من هذا فان اضطرابات متفرّقة كانت تقع هنا وهناك وذلك بسبب الجهود المبذولة التي كان يقوم بها مبعوثو النجف لاثارة الخواطر في البلاد . وكانت استعادة الجيوش التي سبق ان أعيدت الى الهند عاملاً انتفع به الانكليز لأعادة النظام والاستقرار في البلاد . وفي هذه الفترة رفض اكثر من زعيم قبلي الاستسلام ما لم تُعرض شروط الاستسلام اولاً على المجتهد الاكبر في النجف ، الذي كان آنذاك شيخ الشريعة . وكان الشيخ عبد الواحد سكر ، شيخ قبيلة فتلة ، والشيخ مرزوق العواد ، شيخ قبيلة حميدات من بين الذين وضعوا مثل هذه الشروط للاستسلام . ولكن محاولة كهذه لم يقيّض لها النجاح آنذاك بسبب وفاة المجتهد الاكبر ، شيخ الشريعة ، فجأة في شهر كانون الاول ، الذي كان يقوم بدور بارز في بث الدعاية ضدّ السلطة البريطانية . وبعد وفاة المجتهد الاكبر رفض كوكس مطالب زعماء القبائل ، وبرفضه هذا انزل ، نيابةً عن سلطة الحكومة الجديدة ، اول ضربة قاضية على سلطة اهل الحلّ والعقد ، تلك السلطة التي يتمتّع بها العلماء ، والتي تعتبر العقبة الكأداء الاولى (٢) . وكان من الواضح ان لبريطانيين كانوا يميلون الى تشجيع الحركات التي تأخذ بالاعتدال ، والاعتدال في نظرهم لم يكن يقتصر على الاعتراف بالوجود البريطاني ، بل باستمرار السلطة البريطانية وبقائها في العراق ، شريطة ان تكون هناك مشاركة عراقية في الحكم . ومن جهة ثانية كان واضحاً ، كما كان يُستَدلّ من الاجراءات التي اتخذها كوكس ضدّ الشيعة ، ان البريطانيين كانوا قد وطّدوا العزم على استئصال شأفة « التطرّف » اي المطالبة بالاستقلال التام ،

---

(١) J.O. 371/5232 (E 14 932/2719/44).

(٢) Private papers of miss G.L. Bell, Box 203/4/3, Faculty of Oriental Studies, Durham.

وهو اول شعار من نوعه رفع في منطقة الفرات الاوسط ، المنطقة حيث يسيطر النفوذ السياسي الشيعي .

كان مشروع السير برسي كوكس لاقامة حكم عربي لا يختلف في جوهره عن المقترحات التي تقدّمت بها لجنة بونهام — كارتر (Bonham-Carter) ، ولذا فانه لم يدّع انه كان مبتكراً او مبتدعاً لهذه الفكرة (١) إنّ الفرق الوحيد بين مشروع كوكس واقتراحات اللجنة كان في الروح التي صيغت بها ، وفي الاسلوب الذي كانت ستُطبّق بموجبه . فقد اشتهر كوكس بكونه رجلاً رصيناً فطيناً عادلاً في تصرّفاته عندما كان اولاً الحاكم العسكري الاول قبل الثورة وبعدها ، وعندما كان الحاكم المدني قبل مغادرته البلاد الى ايران . والواقع انه لم يكن هناك من فرق جوهري بين آراء ولسن وكوكس ، وانما كان الفارق الطفيف بينهما يقع في الاسلوب الستراتيجيّ الذي ستُنفّذ بموجبه . فقد ابدى كوكس تفهماً افضل لأباء النفس العربية واعتزازها ، والواقع انه كان يأمل الاستفادة والانتفاع بهذا الأباء وبهذا الشمم لمصلحة الوجود البريطاني ونفوذه في العراق . اذا كان العرب يريدون حكومة عربية ، فليكن لهم ما يريدون طالما ان السلطة الحقيقية في العراق ستبقى في ايد انكليزية . بهذه الروح ، وبهذه النيّة راح كوكس يتّخذ الخطوات الرسمية لأعلانٍ تشكيل مجلس دولة . كان كوكس يتخيّل مجلساً يتألّف من رئيس وثمانية وزراء يرئس كل وزير منهم دائرة من دوائر الدولة . ويقدّم لهم النصح والمشورة الأمناء العامون البريطانيون الموجودون في البلاد . ويضم المجلس ايضاً عشرة وزراء آخرين كوزراء دولة لا حقائب وزارية خاصة بهم . وهؤلاء الثمانية عشر وزيراً يمثّلون جميع الطوائف والجاليات في الألوية الثلاثة . واتّجهت الأنظار الى النقيب السيّد عبد الرحمن الكيلاني على انه افضل شخصيّة مؤهّلة لتشكيل مجلس الأمّة الموقت ولرئاسته . فقد كان رجلاً يحتلّ مقاماً دينياً محترماً ، ومركزاً اجتماعياً مرموقاً . أضف الى هذا انه كان يستأثر باحترام الناس كافة ، لا سيما وانه كان يقف موقفاً وُدّياً من البريطانيين. وكان النقيب رجلاً عُرف بالاعتدال والتحفظ في آرائه وفي وُجُهات نظره . وبعد تردّد طال امده قَبِل النقيب ان يتحمّل مسؤولية الحكم . ولكي يُبقي كوكس على الصبغة العراقية لمجلس الدولة الموقت ، رأى ان تصدر التعيينات الوزارية ،

---

(١) كانت هذه اللجنة تتألف من السادة : Sir E. Bonham — Cater, judicial. Secretary; Lt. Col. B.B. Howell, Revenue Secretary, وقدحظي المؤلف بمقابلته Major H.F.M. Tyler, Political officer, Hillah; Lt. col. J.C.C. Balfour, political officer, Baghdad; Maj. R.W. Bullard, Deputy Revenue secretary.
F.O. 371/5227 (E 8267/2719/44).

وتوزيع الحقائب الوزارية وجميع الأجراءات العامّة عن النقيب نفسه . ولكن الواقع هو ان كوكس نفسه تولى جميع الخطوات لتأليف لتنظيم الحكومة الموقتة . فكان هو الذي يقترح وهو الذي يوافق او لا يوافق . وانما كان يحرص اشد الحرص على الا يترك في أذهان الناس انطباعاً انه هو مصدر السلطة الأمر الذي قد يسيء الى مشاعر العراقيين .

واخيراً تشكّل مجلس الدولة على النحو التالي (١) :

رئيس المجلس	[illegible] نقيب بغداد
وزير الداخلية	[illegible] السيد طالب باشا
وزير المالية	[illegible] ساسون افندي حزقيال
وزير العدل	مصطفى افندي الألوسي
وزير الدفاع	جعفر باشا العسكري
وزير الاشغال العامة	[illegible] عزّت باشا
وزير التربية والصحة	السيد محمد مهدي الطباطبائي
وزير التجارة	عبد اللطيف باشا مديل
وزير الاوقاف	محمد علي افندي فاضل

وكان السيد طالب باشا اكبر اولاد نقيب البصرة . وكان قد قدم بغداد منذ تموز الفائت في صحبة جميع الاعضاء السابقين في غرفة التجارة التركية بناء على دعوة وجّهها اليه السير ارنولد ولسن الذي كان آنذاك نائب الحاكم المدني ، لكي يشترك في لجنة طُلب اليها ان تعدّل قانون الانتخاب التركي وان تعيد النظر فيه . وكان السيد طالب رجلاً لا يعرف حدّاً لطموحه مهما تكن السُبل لبلوغ تحقيق ذلك الطموح . ولذا فان الناس كانوا يرتابون بحسن نواياه وبصلابة خلقه . وكان ساسون افندي زعيماً يمثّل الجالية اليهودية في بغداد ، ولكنه كان يستأثر باحترام الناس كافة وبثقتهم بخلقه . وكان عضواً في مجلس المبعوثان التركي منذ سنة ١٩٠٨ . وفي سنة ١٩١٣ كان يشغل منصب وزير المال في الامبراطورية العثمانية . وكان مصطفى افندي الألوسي ينتمي الى عائلة اشتهرت بعلمائها الدينيين ، وكان هو نفسه قد شغل منصب قاضٍ . واما جعفر باشا العسكري فقد اشتهر كجندي في اثناء الحرب وشغل منصب حاكم لمدينة حلب في عهد الملك فيصل . وكان عزّت باشا جنرالاً سابقاً من بلدة كركوك . وكان السيد محمد مهدي ينتمي الى عائلة اشتهرت بالعلم والفقه . واما الطباطبائي فكان من مدينة كربلاء . وكان عبد اللطيف باشا من اعيان البصرة المعروفين . وكان محمد

(١) C.O. 696, vol. 3, Administration Report, 1920-1922, 3.

فاضل نائباً سابقاً ومواطناً من اهل الموصل . وكان مجلس الأمة يضم ايضاً احد عشر وزيراً لا يتولّون حقائب وزارية معيّنة ، وهم : محافظ بغداد عبد المجيد افنـدي شاوي ، وحمدي باشا بابان وكان كردياً وزعيم عشيرة كانت تحكم السليمانية ، وعبد الرحمن باشا حيدري ، وفخري افندي جميل زاده ، وكلاهما من اعيـان بغداد ، واحمد باشا ساني من البصرة ، وعبد الجعفر باشا خيّاط ، وداود يوسفاني ، وكلاهما مسيحيّان من اعيان الجالية المسيحية في بغداد والموصل . هذا الى جانب اربعة من الشيعة وهم عبد الغني كُبّه ، وكان زعيم لعائلة الشيعية في بغداد . والسيد هادي قزويني من الحلّة ، وعجيل باشا بن علي سمرمد الذي كان سابقاً شيخ مشايخ زبيد ، والأمير محمد صيهود شيخ بني ربيعة .

اما زعماء الشيعة في النجف فانهم كانوا ينظرون الى مجلس الدولة الموقت نظرة ريبة وتخوّف . فقد كان انتقادهم الرئيسي ، ومطلبتهم الأولى – الى جانب معارضتهم الطبيعية لهذه الحكومة الموقتة التي يتوب امرها الانكليز انفسهم – ان الانكليز كانوا قد عيّنوا متصرّفين وقائمقامين سنّيين في المناطق التي غالبية السكان فيها من الشيعة في جميع ارجاء منطقة الفرات . وكان السنيون يسيطرون على المجلس مع العلم ان نصف اهل العراق من الشيعة ان لم نقل غالبيتهم (١) . وكان رئيس المجلس ، نقيب بغداد ، يكره ثلاثة امور اكثر مما يكره الشيطان نفسه : اليهودي والشيعي والفرنسي . وكان يرى ان الشيعة سيحولون دوماً دون إقامة إمارة في العراق لانهم لا يؤمنون الا بحكم الأمام الديني (٢) . والواقع انه لم يكن متوافراً في صفوف الشيعة سوى اشخاص قلائل مؤهّلين لتسلم مناصب حكومية رفيعة ، والسبب في ذلك يعود الى ان الشيعة كانت دوماً تقاطع الاشتراك في الحكومة التركية وتمتنع عن ارسال اولادها الى المدارس التركية المهنية . أضف الى هذا ان الاتراك الرسميين انفسهم لم يشجعوا الشيعة على الدخول في الخدمة المدنية وفي سلك التعليم . ولكن هل كان المقياس الذي بموجبه اختار كوكس اعضاء مجلس الدولة مدى اختياره الشخصي ومعرفته باحوال الناس حتى انه عيّن مجلساً غالبيّته من السنّة ؟ وهل كان لدى السيد طالب من الخبرة ما يؤهله لمنصب وزارة الداخلية سوى انه كان رجلاً لا يعرف حداً لطموحه ، ذلك الطموح الذي حمل كوكس في ما بعد على نفيه ، وسوى انه كان ابن نقيب

---

(١) بحسب إحصاء السكان الذي قام به الانكليز في سنة ١٩١٩ تبين ان عدد الشيعة بلغ ١,٤٩٣,٠١٥ وعدد السنة ٩٩٢,٢٨٥ ، وعدد اليهود ٨٦,٤٨٨ ، والنصارى ٧٨,٦٩٢ ، والطوائف الأخرى ٤٢,٣٠٢ .

(٢) J.O. 371/5228 (E 8446/2719/44).

البصرة(١)؟ وكان عبد اللطيف باشا عميلاً لابن سعود في البصرة، وكان الساعد الايمن للسيد طالب ، وبما ان طالب كان يعضده ويسانده فانه (عبد اللطيف باشا) شعر بأنه فوق القانون فراح يستغل الفُرَص المتاحة له ليزيد في ثروته على حساب الآخرين . ولم يلعب هذا الرجل دوراً بارزاً في الحياة العامة الى ان توفيّ والده . وكان حريصاً على ان يقف دوماً الى جانب من ستكون السلطة في يده (٢) . ولكن كوكس كان يعلم حقّ العلم ان زعماء الشيعة لهم اعذارهم في ابداء المعارضة والانتقاد واظهار الاستياء ، ومن جهة ثانية كان يدرك ان الوسيلة الوحيدة للحفاظ على مجلس الدولة من نظرتهم المتطرّفة التي كانت تقول بالاستقلال التامّ الناجز هي تسليط السنّة واعطاء الغالبية في المجلس لأعضاء سنيين. وكانت الشيعة تلقّب النقيب آنذاك بالمهراجا الهندي ، الأمر الذي يعكس مرارة نفوسهم من الوضع السائد في الحكومة الموقتة .

ومهما يكن من امر فان تشكيل مجلس الأمة أعلن رسمياً في بلاغ صدر في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني (٣). وظلّ هذا المجلس يقوم بمهمات الحكم الى ان توّج فيصل ملكاً على العراق في شهر آب سنة ١٩٢١ . اما القضايا الرئيسية التي استأثرت بعناية المجلس فقد كانت الامور التالية : رجوع الاشخاص الذين سجنوا في هنجام بسبب اشتراكهم في اضطرابات الصيف الفائت (٤) ، وإعادة الضبّاط العرب الذين كانوا يعملون في سوريا الى العراق . وتنظيم الحكومة العراقية المدنية في اشراف عراقيين في جميع انحاء البلاد ، والنظر مجدّداً في قانون الانتخاب ، وأخيراً انشاء جيش عراقي . وطبيعي ان لا يكون المجلس قد أُعطي الصلاحيات المطلقة لمعاجة هذه الامور التي جئنا على ذكرها ، لانه بحسب ما جاء في المذكّرة التي صدرت حول « التعليمات المعطاة لمجلس الأمة » والتي اصبحت اول دستور في العراق (٥) ، فان جميع القرارات التي تتّخذ في جميع الوزارات يجب ان تخضع اولاً لموافقة مجلس الدولة ، ثانياً يجب

---

(١) أدى السيد طالب خدمات جلى للانكليز في اثناء الاضطرابات التي وقعت سنة ١٩٢٠. والواقع ان تردد ساسون افندي في قبول دخوله مجلس الأمة الموقت في بادىء الأمر يعود الى تخوفه من ان الانكليز كانوا يعدون السيد طالب ليكون رئيس الدولة في العراق.

(٢) **J.O. 371/3049 (44/97445, 126993, 224384/45315) Personalities of Iraq,46.**

(٣) راجع نص البلاغ في الملحق الرقم ١٠ .

(٤) راجع البلاغ الذي أصدره كوكس بمناسبة العفو العام في ٣٠ ايار ، ١٩٢١ في الملحق الرقم ١١ .

(٥) راجع النص في الملحق الرقم ١٢ .

ان تخضع لموافقة المستشار البريطاني الملحق بتلك الوزارة وبوزيرها العربي . ثالثاً واخيراً ينبغي ان تخضع لسلطة المفوّض السامي البريطاني . وفي كلام واضح كان الوزراء العرب وزراء اسمياً لا فعلياً ، ولم يكن مجلس الدولة سوى مجرد ستار تستتّر به السلطة البريطانية الحقيقية (١) . وينبغي لنا ان نسجّل هنا مادّتين من المواد التي وردت في المذكرة الآنفة الذكر ، أولاهما تتعلّق بصلة الوزير العربي بمستشاره البريطاني ، والثانية تظهر لنا مبلغ السلطة التي كان يتمتّع بها المندوب السامي .

(١) على كلّ حال اذا تقدم المستشار الانكليزي بمشورة الى الوزير وشعر هذا الوزير بأنه لا يستطيع ان يتقبّل المشورة فله (للوزير) ان يستدعي المستشار لأجراء تشاور بينهما . واذا لم يتمكنّا من الوصول الى اتفاق بعد البحث في الأمر ، واذا شعر المستشار بأن الأمر خطيرٌ يتطلبُ مزيداً من التداول ، فله الحق في ان يطلب من الوزير ان يرفع القضية الى مجلس الدولة للبحث والنظر فيها . عندها يتوجّب على الوزير ان يُوقف اتخاذ اي اجراء الى ان يجتمع المجلس ثانية عندما تطرح عليه القضية .

(٢) ان جميع القرارات التي يتخذها مجلس الدولة تصبح نهائيةً بعد ان تنال موافقتي عليها بصفتي رئيس الحكومة . وينبغي لي ان احتفظ لنفسي بالحق في النقض بصفتي المندوب السامي ، او بالحق في تعديل اي قرار يصدره المجلس اذا كان في التعديل ما يعود بالخير والنفع (٢) .

وقد كرّر السير برسي كوكس القول مراراً ان مجلس الدولة مجلس موقّت الى ان يحين الوقت لانشاء حكومة عربية دائمة (٣) . والشكل النهائي لهذه الحكومة العتيدة « ينبغي ان ينبثق من رغبة الشعب ذاته ، وهذا لا يتحقق تحقيقاً صحيحاً الاّ بعد الدعوة الى عقد مؤتمر قومي يمثّل عامة الشعب تمثيلاً صادقاً (٤) » . وذكر المندوب السامي في بلاغه انه في خلال شهرين او ثلاثة ينبغي انشاء مجلس وطني كي يكمّل قانون الانتخاب وكي يهدّىء الحالة في البلاد ويعيد النظام الى نصابه ، ويجري الانتخابات . وفي الواقع ان النظام أعيد الى نصابه في شهر شباط من سنة ١٩٢١ ، ولكن قانون الانتخاب لم يتمّ وضعه الاّ في الرابع عشر من شهر آذار سنة ١٩٢٢ . وعلى الرغم من هذا فان المجلس لم يلتئم الاّ في ٢٧ آذار من سنة ١٩٢٤ ، اي بعد تأخير طال امده ، وعلى الرغم من انه صدرت ارادة بوجوب عقد اجتماع له في التاسع عشر

---

(١) J.O. 371/5231 (E 13975/2719/44), also Private Papers of miss G.L. Bell , Box 4/3/, Faculty of oriental studies, Durham.

(٢) op. cit. Article X.

(٣) جريدة العراق ، ٧ تشرين الثاني ، ١٩٢٠ وفيها نص بلاغ المندوب السامي .

(٤) المصدر ذاته .

من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٢ اي بعد ان كان فيصل قد تُوج ملكاً على العراق . وكانت اسباب التأخير جليّة واضحة لكل امرىء . فالمجلس لم يكن يمثل سوى اهل المدن والملاّكين الكبار ، ولم يضمّ ممثلين عن القبائل في العراق التي كانت تشكل آنذاك لا اقلّ من اربعة اخماس السكّان . وخلا بعض الارض في عدد قليل من مدن العراق فان معظم اراضي العراق اراض تعود الى القبائل في ملكيتها . وقد عارض مجلس الدولة تمثيل القبائل في المؤتمر القومي لانّ مجلس الدولة لم يكن يمثّل سوى اهل المدن والملاّكين الكبار ، ولانّ هؤلاء كانوا دوماً يبدون مخاوفهم التقليدية من القبائل . هذه الذرائع وغيرها من العقبات استغلّت لتأخير انشاء المجلس القومي . وكانت لدى كوكس أدلّة كافية على ان طالب باشا ، في حال انعقاد المجلس القومي ، سيسعى الى توجيه اعضائه بالخدعة والاحتيال ويحملهم على انتخابه ملكاً على العراق وعلى اظهار العداء وعدم الموالاة للبريطانيين باصداره بلاغات وتصريحات في هذا الشأن . وعادت الشيعة الى ممارسة نشاطها السياسي لانهم ادركوا ان الانكليز على استعداد للتضحية بنفوذهم السياسي في بلاد لا اقل من نصف سكان فيها من الشيعة . فراح السّيد محمد رضا ، ابن المجتهد الاكبر يبعث بالرسائل الى أتباعه من الشيعة يعلمهم فيها عن خطته مقاومة الانكليز (١) . وأصبحت لهجة الصحافة العراقية اشدّ عنفاً في مقاومتها ومعارضتها للانكليز وذكرت جريدة الاوقات البغدادية Baghdad Times في عددها الصادر في ٩ ايار ، ١٩٢١ ، ان جريدة الاستقلال صودرت لنشرها مقالات تحريضيّة من شأنها إثارة الفتنة . وقد حُكم على محررها وعلى عدد من المشتغلين فيها بالسجن مُدداً تراوح بين ستة اشهر وثمانية عشر شهراً ، واوقفت الجريدة عن الصدور مدة سنة واحدة . وفي نظر الانكليز ، كان تأجيل عقد المؤتمر امراً ضرورياً ، لان كل محاولة لعقده فوراً من شأنها بأن تلحق ضرراً خطيراً بالسياسة البريطانية وبتتويج فيصل على عرش العراق . ناهيك بأن مثل هذه الخطوة قد تؤدّي الى نشوب اضطرابات جديدة تعكّر صفو الأمن في البلاد ، الأمر الذي ستكون له نتائج خطيرة . ولكن ، من جهة ثانية ، ينبغي لنا ان نشير الى ان الظروف كانت تقتضي ان يقوم الانكليز بعمل سريع ، وان كل تردّد من قبلهم قد يجعل الرأي العام يميل

(١) كان بعض موظفي الادارة المدنية من الانكليز يزعمون ، كما فعلت مثلاً الآنسة جرترود بل ، ان محمد رضا عميل للبولشفيك وانه كان يقوم بنشاطه السياسي بحسب تعليمات ترده من البولشفيك . وفي اثناء مقابلتي للمغفور له المجتهد الاكبر محسن الحكيم نفى ان يكون هذا الاتهام صحيحاً وراح يشدد في كلامه على العداء التقليدي العنيف بين الاسلام والشيوعية . واضاف قوله ان الانكليز كانوا يتهمون كل من ليس معهم ، ولا يؤيد وجودهم في العراق ، انه إما عميل تركي او عميل بولشفيكي .

بكليته الى جانب الاتراك (١) .

وفي لندن تشكّلت لجنة جديدة تابعة لوزارة المستعمرات كانت تُعرَف بلجنة الشرق الاوسط . وقد عُهِد اليها في معالجة شؤون القضية العراقية ، وكانت مهمتها ان تضع سياسة للشرق الادنى والاوسط لا تكلّف الخزانة البريطانية مبالغ مالية باهظة كتلك التي تتحملها الآن ، وتحلّ محل النظام المعقّد المعمول به في العراق حيث تتشابك الصلاحيات بين وزارة الخارجية البريطانية ، والهند ، ووزارة المستعمرات . وكان اول عمل قام به السيد ونستون تشرشل ، بصفته وزيراً للمستعمرات ، عقد مؤتمر في القاهرة « لحلّ جميع القضايا الملحّة البارزة في منطقة الشرق الاوسط » . وقد عُقِد هذا المؤتمر في ١٢ آذار ، ١٩٢١ . وحضره عدد من الشخصيات من ذوي المناصب العالية ، وخبراء من وزارة الخارجية والمال وجمهرة من مستشاري تشرشل في الشؤون الشرقية بمن فيهم لورنس . وكان ممثلو العراق استدعوا الى ذلك المؤتمر المندوب البريطاني السامي برافقه لقائد العام السير ايلمر هلداين ، وساسون افندي وزير المال ، وجعفر باشا ، وزير الدفاع ، والجنرال اتكنسون (**Atkinson**) مستشار وزارة الاشغال ، ولزعيم سلايتر (**Slater**) المستشار المالي ، والآنسة جرترود بل الأمين العام لشؤون الشرقية (٢). ومن جملة القضايا التي بحث فيها المؤتمر اختيار حاكم للعراق ، ومعالجة القضية الكردية في العراق ، وخفض النفقات المالية التي تدفعها الخزانة البريطانية في اقرب وقت ممكن ، وتأليف قوات عسكرية تتولى الدفاع عن العراق بعد انسحاب الحاميات البريطانية منه . وتمّ الاتفاق على ان يُعطى العراقيون قدراً كبيراً من الحكم الذاتي ، وان يأخذوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع والموازنة .

وكان من الامور الطبيعية ، نتيجة هذا القرار المتعلّق بالعراق ، ان يُعاد النظر في مشروع الانتداب على العراق فيُستغنى عنه او يُستبدل بما هو افضل منه ، اي بعقد اتفاقية تنظّم العلاقات بين البلدين على غرار الاتفاقية المعقودة بين بريطانيا ومصر . وقد راقت الفكرة السيد تشرشل فوافق عليها فوراً وبكثير من التحمس لها . وقد بدا جلياً لجميع المؤتمرين ان اعظم النفقات المترتبة على الامبراطورية البريطانية يمكن خفضها تلقائياً عند تحقيق هذا المشروع (٣) . وفضلاً عن هذا فان الجيش البريطاني

---

(١) Bell, *Letters*, 585.

(٢) C.O. 696 vol. 3, **Administration Report**, op. cit., 6

(٣) كانت النفقات الفعلية التي تتحملها الخزانة البريطانية في العراق بين سنة ١٩٢٠ و١٩٢٥

الكبير في العراق يمكن خفضه الى عشر كتائب او اثنتي عشرة كتيبة عند منصرم السنة، بينما تستطيع القوة الجوية المؤلفة من قاذفات القنابل الضخمة في الحبانية ان تتولى حفظ الأمن.

في تلك الأثناء كان تشرشل قد توصل الى قرار في شأن الشخصية التي ستتوّج على عرش العراق (١). وقد بدا جلياً، بعد فاجعة سنة ١٩٢٠. ان العراق في حاجة ماسّة الى حاكم – وبالطبع الى حاكم عربي. لا الى حاكم بريطاني كالمفوّض السامي البريطاني. وكان موقف الملك حسين من البريطانيين. ومن الاتراك موقفاً مناسباً جداً للمصالح البريطانية في هذه البقعة من الارض. كان الحسين في حاجة الى مساندة

كما يلي :

١٩٢٠ – ١٩٢١	٣٢,٠٠٠,٠٠٠ ليرة استرلينية	
١٩٢١ – ١٩٢٢	٢٣,٣٥٥,٩٥٠ – –	
١٩٢٢ – ١٩٢٣	٧,٨٠٧,٣٨٤ – –	
١٩٢٣ – ١٩٢٤	٥,٧٤٠,٣٥٨ – –	
١٩٢٤ – ١٩٢٥	٤,٤٧٩,٧٥٤ – –	
١٩٢٥ – ١٩٢٦	٤,١١٨,٤٠٠ – –	راجع تقديرات الموازنة

(١) F. O. 371/6350

وقد ارسل من القاهرة في آذار، ١٩٢١. يقول تشرشل في رسالة بعث بها الى النائب السيد لويد جورج :

« ان افضل من يمكن تتويجه ملكاً على العراق هو الامير فيصل. وهذا احسن حل يخفف عنا الأعباء المالية ... ولست اشك شخصياً في ان اختيار فيصل سيوفر لنا احسن الفرص لخفض نفقاتنا في العراق ان الوضع في العراق شديد التعقيد ولا سيما من جهة عدد الذين يطالبون بالعرش، مع العلم ان بعضهم لا يصلح اطلاقاً لتسنّم هذا المنصب، كما ان احداً من هؤلاء المطالبين بالعرش لا يوفر لنا إمكان قيام حكومة عربية فعالة تستطيع ان تخلصنا من ارتباطاتنا وتعهداتنا العسكرية هناك. ناهيك بأنه في حال اختيار احد منهم فان ابن سعود سيغرق البلاد كلها في اضطرابات دينية. اما السيد طالب الذي يحوك الدسائس بغية تسنم هذا المنصب فهو رجل عديم الاخلاق لا يوثق به. والنقيب قد تقدم في السن وأصبح على حافة قبره. ولكن اختيار احد ابناء الشريف افضل من اختيار احد منهم ولست اشك اطلاقاً في انه يوفر لنا احسن الفرص في المستقبل. والواقع اني لا أرى حلا عملياً غير اتباع هذه السياسة. ومن بين ابناء الشريف فنحن متفقون على ان الأمير فيصل يفوقهم، ويفضل اخاه عبد الله الذي هو رجل ضعيف ولن يحظى بمساندة العناصر التي ترشح احد ابناء الشريف او بعضهم له » :

البريطانيين المالية والسياسية ، لانه كان قد انفصل عن الاتراك واشاح بصره عنهم ، فلم يكن في قدرته ان ينعم بالاكتفاء الذاتي . وكان الانكليز بدورهم يدركون مدى اعتماده عليهم، وانه مستعد ان يترك البريطانيين وشأنهم في العراق في مقابل اعانة مالية سنوية (١) . ولكن الحسين مرغم على ان يضع قناعاً يخفي حقيقة صلاته مع البريطانيين لكي يتبرر امام العالم الاسلامي ، ولكي يبقي على مظاهر الاستقلال للحجاز وللاقطار الاسلامية التي فصلت عن الامبراطورية العثمانية نتيجة للحرب العالمية الأولى. لم تقتصر اهمية تفاهم البريطانيين مع الحسين في شأن العراق على انه أطلق يدهم في انشاء حكم بريطاني فعّال في العراق من دون تحديد مدّة له او شروط، بل انه كان تفاهماً ساعد على جعل الوجود البريطاني هناك امراً يستسيغه الرأي الاسلامي العام . وكانت هذه حجة قوية في يد الانكليز تذرّعوا بها في مساندتهم وعضدهم لترشيح احد ابنائه ليتسنّم عرش العراق .

لم يكن هناك من شك في انّ فيصل كان افضل اختيار ممكن . فانه رفيع النسب ، واحد ابناء الشريف حسين ، شريف مكة وملك الحجاز . وهذا ما يزيد في رفعة مكانته في اعين العرب عامة ، وفي اعين رجال الدين حتى بين الشيعة . وكان قد اكتسب في شبابه خبرة بين الاتراك في استانبول ، كما انه ازداد خبرة في حربه ضد الاتراك في اثناء الحرب العالمية الأولى ، وفي اشتراكه في مؤتمر الصلح الذي عقد في فرساي . ولا ننسى الاختبار الذي حصل عليه في المدة القصيرة التي كان فيها ملكاً على سوريا في دمشق . وفي رأي البريطانيين ان المدة التي قضاها ملكاً في دمشق اظهرت له صعوبة الحكم في ادارة عربية ، والمخاطر التي ينطوي عليها الاعتماد على جيش عربي (٢) اعتماداً كلياً . إذاً كان من المتوقع ان يرحّب لعرب بالمشورة التي يقدّمها الانكليز له، وان ينظروا الى المعونة المالية التي تعطى للمملكة الجديدة المنويّ اقامتها على انها امور تعود بالخير والنفع لهم، لا شروط تفرضها بريطانيا في مقابل العرش الذي ستقدّمه الى فيصل . ثم ان هناك امراً آخر اخذه الانكليز في الاعتبار هو ان ترشيح فيصل لعرش سوريا من شأنه ان يكون وفاء لوعد كان ماكماهون قد قطعه في اثناء الحرب الثانية للشريف حسين في صورة خاصة وللعرب في صورة عامة، وهكذا تستعيد بريطانيا

---

(١) F.O. 371/3385 (44/191229/747).

(٢) ذلك بأن ضباطه من العرب تخلوا عنه في معركة ميسلون سنة ١٩٢٠ حيث وقعت معركة حاسمة هناك مع الجيش الفرنسي . فقد كان البريطانيون يعتقدون انه لو حارب الضباط في ميسلون ضد الفرنسيين بشجاعة واقدام لما كان الفرنسيون ربحوا المعركة بتلك السهولة ، المعركة التي ادت الى سقوط فيصل وانتهاء ملكه في دمشق .

سمعتها في العالم العربي . اما في ما يتعلّق بالرسائل التي تبودلت بين ما كماهون والشريف حسين في اثناء الحرب فانها خلقت مشكلة صعبة للانكليز ووضعتهم في مأزق حرج ، اذ انه وُجد في ما بعد ان هناك اختلافاً في النصّين الانكليزي والعربي . عند مقابلة النصين الانكليزي والعربي نجد ان الترجمة الحرفية للعربية تعني ان حكومة جلالته (الحكومة البريطانية) تتعهد وتعترف وتساند امر استقلال العرب في جميع المناطق المحدّدة الواقعة ضمن الحدود المعيّنة وليس في تلك الاقسام من المنطقة حيث يحق للبريطانيين ان يتصرفوا في حرية من دون اساس بمصالح فرنسا (١) . ومن جهة ثانية كان فيصل يعتقد ان البريطانيين ، عند الساعة الحاسمة عندما كان ملكاً على سوريا ، تخلّوا عنه وسلموه الى الفرنسيين . وقد ظنّ الانكليز ان ترشيحه لعرش العراق من شأنه ان يزيل من نفسه تلك المرارة التي كان يشعر بها ضدّ الانكليز .

كان البريطانيون يأملون من تتويج فيصل ملكاً على العراق ان يزيد في امر سيطرتهم على كلا الرجلين : فيصل ووالده الشريف حسين ، شريف مكّة ، الذي برهن في علاقاته مع الانكليز انه رجل متقلّب شديد المراس . ومهما يكن من امر فان فيصل أُفهم ان المعونة التي تُعطى لابيه ، والضمانات التي قدّمتها بريطانيا له في شأن حمايته ضدّ اي تعدّ وهذان أمران يتوقّف التزامهما على تصرّف فيصل وعلى السبيل الذي سيسلكه . فقد كان تشرشل يعلم ان مقدم فيصل الى العراق سيغيظ ابن سعود . وبسبب هذا اقترح ابن سعود ان تزداد المعونة المالية التي تدفعها له بريطانيا الى مئة الف ليرة استرلينية سنوياً تُدفع له شهرياً ، شريطة ان يحافظ ابن سعود على السلم مع كل من العراق والكويت والحجاز . وكان السير برسي كوكس يرى ان معونة مالية كهذه ينبغي ان تكون كافية لكسب رضا ابن سعود وحسن نيّته في وقت عصيب كهذا الوقت كما انه كان يرى انه اذا عادت المياه الى مجاريها ثانية ففي الامكان خفض هذا المبلغ (٢) . وبعد ان بارك تشرشل هذه السياسة اتّصل لورنس والسير كنهان كورنواليس التابع لوزارة المستعمرات بفيصل وباحثاه في شأن عرش العراق . كان ذلك قبل انعقاد مؤتمر القاهرة باسابيع عديدة . في بادىء الأمر لم يتجاوب فيصل معهما ولم يبد استعداداً لقبول العرض . وكانت حجته ان اخاه الاكبر ، الامير عبدالله احقّ بالأمر . فتعهد لورنس بأن يزور عبدالله بنفسه في جدّة . وفي عصر يوم واحد من المباحثات أخذ لورنس عهداً على عبدالله بأنه لن يعارض ترشيح اخيه فيصل .

---

(١) See Private Papers of Sir Hubert Young,DS 77.1 (File 2) middle East Center, Oxford.

(٢) F.O. 371/6350. Telegraphic corresponsence (Churchill-Llyod George) re-policy in Mesopatamia, march, 14th-29th, 1921.

وفي الاول من آذار ، ١٩٢١ ، وبعد سلسلة متتالية من المقابلات حول مائدة الطعام في مطعم شيب إن في هويتهال (Ship Inn at Whitehall) استهوت الفكرة وما تنطوي عليه من إمكانات فيصل وحزم امره على ان يقبل العرض (١) . اما كوكس وهو من احسن الموظفين البريطانيين خبرة ومعرفة بشؤون العراق — فقد أبدى تحفظاً واحداً اخذ به المؤتمر ، وهو ان يقدّم فيصل الى الشعب العراقي على انه الرجل الذي اختاروه هم بملء حريتهم وارادتهم. فيعلن الأمير استعداده لقبول العرش الى الزعماء العراقيين ، فاذا قبلوا به ملكاً عند مقدمه العراق عندها يتوّج . وكان تحفظ كوكس الذي اخذ به المؤتمر ستاراً آخر تستّر به الدولة العربية في العراق لتخفي طابعها البريطاني . واسرع تشرشل راجعاً الى لندن فرحاً بنجاح سياسته وراح يشرح خطوط هذه السياسة لاعضاء مجلس العموم مبيّناً لهم المنافع العسكرية والاقتصادية التي ستسفر عنها سياسته الجديدة في العراق . وقد قابل مجلس العموم خطابه بتصفيق حادّ دام وقتاً (٢) . ولم يبقَ من الأمر سوى ان يلعب الآن فيصل دوره المعدّ له .

في اثناء غياب كوكس عن العراق الذي طال قرابة ستة اسابيع ، كان الوضع الداخلي قد تغيّر بعض الشيء . فقد قام طالب باشا بجولة انتخابية في المناطق الواقعة جنوب بغداد دعا فيها الى ترشيح نقيب بغداد رئيساً للبلاد. وقد استقبلته جموع الشيعة ولكن من دون ان يقدّموا له ايّ دليل على رضاهم بترشيح النقيب، او ان يعلنوا له نواياهم في ما يتعلق برئيس الدولة الذي يريدونه . فان صفوف الشيعة كانت تعرف الكثير عن طالب وعن قسوته وفظاظته وبعد طموحه من الشكاوى الكثيرة التي كانت تصلهم من الشيعة القاطنين في ولاية البصرة في العهد العثماني والعهد الذي تلاه . ومنذ مطلع شهر كانون الاول من سنة ١٩١٤ بدا واضحاً ان السيد طالب ، في معاملاته مع الانكليز ، كان رجلاً وعداً ذا دهاء واقتدار من الطراز الأول في اغتنام الفرص والاستفادة منها . في ٢٣ كانون الاول من سنة ١٩١٤ سلّم شيخ المحمّرة كوكس رسالة من ابن سعود يشفع فيها لطالب ويؤكّد حسن اخلاصه ورغبته في خدمة الانكليز . ويقول ابن سعود في رسالته هذه انه يوافق سلفاً على أي اتفاقية او تفاهم يحصل بين طالب والانكليز . وطيّ الرسالة هذه كانت هناك رسالة من السيد طالب نفسه الى كوكس يذكر فيها مؤهّلاته ويؤكّد له فيها استعداده لأن يكون في خدمة الانكليز في العراق (٣) . وفي اثناء حديث مع النقيب كلايتون

(١) Sacher, H. *The Emergence of the Middle East*. 378.
(٢) **Debates** H.C. 3rd Week march, 1921.
(٣) F.O. 371/2140 (86872/46261/44).

(Clayton) جرى في ٩ تشرين الاول، ١٩٢٠، قال السيد طالب، وفي كل صراحة، انه يستطيع إدارة شؤون العراق، ولكنه يرغب في ان يكون ذلك بطلب من الانكليز، لا عن طريق انتخابه من قبل العراقيين (١). كانت فكرته واضحة، وهي انه اذا عيّنه الانكليز فمعنى ذلك ان الانكليز يصبحون مرغمين على مساندته وعضده عند الحاجة، بينما اذا كان مرشّح الشعب فلا يكون الانكليز مسؤولين عن مساندته كما لو كان مُرشّحهم. ومن جملة ما قاله ايضاً لكلايتون انه اذا تعذرت إقامة حكومة في شكل مُعدَّل تصلح للبلاد كلها فليس ما يمنع فصل ولاية البصرة عن بغداد والموصل. وكل من يعرف السيد طالب يدرك فوراً أن قوله هذا يُعبّر عما يداخله من شكّ في امر مركزه ونفوذه في اللوائين الشماليين، لواء بغداد والموصل، كما انه يُعبّر عن رغبته في الحصول على ولاية البصرة، على الأقل. ولكن السيد طالب كان رجلاً وَغداً خبيثاً مكروهاً من الناس بحيث ان ترشيحه كان امراً غير وارد في الحسبان. اما خزعل، شيخ المحمّرة، فكان قد استقبل كوكس في منزله وراح في أثناء المقابلة يركّز على جدارته واهليته كمرشّح للانتخاب. ولكن وفداً يمثّل قطاع التجارة والاعمال في البصرة ذهب لمقابلة كوكس، ليلتمس منه وضع البصرة تحت الحكم البريطاني المباشر، وذلك تجنباً لقيام اضطرابات ستقع حتماً، كما زعموا، اذا ما حاول الانكليز إقامة دولة عربية. وكان هذا الوفد يعمل بأشارة من السيّد طالب الذي كان يمارس شيئاً من الضغط على هذا القطاع واستمر طالب باشا في بثّ الأشاعات والأقاويل التي تنطوي على عِداء للانكليز، لانه كان يعلم ان الانكليز كانوا يؤثرون تنصيب احد ابناء الشريف.

في الرابع عشر من شهر نيسان أقام السيد طالب حفلة عشاء في داره على شرف السيد برسيفال لندون (Landon)، مراسل جريدة التلغراف البريطانية، حضرها القنصل الفرنسي، وقنصل ايران، والشيخ سالم الخيون امير ربيعة، وحسين الأفنان امين مجلس الدولة. وبعد العشاء ألقى السيد طالب خطاباً. وفي أثناء إلقاء الخطاب التفت ناحية شيوخ القبائل وهدّد .....

وكان يعني بذلك حرية الانتخابات مشيراً ضمناً الى ان هذه السياسة يلتزمها الانكليز. وعندما تسلّم كوكس تقريراً دقيقاً مثناً عن خطاب طالب، طلب الى القائد العام ان يدبّر أمر إلقاء القبض على طالب ونفيه فوراً. وفي اليوم ذاته ألقي

---

(١) F.O. 371/5230 (E 12461/2719/44).

القبض عليه في صورة علنية ونُفي الى جزيرة سيلان(١). وقد أعلن امر القاء القبض عليه والظروف التي ادّت الى ذلك في بلاغ نُشر في ١٨ نيسان (٢) . لقد كان هذا الأجراء المتطرّف العنيف الذي قام به كوكس امراً لازماً أملته عليه الظروف ، لانه كان يشعر بأن بقاء طالب باشاه في العراق، في الوقت الذي لم يحدد فيه مرشحاً يرضى عنه الانكليز ، من شأنه ان يتنافى مع القرار الذي توصل اليه موتمر القاهرة الذي كان آخر جُهد بذلته حكومةُ جلالته لايجاد حلّ لمستقبل العراق . كما ان هذا الاجراء الذي اتخذه المندوب السامي اظهر للشعب العراقي وفي ضوح ان السلطة البريطانية لن تتردّد لحظة في اتخاذ تدابير حازمة اذا اقتضت الحال مثل ذلك .

ومن المرجح كثيراً ان هذا الاقتناع لدى عامة الشعب العراقي ، من ان الانكليز يحزمون امرهم اذا اقتضت الحال ، كان عاملاً من شأنه ان يضمن للانكليز مساندة الشعب العراقي وموافقته على ترشيح فيصل عندما يحين الوقت لاعلان ترشيحه . بعد ان نُفي طالب كفّ النقيب عن معارضته لترشيح هاشمي لعرش العراق معلناً انه من الأفضل النزول عند ارادة حكومة جلالته . وعلى الرغم من انه لم يكن يُسمح بانشاء احزاب سياسية في البلاد فان كوكس وافق على انشاء حزب معتدل سمّي نفسه الحزب الشريفيّ غايته خلق رأي عامٍ موالٍ لفيصل . وراحت الصحافة تعمل للدعاية لهذا الحزب الشريفي ولمساندته ولاسيما جريدة الشرق التي كان رئيس تحريرها امين مجلس الدولة ، وجريدة العراق التي لعبت الدور البارز في تشجيع الحزب ومعاضدته ، وجريدة لسان العرب التي كان رئيس تحريرها ابراهيم علمي العُمري الذي كان يميل سياسياً الى فيصل والذي كان يدين بالولاء للأنكليز في تلك الفترة من الزمن ، وجريدة الاوقات العراقية التي كانت تصدر في البصرة وفي الموصل. اما الجريدة التي كانت تصدر في اللغة الانكليزية بعنوان Iraqi Times اي الاوقات العراقية فقد كانت ملكاً للحكومة تصدر باشرافها ، فكان من الطبيعي ان تنشر مقالاتٍ موالية في مضمونها لفيصل .

اما الشيعة في العراق فقد لزموا التحفظ والحذر ، ولكن استياءَهم من الحالة كان شديداً . وهم على حق ، فأنهم صحوا بالكثير في ثورة سنة ١٩٢٠ في سبيل

---

(١) ظل طالب باشا في جزيرة سيلان ، حيث سمح لعائلته ان تلتحق به ، حتى شهر شباط ١٩٢٢ ، عندما سمح له بالسفر الى ايطاليا لاسباب صحية . وينبغي الا ينظر الى طالب باشا انه كان رجلا يعادي الانكليز ويقاومهم ، لان الواقع هو انه اسدى لهم خدمات جلى في اثناء اضطرابات سنة ١٩٢٠ ، وفي اثناء المراحل الأولى لاحتلال البريطانيين القطر العراقي .

(٢) راجع الملحق الرقم ١٢.

تحقيق الاستقلال التامّ للعراق والتخلص من النفوذ البريطاني ليجدوا انفسهم انهم هم الخاسرون . ومن جهة ثانية حاول الانكليز ما في وسعهم لتجميد وضع الشيعة . فانهم لم يقبلوا ، في شكل من الاشكال ، ترشيح فيصل لعرش العراق على انه افضل اختيار ، ولاسيّما عندما شاع بين الناس ان فيصلاً هو مرشح الانكليز ، على الرغم من انهم كانوا يعتبرونه اهون الشرين على حدّ قول احد اعيان الشيعة . لقد كانوا يعتبرونه أهون الشرين لانه لم يكن ينتمي الى اي فئة او الى اي حزب سياسي عراقي . ولكن الملك فيصل كان ينظر الى الشيعة بعين الاحترام المقرون بشيء من الحذر والتحفظ ، وهذا اكثر مما كانت تتوقعه الشيعة من اي حكومة مركزية في بغداد . وكان فيصل يدرك – بفضل المحادثات التي كان يجريها مع مبعوث المجتهد الاكبر ، الشيخ محمد رضا الشبيبي – ن للمجتهد الاكبر ولجماعة العلماء من الشيعة سلطة قوية على سكان العراق من الشيعة ، ولذا وجب عليه ، عند التعامُل معهم ، ان يأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار . وعندما وصل فيصل الى العراق وراح يزور منطقة الفرات الاوسط والاسفل ، وهي مناطق شيعية ، تنحّى عماء الشيعة عن لقائه ، وفي محطة اور كان استقبال الجماعة الصغيرة من الشيعة له استقبالاً فاتراً . ولم يكن حضور الاستقبال الذي اقيم له في الديوانية حاشداً ولكن كان هناك شيء من الحماسة . وفي كربلاء ، على الرغم من ان القائمقام الهندي سعى ما في وسعه لجعل الاستقبال استقبالاً لائقاً بما قام به من استعدادات ، فان اهالي المدينة تجاهلوا امر هذا الاستقبال وذلك بواسطة تعليمات صدرت اليهم من علمائهم هناك . اما في النجف فلم يقتصر العلماء فيها على مجرّد التحفظ بل تعدّاه الى اظهار شيء من الجفاء والعداء الظاهرين . فقد تناقل الناس اشاعات عن ان المجتهد الاكبر كان قد أعلن عدم موافقته ورضاه لتنصيب الملك فيصل . وفي كلام موجز ، لقد أدرك زعماء الشيعة وقادتها ادراكا تاماً ان الملك فيصل انما يمثّل استمرار الوجود البريطاني في العراق (١) . وقد يمكن تلخيص موقف الشيعة الحقيقي من فيصل تلخيصاً موجزاً من حديث جرى في بيت السيد حسن الصدر (وهو ابو الصدر الذي جئنا على ذكر اسمه سابقاً) في الايام العشرة الاولى من شهر محرّم ، ١٩٢١ ، وهو الشهر الذي يجتمع فيه الاتقياء الورعون من الشيعة في المدن المقدّسة عندهم حيث

---

(١) بعد الخطاب الذي القاه فيصل في مدرسة الجعفرية في التاسع من تموز هتفت الجماهير مطالبة بالاستقلال التام الناجز وبالتحرر من الارتباطات البريطانية ومن الاتفاقيات التي توحي بها انكلترا . راجع جريدة دجلة بتاريخ ١١ تموز ، ١٩٢١ . وكانت هذه الجريدة تنفرد بحماستها ونزعتها الى الحكم الجمهوري .

يُفسح لهم في المجال الواسع للتحدث والتداول في شؤون الساعة . وفي حشد كبير مختلط قال السيد حسن الصدر ان فيصلاً ، من حيث النسب والخلق ، رجل يليق به ان يكون محطاً آمال العرب وامانيهم . ولكنه رجلٌ قد افسدته علاقاته وصلاته مع الانكليز . وفي خطاب فيصل الذي ألقاه يوم تسنمه العرش واشارته فيه الى صداقته مع الانكليز وثقته بالحكومة البريطانية ما يوفر الدليل القاطع ، في زعم السيد حسن الصدر ، على ان الرجل فقد مكانته في اعين الناس ولم يعد اهلاً لها (١) .

قبل مقدم فيصل الى بغداد كان هناك مرشحون آخرون يقومون بنشاط انتخابي داعين العراقيين الى تأييدهم . فقد رأى الشيخ خزعل ، شيخ المحمرة ، انّه ، بعد ان نفي طالب باشا ، يستطيع الآن ان يتصل بزعماء عراقيين ويطلب اليهم ان يمارسوا بعض الضغط على بغداد كي يقبلوا به مرشحاً للعرش . وكان الشيخ خزعل قد وكّل هذه المهمة الى مزاحم الباجه جي ليقوم بها . فسافر مزاحم الى بغداد وراح يجس نبض الاعيان فيها ولكن بدون جدوى (٢) . وكان الباجه جي قد اتصل بكلٍ من نوري السعيد وجعفر العسكري وكتب كلا الرجلين رسالتين الى خزعل يعتذران فيهما ويقولان انهما قطعا عهداً على نفسيهما عند انتظامهما في سلك الجندية الا يتدخلا في اي نشاط سياسي (٣) . وكان من جملة المرشحين ايضاً رجل تركي يُدعى برهان الدين . وكان ذا شعبية وسعة النطاق في منطقة كركوك . وكان هذا المرشح يَعِد أوساط الناس حيث كان يتمتع بنفوذ بان الاتراك سيعودون الى العراق . ومن جملة المرشحين ايضاً كان هادي العمري من كبار الموظفين في الموصل . وعلى الرغم من ان بعض الجماعات كانت قد رشحته الا انه لم يقم بنشاط ملموس في هذا السبيل ، ولم يكترث كثيراً بالأمر . واقترح اسم الآغاخان ، حتى ان اسم والي بوشتي كوه ورد ايضاً في جملة الاسماء المرشحة . ولكن الانكليز نجحوا في حصر دعاية برهان الدين ونشاطه الانتخابي في منطقة كركوك التي كان معظم اهلها من الاتراك . ثم ان نوري السعيد والباجه جي اتصلا بالشيخ خزعل واقنعاه بضرورة سحب ترشيحه لان الاوساط الرسمية والشعبية كانت تقف الى جانب فيصل . واقتنع الشيخ خزعل وسحب ترشيحه (٤) .

وصل فيصل الى مدينة البصرة في ٢٣ حزيران بعد ان كانت قد تمودلت البرقيات

(١) I.O., L/PS/10, 301, op cit., no.21,P. 19.

(٢) راجع رسالة الباجه جي الى خزعل ، الملحق الرقم ١٤ .

(٣) راجع نص الرسالتين ، رسالة نوري ورسالة جعفر في الملحق الرقم ١٥ .

(٤) جريدة العراق بتاريخ ١٤ حزيران ، ١٩٢١ .

بين الحسين شريف مكة ونقيب بغداد (١). فاستقبله جون فيلبي (Philby) ممثلاً المندوب السامي ، وبعض الموظفين والمستشارين البريطانيين ، وجمهرة من اعيان البصرة ومن جملتهم متصرف اللواء احمد الصنعاني (الصنعي). ويذكر علي جودت الذي رافق فيصلاً في زيارته البصرة في مذكراته ان فيلبي لم يحسن استقبال فيصل ولم يحتف به كما يليق بمقامه . وقد اراد فيلبي ان يكون الاستقبال الفاتر الذي استقبل به فيصل دليلاً على انه رجل تعوزه الشعبية في العراق (٢) . وكان موقف فيلبي المعادي تجاه الشريف وانجاله يحمله يأخذ بالمبدأ القائل «ان العراق للعراقيين » وهو شعار اطلقه آل النقيب وتوفيق الخالدي وحكمت سليمان والشاعر المشهور معروف الرصافي . والواقع ان انعدام الحماسة في استقبال فيصل والاستعدادات الناقصة التي اتخذت في منطقة الفرات الأسفل والاوسط لاستقبال العاهل العراقي يجب ان تكون وثيقة الصلة بالتدابير التي كان فيلبي يعدها في تلك المناطق لأقامة حكم جمهوري . ولكن عندما رجع فيصل الى بغداد في ٢٩ حزيران شكا فيلبي وسوء تصرفه نحوه الى كوكس . وعقب ذلك ان تخلى فيلبي عن منصبه في شهر تموز . عندها ارتأى كوكس ان قضية انتخاب فيصل وتتويجه يجب ان تسوى من دون تأخير . وكان كوكس يرغب في اجراء استفتاء شعبي كما انه كان يرغب في حشد اكبر عدد من المؤيدين لفيصل كي يبرهن للناس انه يمثل صوت الشعب وارادته . وقد بذل الانكليز ما في وسعهم ، عند المباشرة بالاستفتاء الشعبي ، لكي تأتي النتائج بحسب مشتهاهم . فاقترح النقيب – نزولاً عند تعليمات كان قد تلقاها من كوكس – في الحادي عشر من تموز ، على مجلس الدولة مشروع قرار ، وافق عليه المجلس بالأجماع ، يقضي باعلان الأمير فيصل ملكاً على العراق . ثم راح كوكس يلعب دور الفريق المحايد الذي لا مصلحة له في الأمر ، فأصر على انه من الضروري ، قبل الموافقة على القرار الذي اصدره مجلس الدولة بالاجماع ، وتعزيزاً لموقفه الحيادي من الأمر ، ان يعود الى الشعب يستفتيه مباشرة كي يعبر عن ارادته وموافقته (٣). وعليه اوعز كوكس الى المجلس ان يطلب من وزارة الداخلية اتخاذ خطوات في هذا السبيل ، اي لأجراء الاستفتاء . ولكن الذين عبّروا عن رأيهم في هذا القرار كانوا في معظمهم من متصرفي الألوية ومستشاريهم من الموظفين الانكليز . ففي كربلاء دعا المستشار البريطاني الى عقد الاجتماعات لملء المضابط المطبوعة والتوقيع عليها . وكانت المضابط هذه تتضمن أسئلة تتعلق

---

(١) مذكرات جودت ، ص ١٤٤ .
(٢) مذكرات جودت ، ص ١٤٤ .
(٣) C.O. 696, vols. 3-4, **Administration Report,** 1st. october, 1920-31st march, 1922, 9.

بالانكليز وبوجودهم في العراق ، واخرى تتعلّق بمطالب الوطنيين ، فكان من الطبيعي ان تشجّع السلطة البريطانية المقترعين ، وفي صورة رسمية على الاقتراع لهم ، كما انه كان من الطبيعي ان تعمل السلطة على حمل الناس على الاّ يقترعوا ، تحت طائلة العقاب ، الى جانب المطالب الوطنية ، كما جرى مثلاً في الديوانية . وهذا ما حمل الشيخ مهدي الخالصي ، وهو عالم شيعي يتمتّع بمكانة رفيعة ويحظى باحترام الناس له ، على اصدار فتوى يصرّ فيها على التحرر من كل قيد خارجي او تدخل اجنبي . وتشكّل حزب كان هدفه إثارة المتاعب والقلاقل في وجه الانكليز (١) . امّا في بغداد فقد استمرّت المعارضة الشديدة في المطالبة بوضع مضابط ضد الانكليز ، وكانت الشيعة تقود هذه المعارضة . واخيراً اذعن المتصرّف في وجه الضغط المتزايد ودعا الى عقد اجتماع في ٢٨ تموز ، ١٩٢١ ، يضمّ الأعيان والوجهاء ، متذرّعاً بأنه ينوي ان يبحث معهم في صورة المضبطة الرسمية قبل ان توزّع على احياء المدينة. وبالفعل دعا الوجهاء ولكن الاجتماع ، بمعرفة المتصرّف او بدون معرفته ، ضمّ جمهوراً كبيراً من الناس غير المدعوين وكان اكثر من نصفهم من الشيعة . ثم ان المتصرّف تلا عليهم نصّ المضبطة وسأل اذا كانت تروقهم وتحظى بموافقتهم . غير ان المحرّض الأوّل على الأثارة والشغب في ذلك الاجتماع كان الشيخ مهدي الحلي ، الشاعر الاعمى الذي نظم القصائد الثورية التي كانت تتلى في المساجد في صيف ١٩٢٠ ، والذي كان قد خرج من السجن بسبب انتمائه الى جريدة الاستقلال. وعقبه خطيب شيعي آخر اصرّ في خطابه على ان الفتوى التي اصدرها الشيخ مهدي الحلي ملزمة يتقيّد بها كل مسلم . امـا الفئة المعتدلة التي حضرت الاجتماع فقد وجدت نفسها انّها اقلية صغيرة فلم تحاول ان تحتجّ او ان تعترض . كذلك وجد المتصرّف نفسه عاجزاً عن ان يعمل شيئـاً . واخيراً ، وفي اثناء الاجتماع ، وصلته رسالة من ناجي السويدي حملها الرسول فهمي افندي مدرّس ، وفيها يشير السويدي على المتصرّف بأن يضمّن المضبطـة الإضافات التي كانت الغالبية التي حضرت الاجتماع تطالب بها. وامتثل المتصرّف ودوّن الأضافات وقرأها على المجتمعين فوافقوا عليها بالأجماع ، ولم يرتفع صوت واحد بالمعارضة . وكان مخاتير الأحياء قد حضروا الاجتماع ومعهم نسخ من المضبطـة الرسمية التي اضيفت اليها البنود المعدّلة . وتمّ التوقيع على هذه المضابط المعدّلة في ٢٩ تموز في مساجد الأحياء المختلفة من بغداد (٢) . اما كوكس فأرغم المتصرّف على تقديم استقالته لانه سمح للوطنيين بان يضيفوا الى المضبطة بعض مطالبهم . ولكن

(١) نشرت جريدة «العراق» فتوى الخالصي في ١٦ تموز ، ١٩٢١ .
(٢) راجع جريدتي العراق ولسان العرب الصادرتين في ٣٠ تموز ١٩٢١ .

الملك فيصل تصرّف إزاء هذا الأمر وكأنه شيء لا ينبغي ان يؤبه به ، وقال انه عندما تتم له البيعة فان هذه الأمور التي رافقت الاحداث الاخيرة سينتهي امرها وتصبح نسياً منسياً (١) ولكنه استدعى اليه محمد الصدر – الذي كان المحرّض الاول في اجتماع بغداد – وابلغه بانه سيعطيه مهلة ثلاثة ايام ليستعيد بنفسه خطورة الموقف الذي يتخذه من السلطة ، واذا استمرّ ، بعد انقضاء هذه المهلة ، في وضع العصيّ في عجلة الدولة فللسيد الصدر ان يتوقع النتائج القانونية المترتبة على تصرفه هذا . وقد عمل هذا الانذار الذي وجّهه الى الصدر ، والخطاب الذي ألقاه في نصارى بغداد يوم الثلاثين من شهر تموز على إنهاء الحادث وتهدئة الحال الى حين . ومهما يكن من امر فان النتائج الرسمية التي أسفر عنها الاستفتاء أظهرت ان ٩٦ في المئة من المقترعين صوّتت الى جانب انتخاب فيصل ، واربعة في المئة ضدّ انتخابه . وهذه الاربعة في المئة كانت اصوات الاتراك والاكراد في منطقة كركوك . ولكن المؤلّف يرى صعوبة في فهم كيفية الوصول الى هذه الارقام . فان سكان كركوك ، سواء أكان ذلك بناء على إحصاء السكان الذي جرى سنة ١٩١٨–١٩١٩ ، ام بناء على إحصاء سنة ١٩٣٠ يؤلفون قرابة ستة في المئة من مجموع سكان العراق ، باستثناء السليمانية التي قاطعت الاستفتاء .

ثم عقّب هذه الحوادث سوء تفاهم بين فيصل ووزارة المستعمرات . ذلك بأن وزارة المستعمرات كانت قد ارسلت برقية الى كوكس تقول ان على فيصل ان يُعلن في خطاب التتويج ان السلطة النهائية في العراق تستقرّ في منصب المفوّض السامي البريطاني . فاحتجّ فيصل على هذا الأمر فوراً ، وأشار الى انه قَبِل الترشيح للعرش شرط ان تجري مفاوضات لعقد اتفاقية تحالف بين بريطانيا والعراق لتحلّ محلّ الانتداب ، وبذلك يحافظ على هيبته واحترام الناس له . وكان كوكس يرى انه من الامور الحيوية ان يظهر فيصل امام اهل العراق ملكاً مستقلاً متحالفاً مع بريطانيا ، هذا اذا شاء استمالة الوطنيين المتطرفين الى الوقوف بجانبه . فارسل كوكس الى وزارة المستعمرات يقول ان بريطانيا تستطيع ان تمارس سيطرتها على العراق سيطرة كافية باساليب خفية مستترة لا مفضوحة كالاسلوب الذي اقترحته وزارة المستعمرات . وعادت وزارة المستعمرات عن رأيها وعدّلت التعليمات التي كانت قد ارسلتها وذلك قبل حفلة التتويج بايّام قلائل . وحسب الاصول الدستورية قدّم النقيب واعضاء المجلس استقالتهم الى الملك الذي شكرهم على خدماتهم السابقة وطلب اليهم الاستمرار في تصريف الشؤون الى ان تُشكّل وزارة جديدة . وفي ١٥ آب طُلب الى النقيب

---

(١) I.O. L/PS/10,301 op. cit. no 21, p. 19

تشكيل اول وزارة في المملكة العراقية الجديدة (١) . ولكي يظهر فيصل تقديره واحترامه للشيعة الذين كانوا يطالبون بالاستقلال التامّ بغيرة وحماسة ، اختار يوم الثالث والعشرين من شهر آب يوماً لحفلة تتويجه ، وهذا اليوم يصادف عيد ذكرى الغدير وهي الذكرى التي تحييها الشيعة لمناسبة تعيين الأمام علي خليفة وإماماً وذلك في خطبة الوداع التي القاها النبي عند ذلك الغدير . وتثبيتاً لسلطته الدينية ايضاً أمر فيصل ان يُدعى له في خطبة الجمعة على غرار ما كان يُدعى للخليفة امير المؤمنين في العهود السالفة . وفي خطاب التتويج شدّد الملك فيصل على ان المهمة الرئيسية الاولى التي سيواجهها عاهله هي اجراء الانتخابات والدعوة الى انعقاد المجلس التأسيسيّ (٢). والمهمة الأولى التي ينبغي للمجلس التأسيسي ان يقوم بها « التصديق على المعاهدة التي سأضعها أمام المجلس ، والتي ستنظّم العلاقات بين حكومتنا وبين حكومة بريطانيا العظمى ». (٣) وينبغي القول ان وجود فيصل على رأس الدولة العراقية خلق شعوراً بالوحدة بين مختلف الطوائف العراقية . فقد كان لقدم الوفود العديدة التي جاءت من جميع انحاء العراق لتحضر حفلة التتويج وتُهنّيء الملك الجديد اكثر من نفع واحد . ولم يقتصر النفع على الفسح للملك في المجال للتعرّف الى زعماء البلاد وقادتها والتفاهم معهم بل انه مكّن العراقيين انفسهم من التعرّف بعضهم الى بعض وخلق روابط بينهم تساعدهم على العمل معاً لغاية وطنية مشتركة . وقد كانت مدة مُلك فيصل على العراق اثني عشرة سنة .

---

(١) J.O. L/PS/10, 301, op. cit, no. 21, p. 13.

(٢) **Baghdad Times, August 24th 1921.**

(٣) المصدر ذاته .

الشيعة والسياسة البريطانية: تحليل وتقييم

كان هدفُ السياسة البريطانية القريب في شبه الجزيرة العربية اقامة تحالف مع الشريف حسين ، ومع زعماء القبائل الأخرى الذين كانوا اقلّ شأناً من الشريف ، بغية ارباك الاتراك وتوريطهم وارغامهم على سحب كتائب من جيوشهم من ساحات الحرب الرئيسية ، واخيراً منع الالمان من الوصول الى شواطىء شبه الجزيرة العربية . في كلام آخر ، كان الانكليز يعتبرون الحركة العربية وسيلة لا غاية في حدّ ذاتها. ولكن كان لزاماً على الانكليز ان يخفوا هذه الاهداف البعيدة بستار من العطف على الأماني العربية ومن الأخذ بناصرها غير متجاهلين ما ستكون عليه العلاقات البريطانية- العربية بعد انتهاء الحرب . في هذا الأطار راحت السياسة الانكليزية تضع الخطوط العريضة للسياسة التي سيتبعونها في العراق ، ويعملون على تحقيقها . وكان واضعو السياسة البريطانية والمخططون لها في العراق يعتبرون الشريف حسين رجلاً يستطيع ان يمارس الضغط على اهل العراق ، وان يوحّه الرأي العام بطريقة تضمن للانكليز وجوداً عسكرياً وممارسةً للهيمنة والسلطة هناك . وفي سنة ١٩١٦ كان الانكليز يتدارسون السُبُل التي تمكّنهم من الانتفاع بالثورة التي قام بها الحسين ضدّ الاتراك والاستفادة منها في القطر العراقي (١) . ولكنهم اكتشفوا ، بواسطة التقارير التي كان الضباط السياسيون يبعثون بها الى دوائرهم ، ان الثورة العربية لم تُثِر في نفوس رجال القبائل العراقية اي حماسة او اهتمام ، اذ يجب ان نتذكر ان معظم هذه القبائل كانت من الشيعة . وكان معظم العراقيين قد تلقوا خبر نشوب الثورة العربية بشيء من الفتور واللامبالاة ، واعتبروا ثورة الشريف في هذا الظرف عملاً غير مستحسن . ويرى المؤلّف ان العراق ، منذ سنة ١٩١٤ ، ان لم يكن قبل هذا التاريخ ، كان يشكّل مشكلةً منفصلة متميّزة عن غيرها من مشكلات العرب ، والتي يجب ايجاد حلول خاصة بها .

---

(١) J.O. 371/2774 (44/147603/42233).

كانت الفترة الواقعة بين سنة ١٩١٤–١٩١٨ في العراق ، بالنسبة الى الانكليز ، فترة تردّد وحيرة . وفي هذه الفترة ايضاً أصبح العراق تربة خصبة لنشوء اضطرابات سياسية. وكان السبب الرئيسي في تردّد الانكليز وحيرتهم هو انهم كانوا لا يزالون يفاوضون الشريف حسين حول مستقبل العراق . مثالٌ على ذلك ما كتبه هويل (١) (Howell) الضابط السياسي في الناصرية ، حيث قال . « انني لا اعرف اكثر مما تعرفه انت عمّا سيجري في هذا القطر » (٢) . وكتب ديكسون نفسه يقول : «لقد كنا نتخبّط في ظلام دامس في شأن سياسة حكومة جلالته » (٣) . ولأنّ العسكريين البريطانيين والسياسيين في العراق كانوا يتخبطون في ظلام دامس في شأن السياسة البريطانية المقبلة هناك ، فقد وقع سوء تفاهم وتصادم بين كوكس ومود ، وفي ما بعد بين ولسن وهلداين اذ كان كلّ منهم يصرّ على ان يلعب الدور البارز في سياسة العراق . ومن المرجّح ان يكون السبب في وقوع سوء تفاهم وتصادم بين الجنرال مود والسير برسي كوكس هو ان كوكس أولى لافضلية لوظيفته كحاكم مدنيّ للأراضي المحتلة على وظيفته كمستشار سياسي للقيادة العامة في العراق (٤) .

تحديد مناطق السلطة

لقد كان هناك غموض وابهام في تحديد مناطق السلطة والصلاحيات . فقد كانت وظيفة الضبّاط السياسيين الرئيسية تعنى الى حدّ بعيد بالمحافظة على تنشئة علاقات ودّية بين سكان العراق والدولة البريطانية والحيلولة دون نشوب اعمال عدائية مكشوفة ضدّها . هذه الوظيفة في نظري كانت – مع العلم ان الغاية القصوى هي متابعة الحرب حتى نهايتها . وسير العمليات العسكرية على أحسن وجه – اهمّ بكثير من التعكير في امور شكلية على شيء من التفاهة . مثلاً كانت الادارة المدنية تُولي اهتمامها لدقائق التفصيلات المتعلّقة بحدود الألوية الجغرافية في الوقت الذي كان الاتراك لا يزالون يحتلون جزءً كبيراً من البلاد . وفي الوقت الذي لم يكن فيه الانكليز

---

(١) وقد حظي المؤلف بمقابلة فلبس ب . هويل في مدينة كيمبردج في الخامس من تشرين الثاني ، ١٩٧٠ .

(٢) Private Papers of major H.R.P. Dickson, of cit., DS 77 (DS51. B3).

(٣) Private Papers of major H.R.P. Dickson, op. cit., DS 77 (DS51-B3).

(٤) Cab. 21/60; minute by the Director of military Intelligence on Maude-Cox question, 10.8. 1917.

قد أتموا احتلال ولاية البصرة ، ولا سيما منطقة شط الحي - اخذوا يفكرون ، في هذه الفترة بالذات ، في كيف ستسنى لهم إدارة لواء بغداد الذي كان جزء كبير منه لا يزال في قبضة الاتراك . وفي اثناء الحملة العسكرية ، والمعارك لا تزال قائمة ، كان أولئك الضباط السياسيون يثيرون سخط الجنرال مود بعرضهم عليه تفاصيل السياسة التي سيتبعونها في الأدارة المدنية واجزاء كثيرة من البلاد لم تزل في ايدي الأتراك (١) .

موقف الانكليز من الاهالي

من الاسباب التي كان يتذرع بها دعاة الحملة العسكرية الى العراق ، والتي جئنا على ذكرها سابقاً كما يذكر القارىء الكريم ، الأمل بأن احتلال العراق يضمن لبريطانيا مساعدة العرب ضد الاتراك والوقوف الى جانبهم مما يحول دون اشتراكهم في الجهاد المقدس (٢) . واعتباراً من هذا أخذ الضباط البريطانيون السياسيون يرسلون بالبلاغات الى شيوخ الخليج والى العرب في شبه الجزيرة العربية التي كانت تحت سلطة العراق ، قبل احتلال البصرة وبعده (٣) . وتؤكد هذه البلاغات والأعلانات ان « هذه الحرب لا علاقة لها اطلاقاً بالأمور الدينية » (٤) . كما انها كانت تحث الشيوخ على الا يسمحوا بتضليل الناس بالتحدث عن الجهاد. وقيل لعرب البصرة ان يكونوا على ثقة من « ان الحكومة البريطانية لا تضمر عداء ولا تكن نوايا سيئة ضد الاهلين ، وانها لا ترغب في ان تعتبرهم اعداء طالما انهم انفسهم يظهرون الود والصداقة والحياد وطالما انهم يمتنعون عن حمل السلاح ضد الجيش البريطاني » . لا بل ان الأمر على نقيض هذا إذ ان الحكومة لبريطانية تأمل « ان تبرهن عن انها صديقة وحامية » . كما انهم قطعوا العهود لاهل البصرة انهم في ظل العلم البريطاني « سينعمون ببركات الحرية ونعمها وسيتمتعون بالعدالة في الأمور الدينية والأمور الدنيوية » (٥) . والى جانب هذه الدعوة كان هناك تحذير من انه « على الرغم من ان الحكومة البريطانية ترغب في تحرير العرب من ظلم الاتراك ، وعلى الرغم من انها ستسعى صادقة لتوفير التقدم وازدياد الازدهار والتجارة للأهلين ، فانها ، اذا شعرت بأن بعض الناس تحدوا عن

---

(١) Cab. 21/60.

(٢) Moberbey, Brig. Gen. F.J., *History of the Great war based on official Documents*, vol. I. , 86.

(٣) Compilation of Proclamations, notices etc. relating to Mesopotamia, oct, 31st, 1914 — to August 31st 1919 (Baghdad) 1919, notice nos. 1, 5, 7,8.

(٤) op. cit. notice no I oct. 31 st, 1914; no 2 nov. 1st. 1914.

(٥) op. cit., Proclamation no. 5, nov. 22nd, 1914.

العداثة ، وعن الموقف الحيادي . وحملوا السلاح تعاوناً مع العدو ، فان ممتلكات هؤلاء الاشخاص الواقعة ضمن السيطرة البريطانية تعتبر املاكاً مصادرة لحساب الحكومة البريطانية » (١) .

مشكلة استمالة العرب وحملهم على التعاون

لم تكن هذه التطمينات التي انطوت عليها البلاغات . ولا التحذيرات المبطّنة التي وجهت الى الاهلين ، ولا الجهود التي بذلها السير برسي كوكس ومعاونوه من الضباط السياسيين ، لتجدي نفعاً في استمالة عرب البصرة ككل الى جانب الانكليز. كان حل مشكلة استمالة العرب وحملهم على التعاون مع الانكليز يتوقف الى حد بعيد على قدرة الانكليز وكفاءتهم في تقديم البراهين الحسّية على انهم صادقون في اقوالهم مخلصون في نواياهم . كانت متطلبات الجيوش البريطانية في البصرة وحاجاتها كثيرة متنوّعة وهذه الحاجات اقتضت اصدار سيّل من الاوامر المسهبة ، والبلاغات ، والاعلانات المتكرّرة التي اصدرتها القيادة العامة واوكل امر تنفيذها ، في الاكثر ، الى البوليس العسكري والمحاكم العسكرية . وهذه الأوامر العسكرية هي التي كانت تحدّد وتنظّم العلاقات بين الاهلين والجيش . وكانت تراوح بين القوانين لتحديد ايجار السكن ، واسعار المواد الغذائية (٢) ، والتضييق على تنقلات الاشخاص ، والحد من حرية الملاحة النهرية . وبين القوانين التي كانت ترغم سائقي العربات (العربجية) والملاّحين في المراكب النهرية على إعطاء الأولويه للضباط البريطانيين والنساء الاوروبيات وموظفي الحكومة (٣) . كما انها كانت اوامر وقرارات تراوح بين ضبط حمل السلاح من قبل الاهلين (٤) . وبيع المشروبات الروحية والأدوية (٥) ، وبين قوانين دقيقه مفصّلة تتعلّق بالقوانين الصحية من حجم المساحة التي يسمح بها لكل حيوان في الاسطبل او الزريبة ، والمكافأة التي تمنح لمن يمسك كلباً شارداً ويأتي به الى الجهة المختصة لقتله (٦) وبالجملة كانت حاجات الأهلين ثانوية تخضع

---

(١) Compilations of proclamations, notices, etc. relating to mesopotamia, oct. 31 st, 1914 to aug. 31st, 1919. (Baghdad) 1919, notice no. 7, Feb, 14th 1914.

(٢) Compilation of proclamations and notifications affecting Civil Inhabitants of mesopotamia in Basrah, (Baghdad, 1919) notification no. 2.

(٣) op. cit, Reg. no 12, sec. 11.

(٤) المصدر ذاته .

(٥) op. cit. Reg, no 12 sec. 9

(٦) المصدر ذاته ، رقم ١ ، ١٠ .

لتوفير حاجات جيش الاحتلال اولاً . وفي بعض الحالات كان يُسمح بدخول الاطعمة الاسواق لبيعها بعد ان تكون حاجات السلطات العسكرية قد تأمنت اولاً (١). وكان الأهلون يمنعون من الوصول الى المياه النقية المضخوخة (٢) . وكانت العائلات تُرغم على اخلاء منازلها، كما ان اراضيها كانت تُصادر ، واحياناً من دون دفع ايجار او بدل (٣) . وكان التضييق على تنقلات الاشخاص والبضائع جائراً الى حد لم يكن له من مبرر ، حتى بعد زوال خطر التجسس (٤) . وكان العمال ، وبأعداد كبيرة تتزايد يوماً عن يوم ، يرغمون على ترك حقولهم وقراهم وعلى مغادرة عيالهم ليعملوا في مشاريع عسكرية عن طريق السخرة . واعمال السخرة هذه كانت الشكوى الرئيسية ضد السلطات البريطانية ، كما كانت في مصر ايضاً ، والتي كان الأهلون يشكون من ظلامتها . وقد ارسل الحاكم المدني برقية الى وزير الخارجية في ١٣ تموز ، ١٩١٩ ، يقول فيها انه «يشعر كما تشعر معه القيادة العامة بأن إلغاء السخرة في اقرب وقت ممكن امر على غاية من الأهمية » .

وضع السياسة موضع التنفيذ

ولكي توضع هذه الاوامر والقوانين موضع التنفيذ – وكثير منها كان على كثير من القسوة والصرامة – كان لزاماً على الضباط السياسيين ان يعالجوها بكثير من المرونة . وقد بدا جلياً واضحاً ، بعد احتلال البصرة والقرنة والعمارة ، أن كسب صداقة الاهلين وثقتهم – وكان هذا تعهداً وغاية من غايات الحملة العسكرية – وضع الموظفين البريطانيين في مأزق حرج . ذلك بأن السلطة العسكرية عسرت على الموظفين السياسيين في العمارة امر استمالة الأهلين وكسب ثقتهم وصداقتهم . مثال على ذلك هو ان الحاكم العسكري في العمارة أصدر بياناً في ٢٦ تشرين الاول ، ١٩١٥ ، يقول فيه :

« لقد لحظ الحاكم العسكري العام ان الاهلين لا يؤدون التحية للضباط العسكريين كما كانوا قد أُمروا بذلك في بلاغ صدر في ١٦ ايلول . نذكّر الأهلين بأنه ينبغي عليهم عندما يمرّ ضابط بريطاني ان يقفوا ويؤدوا التحية . ومن لا يمتثل هذا الأمر

---

(١) Proclamations, Amarah, proc. no.1 Sec. 14.

(٢) Proclamations, Amarah, notice no. 3

(٣) لم يدفع بدل ايجار ، منذ الاحتلال ، للمساكن المبنية على مسافة اربعة اميال على ضفة النهر ، والتي كان البريطانيون يشغلونها في العمارة .
Monthly Reports, Political officers, Dec. 1918, Amarah, p. 2

(٤) CD. 1061, p. 24.

يعرّض نفسه للجزاء ».

ان من يعرف شوارع العمارة وشوارع المدن العراقية الأخرى يعلم ان على جانبي الشارع عدداً كبيراً من المقاهي المزدحمة بالناس في كلّ ساعة من ساعات النهار. ومعنى البلاغ الذي اصدره حاكم العمارة هو انه كلما مرّ ضابط بريطاني فعلى جميع رُوّاد المقاهي ان يقفوا ويؤدُّوا التحية. ان هذا الأمر استغلّه دعاة الاتراك في العمارة سانحة لأشاعة الاقاويل والاخبار المناوئة لمصالح الانكليز. وكان هؤلاء الموالون للاتراك يقولون للناس ان الاتراك ما امروا قطّ الاهلين في العمرة بأن يقفوا ويؤدّوا التحية اذا مرّ بهم ضابط تركي. كما انه فسح لقبيلة بني لام. وزعيمها الشيخ غضبان بنيّة — وكان معروفاً عنه انه من اشدّ انصار الاتراك في المجال لتجنيد الجواسيس والقنّاصة ليكونوا في خدمة الاتراك.

متناقضات الوضع

لقد كان الوضع مثقلاً بالمتناقضات. ذلك بأن الحملة العسكرية كانت تغزو ارض عدو في الوقت الذي لم تكن فيه بريطانيا في حالة حرب مع سكان هذه الأرض كما سبق ان اعلنت ذلك عند نزول الجيوش البريطانية في الفاو (١). والواقع ان حكومة بريطانيا كانت قد اعلنت ان جيوشها اتوا لمساعدة العرب والتعاون معهم على التحرر من ظلم الاتراك (٢). وعلى الرغم من هذه التصاريح الواضحة فان القيود التي فُرضت على الاهلين لم تكن تختلف كثيراً — اذا كانت فعلاً تختلف — عن القيود المفروضة على العدو. ومما لا شك فيه ان الوضع زاد تعقيداً عندما رفض كثير من العرب اعتبارَهم من اصدقاء الانكليز باتخاذهم اجراءات قاسية وتدابير صارمة لمحاربة المستوى المتردّي للصحة والنظافة والأسكان والاخلاق العامة السائدة في القطر العراقي. وقبول العراقيين بالحكم العسكري يعود الى اسباب وعوامل متنوّعة. منها ان الانكليز كانوا يدفعون فوراً ثمن المواد والمؤن التي كانوا يشترونها، وبدلات الايجارات للارض وللثكنات العسكرية — على الرغم من ان الدفع لم يكن دوماً بالنسبة الى الاسعار السائدة — ومنها عدم التدخل في الطقوس والشعائر الدينية التي كان الاهلون يمارسونها شريطة الاّ تكون عائقاً يحول دون سير العمليات العسكرية او السياسة الادارية المدنية، وازدهار عام ملحوظ في الحياة الاقتصادية، جميع هذه الامور عملت على التخفيف من حدّة القوانين وصرامتها. وقد كان موقف السلطات العسكرية، في صورة عامة، موقفاً

---

(١) **Proclamations, etc. 1914, 1919, notices no. 4, nov. 5th, 1914**

(٢) المصدر ذاته، البلاغ الرقم ٧ بتاريخ ١٤ شباط، ١٩١٥.

عدائياً ظاهراً إزاء الاهلين . وليس ذلك بدون سبب او علة (١) . على الرغم من وجود رغبة عامة لدى عدد من الضباط المسؤولين في ان يكونوا عادلين لطفاء عند التعامل مع الاهلين . وقد أفلح السير برسي كوكس ومعاونوه في اقامة علاقات ودّية مع الزعماء . وفي الوقت ذاته كانت بريطانيا تمنح الشيوخ والاعيان المحببين مساعدات مالية واعفاءات ضرائبية (٢) .

السياسة المتعلقة بالعمال والعمل

مهما تكن اخطاء العهد التركي . وهي اخطاء عديدة ، فانه كان العهد الوحيد الذي عرفته الجزيرة العربية في العهد العثماني . وكان الناس هناك قد ألفوا ما كانت عليه الحكومة التركية من اهواء وتقلبات . وعرفوا نقائصها واخطاءها فكانوا يشيحون بابصارهم عنها وينصرفون الى شؤونهم . وزوال الحكم التركي بانسحاب الاتراك التام في شهر ايلول من سنة ١٩١٥ شمالاً حتى كوت العمارة . وهرب جميع الموظفين باستثناء عدد قليل من الموظفين العرب . واتلاف الوثائق او سرقتها من قبل الاتراك الهاربين ومن قبل الاهلين الذين لهم مصالح في اتلافها ، ونهب البنايات الحكومية وسرقة ما فيها من أثاث وتجهيزات . جميع هذه الامور فرضت إعادة انشاء ادارة حكومية جديدة . بعد ان زالت الفوضى التي كانت سائدة ، وبعد ان عادت الامور الى مجراها الطبيعي واعتاد السكان في الاراضي المحتلة رؤية الجنود البريطانيين ، وألفوا قوانينهم واجراءاتهم ، اخذ الانكليز يفكّرون في إقامة ادارة مدنية . وفي السنوات الأولى للحرب كان الجيش البريطاني ، بسبب قلّة الايدي العاملة ، قد استقدم عدداً من العمّال الهنود . فكان الجيش البريطاني ، مع الأدارة

---

(١) لقد جابه الجيش البريطاني مصاعب شتى منها الجو العراقي القاسي ، وطبيعة الارض ، والمرض ، وادهى من هذا عدم معرفة الانكليز نوايا شيوخ القبائل : هل كانوا معهم ام ضدهم ، وجميع هذه العوامل خلقت في اذهان العسكريين نوعاً من العداء نحو الاهلين . وقد كتب فيليب غرايفز (Graves) مؤلف سيرة برسي كوكس ، يقول : « ليس من الأسراف في شيء اذ قلنا ان معظم العسكريين البريطانيين كانوا يبغضون العرب بغضاً شديداً » . (P. Graves, *The Life of Sir P. Cox*, p. 193)
وهذا الموقف العدائي نحو العرب كان يشترك فيه ايضاً الضباط في امراتب العسكرية الرفيعة . ولقد كان الجنرال مود ، القائد العام ، الذي كان يعتبر ، من سخرية القدر ، صديقاً للعرب ومحرراً لهم ، يشك كثيراً في امكان اقامة اي نوع من التعاون مع الاهلين . (J.O. 371/3056/126945)

(٢) I.O., L/PS/10, 4537, (parts I and II).

المدنية اكبر مستخدم في العراق يحتاج الى ايد عاملة . وكانت الاعمال اليدوية الرئيسية الحمالة (العتالة) ، وشق الطرق وتعبيدها ، وبناء الخطوط الحديدية ، والري. وكانت قد ارسلت فصائل هندية من المساجين والحمالين الى العراق في اثناء سنة ١٩١٦–١٩١٧ . وكان عمال السجون من المجرمين المحكومين خفضت مدة عقوباتهم شريطة ان يعملوا في العراق . وكان عددهم قرابة ثمانية آلاف (١) . وبعد التوقيع على الهدنة اخذ الانكليز بارجاع العمال الهنود الذين كانوا قد استقدموهم الى العراق تدريجاً وأصبح اعتمادهم في العمل على عمال ايرانيين واكراد وعلى عدد كبير من اللاجئين المسيحيين (الاشوريين) من شمال العراق . ومهما يكن من امر فان الحاجة الى العمال الهنود ظلت قائمة حتى منصرم عام ١٩٢١ . وتدل الارقام على ان عدد العمال الهنود المستخدمين في شهر كانون الاول من عام ١٩٢٠ في مصلحة العمل كان قرابة ٢٤ الف عامل ، وفي النقل النهري حوالي عشرة آلاف ، وفي السكك الحديدية حوالي ١٩ الف عامل (٢) . ثم ان سياسة العمل بدأت تأخذ سبيلاً خاطئاً عندما قرر الانكليز إنشاء فرق من العمال العرب . فقد كان لأنشاء مثل هذه الفصائل العربية اثر سيء في نفوس العمال . وفي الاعمال الزراعية . فقد كان العامل العربي يؤخذ من حقله قسراً ليقوم بعمل يتطلب حذقاً ومهارة في مكان بعيد عن بيته واهله . والى جانب هذا كله كان يدفع له اجر زهيد. وعلى الرغم من ان الاسعار كانت في ارتفاع مستمر فان الاجور ظلت ثابتة على ما كانت عليه سابقاً (٤–٥ روبيات في اليوم الواحد اي ما يعادل ستة شلنات بمعدل ١٤ روبية للاسترلينية الواحدة) . وكان لأنشاء فصائل العمل ايضاً ، كما ذكرنا آنفاً، أثر سيء في سير الاعمال الزراعية . فقد كان العمال يؤخذون من الارض الزراعية للقيام بأعمال اخرى . يقول تقرير بعث به احد الضباط السياسيين : « ان سحب العمال المحتم الذي فرضته علينا ظروف الحرب من اعمالهم السابقة لا بد من ان يكون له أثر سيء في القطاع الزراعي. ففي منطقتي العزيزية وبوغيلة حيث نسبة عدد السكان ضئيلة جداً مناطق زراعية واسعة يمكن الاستفادة منها في الاعمال لزراعية ، ولكنها الآن مناطق بور مهملة لان الطلب على العمال في الخطوط الحديدية والطرق واعمال الحمالة في المعسكرات يحول دون توسيع الاعمال الزراعية ويشكل ضغطاً متزايداً على الاعمال الزراعية المحدودة

---

(١) Wilson, *Clash of Loyalties*, 46-47

(٢) Debates, H.C., 22.3. 1921, vol, 139,2402

هناك (١) ».

سياسة الواردات

في سنة ١٩١٨–١٩١٩ ـ عندما لم يكن الانكليز قد استولوا على البلاد بأسرها ، استطاعوا ان يحصلوا ، عبر الواردات المحلية ، على ما يقرب من عشرة ملايين روبية (اي على ما يقرب من مليون استرلينية بمعدل عشر روبيات للأسترلينية الواحدة كما كان معدل القطع في سنة ١٩١٩) الأمر الذي كان يخفف من تحمل النفقات التي كانت تتحملها الخزانة البريطانية في الإنفاق على الادارة المدنية في العراق . اما في السنة التالية فأنهم جمعوا خمسة أضعاف المبلغ هذا ، اي خمسة ملايين استرلينية (٢) وكان هذا يعني ان الانكليز ، في سنة ١٩٢٠ كانوا يديرون شؤون بلد يقطنه شعب فقير معدم جداً عدده اكثر من مليوني نسمة ، اي بمعدل ضريبة سنوية قدرها خمسة ملايين استرلينية . وقد علّق النائب البريطاني اورمزبي غور (Ormsby Gore) في مجلس العموم بقوله : « عندما تقابل هذه الضريبة السنوية بموازنة اللورد كرومر في مصر تدرك فوراً فداحة الضريبة التي نفرضها نحن على العراقيين » (٣). ولنا ان نستنتج من هذا ان الانكليز كانوا على غاية من التسرع في امرهم في العراق . فانهم كانوا يحاولون خلق ادارة مدنية في العراق تتألف بكاملها من الانكليز والهنود ، واحتلال كل بوصة من الارض — إدارة يديرها ضبّاط سياسيون ، وتشمل اعمال الريّ ، وتتولى جميع متطلبات الدولة الحديثة التنظيم . أضف الى هذا ان وجود جيوش هندية على ارض العراق كان سبباً في نشأة مصاعب سياسية كثيرة . لكي ينجح المرء في إدارة شؤون العراق ، على ما هم عليه سكانه من اختلافات عرقية ، ينبغي له ان يتأنى في كل خطوة يخطوها ، والاّ يتسرع في وضع التصاميم الأنشائية . فان سياسة الواردات التي كانوا يتبعونها ولا سيما في المناطق القبلية من لواء المنتفق ، كانت تسيء الى الاهلين ، ولم تحظ برضاهم في ذلك اللواء . ففي سنة ١٩٢٠ كانت واردات الألوية الشيعية الثلاثة تقدّر بـ ٥٥،٣٣،١٠٠ روبية او ما يقرب من ربع واردات الألوية الاربعة عشر (راجع تقديرات الموازنة لسنة ١٩٢٠–١٩٢١ ص. ٤) . وكانت النفقات الخاصة بالألوية الثلاثة ١٩,٢٩,٤٤٠ روبية (راجع تقديرات الموازنة لسنة ١٩٢٠–١٩٢١ ص

---

(١) J.O. 371/3401/46 114 Amemorandum (**Arab Labour in Occupied Territories,** by the Chief Political officer's Office on 6th December, 1917.

(٢) **Debates H.C.** 23.6. 1920, vol 130, 2240

(٣) المصدر ذاته .

٥) (١) . إنَّ القبائل التي كانت تدفع هذه الضرائب الباهظة – وبعضها للمرّة الاولى في تاريخها كقبيلة بني هشيم مثلا – لم تجد اي نفع يعود عليها ، وعلى مناطقها ، ويتناسب مع ما تدفعه للدولة من ضرائب . وفي اكثر من مرّة واحدة قصف الانكليز بطائراتهم قرى بسبب تعذُّر جمع الضرائب منها (٢) . ومما زاد في صعوبة تحصيل الواردات ان مكتب الهند لم يكن متوافراً لديه ارقام تفصيلية لمقابلة الواردات الصحيحة التي كانت الحكومة التركية تجبيها بما كانت الادارة البريطانية في العراق تجبيه لكي تتوصل الأدارة الى رقم معقول تستنير به عند جمع الضرائب (٣) .

السياسة القبلية

ان السياسة التي كانت تتبعها الادارة البريطانية إزاء القبائل في العراق كانت ، في الواقع ، السياسة المعدَّلة التي كانت متَّبعة في بلوخستان ، السياسة التي كان قد وضعها السير روبرت سندمان (Sandeman) . عندما بدأ سندمان ، لاول مرّة ، يضع نظاماً للقبائل في بلوخستان ، حوالي سنة ١٨٧٥ ، وجد ان النظام القبلي هناك كان آخذاً في الانحلال والتفسخ في صورة سريعة ، كما انه لحظ آنذاك ان سلطة زعماء القبائل وقوتهم كانت ايضاً آخذة في الضعف والوهن (٤). وفي العراق ، عند نشوب الحرب ، كانت القبائل ، ولا سيما قبائل الفرات الأسفل ، في الوضع ذاته نتيجةً لمحاولة الاتراك تحضيرهم او القضاء عليهم ، ولمحاولتهم مصالحة زعمائهم وشيوخهم ، او تحطيمهم . وكانت الحكومة العثمانية دوماً تعتبر القبائل العربية من الشعوب المتوحشة التي كانت ، بسبب خبثها ، تعارض الحكومة المركزية في بغداد . لكن الحكومـة البريطانية اعادت الاعتبار والسلطة والاحترام الى شيوخ القبائل الذين كانوا مسؤولين تجاه الضبّاط السياسيين المحليين . وكانت وظيفة الشيخ الاولى حفظ الأمن والنظام في مضارب قبيلته ، ثم جمع الضرائب المترتبة على رجال قبيلته . ولكن الاحداث برهنت على ان الشيوخ الذين كانت الحكومة البريطانية تتعهدهم وتسائلهم كانوا يسيئون استعمال السلطة التي أعطوها وراحوا يستغلونها لمصالحهم الخاصة . وكان

---

(١) C.O. 696 vol. 3, Administration Report, Muntafiq 1921, 31; Report of the Accountant, 1922-23 (Baghdad 1924), P.11-12; Report of the Operations of the Revenue Department, ministry of Finance, 1926-27, p. 23; Ibid., 1928-29, p.32.

(٢) F.O. 371/5228 (E 8483/2719/44).

(٣) المصدر ذاته .

(٤) J.R.C. Asian Society, jan. 1932, p. 51.

ربحهم الاول ناجماً عن فساد انتظام المتبع في تحصيل الضرائب . ولأن الانكليز كانوا يعطون الشيوخ نسبة مئوية من الضرائب في مقابل خدماتهم، فانهم، بدافع الأنانية، كانوا يحاولون ابتزار اكبر قدر من النفع على حساب رجال قبيلتهم . هذا الاستغلال دفع الشيوخ الثانويين ، شيوخَ العشائر الصغيرة ، الى اعتبار الشيوخ الذين تساندهم السلطة الانكليزية ، وكانوا يعرفون بالسراكلة (ومفردها سركال) حجرَ عثْرة في سبيل مصالحهم . وقد وجدوا في الحركـــة الوطنية القومية الجديدة سبيلهم الوحيد ليتخلّصوا من سلطة الشيوخ السراكلة ومن سلطة الحكومة معاً . والواقع انه في اثناء اضطرابات سنة ١٩٢٠ كان عداء الشيوخ الصغار ، في كثير من الاحيان ، موجّهاً ضد الشيوخ الكبار المعتمدين اكثر مما كان موجّهاً ضد السلطة البريطانية (١) . والانتقاد الرئيسي الثاني للسياسة التي كانت تتبعها الأدارة إزاء القبائل هو بسبب تدخل الانكليز المباشر في شؤون النزاعات الداخلية التي تنشأ بين القبائل. وكل تدخلٍ مباشر في النزاعات التي تقع في المناطق التي تنزل فيها القبائل ، اي خارج مناطق الحَضَر ، مؤهّل للفشل التامّ ، وهذا امرٌ مُعتَرَف به ويعرفه اهل العراق. فان الانكليز لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً لدى بعض القبائل الموالية لهم الضاربة عند الحدود العراقية ليحولوا دون غزوها القبائلَ الأخرى الموالية لها على تخوم نجد وسوريا ، سوى ان يحذّروها او يوجّهوا اللوم اليها ، ولكن مثل هذين التحذير واللوم لم يكونا ليجديا نفعاً . ولم يكن شيوخ القبائل يعتبرون انّ لعلاقاتهم مع الانكليز ايّ شأن ، او ايّ اثر في تحاسدهم وخصوماتهم التي لا تعني الآخرين فان سيطرتهم على شيخ كبير معروف كالشيخ فهد ابن هذّال لم تكن سيطرة تامّة ولا شاملة ومساندة الانكليز له وعضدهم اياه لم يمكّنا ابن هذال من ضبط اعمال الشيوخ الثانويين الذين كانوا اسمياً يخضعون لسلطته . ان فرض السيطرة التامة على القبائل يقتضي اقامة الحاميات العسكرية ومراكز للشرطة في جميع انحاء الصحراء ، وهذه مهمة لا يستطيع اكبر شيخٍ قبلي ، حتى ولا اي حكومة ، ان يقوما بها في هذا الوقت :

المشكلة الزراعية في لواء المنتفق

لقد رُفِعت تقارير ، وقُدِّمت مذكرات عديدة حول المشكلة الزراعية في لواء المنتفق . وجوهر المشكلة هو ملكية الأرض التي كان يدّعيها آل سعدون والقبائل

---

(١) C.O. 696, vol. 3, Shelswell. G.H., A.P.O. Samawah: Officiel Report on the causes of the Tribal Disturbances in the Samawah District, August 9th, 1920.

النازلة فيها . وهو نزاع تعذّر حلّه امداً طويلاً ، ويعود في منشئه الى عجز الحكومة العثمانية التام عن تفهم العلاقة القائمة بين الأقطاعي الذي يملك الارض وبين شيوخ القبائل التي تنزل فيها . وهذه المشكلة كانت سبب الاضطرابات التي عُرف بها لواء المنتفق في العهد العثماني . وقد نبّه السيد دوبس (Dobbs) رئيس مصلحة الواردات – وهو موظّف كانت إدارة الأراضي المحتلة في مراحلها الاولى مدينة له بالفضل – الى استحالة إقرار السلام والأمن في لواء المنتفق الى ان تُحلّ مشكلة ملكية الارض فيه (١) . ويسُرّ المؤلف ان يقول ان المشكلة في طريق الحلّ بأسلوب ينسجم مع الطبع العربي وسجاياه ، واضيف القول انه اسلوب يتفق مع مزاج الانكليزي وذوقه . فقد ارغم آل سعدون الأقطاعيون على التراجع وذلك لأنهم في خلال سنوات عديدة لم يتمكّنوا من جَمع الغلال والواردات العائدة لهم بحسب سَنَد الطابو الذي اعطتهم ايّاه الحكومة العثمانية . كما ان القبائل النازلة في اراضيهم جنت أرباحاً ماليّة في خلال ١٨ شهراً (من تشرين الثاني ١٩١٧ الى ايار ١٩١٩) من جرّاء استقرار الأمن والنظام . ناهيك بأنهم أصبحوا يدركون ان الأمن والنظام أجدى نفعاً من النزاع والخصام . كان كل نزاع ينشأ بين الأقطاعي والقبائل الضاربة في ارضه يُحلّ عند نشوئه بواسطة الضابط السياسي المحلي من دون اللجوء الى المبادىء والقوانين. كانت ملامح الحلّ الرتيبي لمثل هذا النزاع تتلخّص اولاً في وجوب تدخل الضابط السياسي الذي يدخل طرفاً وسيطاً ، وثانياً في وجوب توقيع جميع الاطراف المعنيّة على مضبطة الحلّ (٢) . وقد أصبح هذا الحلّ نوعاً من اتفاقية نهائية تحظى بموافقة الجهات الرسمية عليها . وفي سنة ١٩١٨ كان الانكليز لا يزالون في المرحلة الاولى من مراحل حلّ القضية برمّتها ، ولكن مما لا شك فيه ان الطريق قد مُهّدت لبلوغ الغاية المنشودة .

العلاقات بين السياسيين والعسكريين

لم تكن العلاقات القائمة بين العسكريين البريطانيين وزملائهم من الحكّام السياسيين حسنة ووديّة . فقد كتب الضابط السياسي في الناصرية ، ديكسون (Dickson) عن الأثر الذي خلّفه الموظفون السياسيون عند تسلمهم الحكم العسكري في القيادة العامة لجبهة الناصرية يقول : « يؤسفني ان اقول ان القيادة العامة لم تنظر الى القضيّة بعين الرضا . فقد كان القائد العام يعتبر نفسه ، كما اعتقد ، الحاكم العام المطلق الصلاحية ، واما الآن فهو مغتاظ لان السياسيين قد جرّدوه من هذه الصلاحيات

(١) I.O., L/PS/10, 470, Fortnightly Reports, no. 19, p. 29.

(٢) المصدر ذاته .

ومن هذه السلطة . وهذا مما يضاعف من المصاعب ومن العقبات التي تجابهني ، كما انه يقتضيني مزيداً من الحنكة والتؤدة لأصلح ذات البين . واول عمل قام بـه محاولته طردنا من الدار التي كان يشغلها القائد العام ، ومن المكتب الذي كان في تصرفه . ومن المزعجات التي تحز ، والتي من شأنها ان تزيد في صعوبة العمل ، الأمور التالية : اصدار تنبيه الى الجندي الممرض في المستشفى المدني بوجوب الالتحـاق بكتيبته ، وطُلب اليّ ان اتدبّر امر ايجاد بديل لـB.O.R ... في سوق الشيوخ ، كما اني أخبرت انه في خلال وقت قصير ينبغي لجميع الكتبة .B.O.R التابعين لي والعاملين في مكتب القائد العام ان يعودوا الى الالتحاق بكتائبهم ، كما انه ينبغي لي ان أجد من يحل محلهم . وقد جرى التفتيش على مركز العمل ، واظن ان الغاية من ذلك التخلي عنه من قبلنا لأعطائه مركزاً لموظفي الصحة . وجميع هذه المزعجات انهالت عليّ دفعة واحدة الأمر الذي وجدت النزول عنده امراً شاقاً ولاسيما انني مغلول اليدين . ولكني لن اقنط ، مهما يكن الأمر صعباً ، وآمل ان اتمكن من إعادة الامور الى نصابها وظنّي انّ الأمر يقتضي شيئاً من الحنكة واللباقة ، وشيئاً من صبّ الزيت على مياه مائجة ، ولكن العيب في الأمر ان تحدُث مثل هذه الامور التافهة . والمفروض الا تحدث ، ولاسيما ان كلّ واحد منا يحاول ما في وسعه لكسب الحرب » (١) . وفي ازدواجية الحكم ، عندما يتولى العسكريون والسياسيون المسؤولية ، تنشأ عادة نزعة الى مضاعفة عدد الموظفين وتوزيع السلطة بين هذا وذاك (٢) . وبالأضافة الى الضابط السياسي ومعاونيه في مصلحة الواردات كان هناك موظفون كثيرون في مصلحة العمل ، والري ، والموارد المحلية ، وفي مديرية النقل النهري . وكانت كل مصلحة او مديرية تسعى لتعيين ملاك خاصّ بها يمكـّنها من العمل مستقلة عن المديريات الأخرى ، ولا سيما اذا كان افراد الملاك يتمتعون بقسط من السلطة الجزائية التي بها تستطيع ان تنفـّذ اوامرها . في مثل هذا الوضع كان يكمن خطر اللاتعاون بين المديرية والضابط السياسي الذي قد يسفر عنه الميل لسدّ الحاجات المُلحـّة في مديرية ما على حساب الاعتبارات الأدارية لواسعة النطاق . ولقد كان من الضروري استنكار مضاعفة عدد الموظفين المحليين الصغار لا لانه امر يرهق مالية الدولة . بل لان يفسح في المجال لمزيد من الفساد الأداري .

الوضع بعد الثورة

كان الرأي الشعبي العام في مطلع سنة ١٩٢١ مُوجـّهاً ضدّ العلماء وضد طبقة

---

(١) Private Papers of major H.R.P. Dickson, op. cit., DS 77 (DS 51. B3).

(٢) I.O., L/PS/10, 470, Fortnightly Reports no. 15, p. 4.

الافندية في بغداد ، وكلاهما قادا حركة الاضطرابات التي وقعت في سنة ١٩٢٠ . وقد اتهمت هاتان الفئتان ، فئة العلماء والافندية ، بانهما خدعتا القبائل ، وكانتا السبب في كثير من البؤس والبلاء . وفي كل مضيف كان الناس يتناقلون اشاعات واقاويل عن المنافع التي جنوها (العلماء والافندية) في عهد الادارة البريطانية كسلفات البذار ، والسلفات المالية بفائدة قليلة وسواها من المنافع الشخصية . ويمكن ايجاز الموقف الذي كان يقفه اهل المدن ورجال القبائل في انه كان موقفاً يتسم بالندم ، وبالتوق الى الرجوع الى ما كانت عليه الامور سابقاً . وهو موقف متقلب عميق الجذور في الذهنية العراقية . ومن جهة ثانية نستطيع القول ان العلماء كانوا يتطلعون الى اقامة حكم ديني يكون على رأسه نائب الأمام ، المجتهد الاكبر . ولــذا فانهم يعارضون بكل ما أوتوا من قوة اي حكومة قوية تقوم في بغداد . قد يتغاضون عن وجود حكومة ضعيفة لا حول لها ولا تحول دون تحقيق طموحهم وامانيهم ، ولكنهم ، وفي كل تأكيد ، يسعون دوماً لأثارة المصاعب واقامة العقبات في وجه حكومة مركزية قوية . وبعد ان تشكلت حكومة فيصل أخذ علماء الشيعة وشيوخ القبائل ينصرفون عنها تدريجاً مظهرين لها العداء لان احداً من هاتين الفئتين ما كان يرى الاهداف التي كانت الحكومة تأمل ان تحققها . وقد ادرك الوطنيون هذا الأمر فدأبوا على تحطيم قوة العلماء وسلطة شيوخ القبائل. كما ان الوطنيين ادركوا في جلاء انهم اذا عجزوا عن ان يقضوا على سلطة هاتين الفئتين ، العلماء والشيوخ ، فانهم لن يستطيعوا الاحتفاظ بقوتهم وبمكانتهم . لهذا السبب كان المعتدلون من الوطنيين يرون ان خلاصهم الوحيد هو في بقاء الانكليز في البلاد لكي يساندوا هذه السياسة ، سياسة القضاء على قوة العلماء والشيوخ ، ويعضدوها لمدة من الزمن . اما خارج الحواضر وفي الارياف فان وجهة نظر العلماء وشيوخ القبائل كانت السائدة بين الناس ، ولكن كان من الطبيعي ان يلتف الناس في بغداد حول الوطنيين . وهكذا كانت القوى المتفجرة الممزقة تعتمل في البلاد مما حمل الاتراك على السعي لأعادة موطيء قدم لهم في البلاد مستغلين الخلافات السياسية المتباينة المتعددة في العراق . فكانت دعايتهم قوية في كربــلاء والنجف ، وفي الأوساط المعادية للعهد الجديد . اما موقف القبائل من الحكومة الجديدة ومن القبول بها ، فقد كان ، في صورة عامة ، موقفاً سلبياً . كانوا يقبلون بواقع الحال ولكنهم كانوا ينتظرون ما سيسفر الأمر عنه من نتائج . كان رجال القبائل من اشد الناس مراساً على القتال ، ومن اشجعهم في الحرب . فكانت ثقتهم بانفسهم ثقــة عمياء . وكانوا الى جانب هذا يزدرون المجندة من اهل المدن . وليس من عجب في الأمر اذ ان البدو يحتقرون الحضر ويهزأون بمدنيتهم .

موقف الانكليز من الشيعة

كانت السياسة البريطانية في العراق ، منذ البدء ، ولا سيما بعد ضرب الحصار على النجف سنة ١٩١٨ وقصفها بمدافع الهاون (١) ، تقوم على إقصاء جميع الشيعة عن المناصب الرفيعة المسؤولة . ولم يكن بعض الموظفين البريطانيين متحررين من الانحياز والتعصب ضد الشيعة . فقد كتبت الآنسة جرترود بل ، سكرتيرة المندوب البريطاني السامي ، بمناسبة احتجاج الشيعة على انهم ليسوا ممثلين تمثيلاً عادلاً في مجلس الدولة ، تقول : « اما أنا ، شخصياً ، فانتهج وأفرح ان أرى هؤلاء الشيعة الأعراب يقعون في مأزق حرج ، فانهم من اصعب الناس مراساً وعناداً في البلاد » (٢) . والواقع ان السنة كانوا الغالبية في مجلس الدولة ، وكانوا المهيمنين على مقدراته . ولم يكن للشيعة فيه سوى ممثلين عن بغداد والبصرة والموصل وكركوك . اما النجف وكربلاء والكاظمين وسامراء ، المدن الاربع المقدسة عندهم ، فلم تكن ممثلة في المجلس . ولذا فان المؤلف يخالف السير برسي كوكس في التقرير الذي رفعه الى مجلس العموم وقال فيه ان مجلس الدولة يمثل جميع القطاعات والمناطق في البلاد (٣) . وما كانت الشيعة ، بطبيعة الحال ، تأمل ان تحظى بكل المناصب الرفيعة في الحكومة الجديدة طالما انها كانت في قبضة السنة . وقد توقعت دائرة الاستخبارات البريطانية ان تؤدي هذه السياسة الى الايقاع بين الطائفتين ، وخلق حالة من سوء التفاهم (٤) . وكان من نتائج الغالبية السنية في مجلس الدولة وسيطرتها عليه ان راح السيون يعينون المتصرفين القائمقامين من السنة في كل لواء من الوية الفرات الشيعية . وكل من يعرف العلاقات السيئة القائمة بين السنة والشيعة في العراق يدرك فوراً ما كان لهذه السياسة في التعيين من ردة فعل عنيفة لدى الشيعة . ولقد كانت ردة الفعل عندهم فورية ولكن بتحفظ وضبط نفس . وتقدم عالم شيعي ، عُرف بنشاطه السياسي ، من مجلس الدولة طالباً البحث والترخيص لحزب سياسي اسمه « حزب النهضة العراقي » على ان يكون مقرُّه في الكاظمين احدى المدن المقدسة لدى الشيعة . وكان واضع المشروع لهذا الحزب السيد محمد الصدر . وجرى نقاش طويل حوله في مجلس الدولة . ولم يبد النقيب معارضة لانشاء الاحزاب السياسية والترخيص بها شريطة ان تُسَنّ

---

(١) Private Papers of F.C.C. Balfour, p.o. Shamiyyah, Box 303/2,S.O.S., Durham.

(٢) Private Papers of G.L. Bell, Box 303/4/3, S.O.S. Durham.

(٣) **Debates** H.C. 2.11.20., vol. 134, P.172.

(٤) I.O. L/PS/10,3467, **Abstract of Intelligence**, no 43,p.4.

القوانين لضبطها وتحديد مسؤولياتها في صورة دقيقة. اما ساسون افندي فكان يرى ان قيام الاحزاب السياسية امرٌ لا مفرّ منه ، وان منع الاحزاب من العمل علانيـة سيؤدّي الى قيام جمعيات سرية . ولكنه كان يرى ، كما كان النقيب يرى ، ان وضع تشريع لضبط الاحزاب وتقييدها امر حيوي جداً . وكان جعفر باشا وعزّت باشا يشاطرانه هذا الرأي . اما الألوسي فكان يرى ان قيام احزاب سياسية في تلك الفترة بالذات امر ضارّ لا ينبغي الترخيص بها قبل ان يكون المجلس التأسيسي قد سنّ الشرائع لها . واخيراً قرّ قرار مجلس الدولة على ان يحيلوا الأمر على المندوب البريطاني السامي لابداء الرأي قبل ان يتخذ المجلس قراراً بذلك (١) . وبعد قليل انضمّ الى الصدر اثنان من زملائه العلماء قال فيهم كوكس « ان الطبور على اشكالها تقع » وهما مرزا محمد رضا والسيد القاسم الكاشاني الذي كان قد أُعلن وصوله من ايران . وهذان العالمان اشتركا اشتراكاً فعلياً ، وقاما بدور بارز في اضطرابات سنة ١٩٢٠ . وكان الاول منهما ، مرزا محمد رضا ، ابن المجتهد الاكبر ، قد نفي في شهر حزيران ، ١٩٢٠ الى هنجام . واما الثاني ، السيد القاسم الكاشاني ، فقد هرب الى ايران عندما دخل طابورٌ بريطاني منطقة الفرات. وكان كوكس يرى ان هناك دلائل تشير الى ان الخطّ السياسي الذي كان أولئك « الأفاضل » – كما كان يسميهم – يتبعونه هو إقامة تعاون وتحالف بين العراق وايران ، وبواسطة ايران ، والتعاون مع البولشفيك ، يتقلّص النفوذ البريطاني في العراق . وردّة الفعل هذه لدى علماء الشيعة ، كما يخيّل اليّ ، كانت نتيجة السياسة البريطانية التي كانت تؤثر السنة ، وتفضلّهم على الشيعة في الحكومة الجديدة . وهذا الموقف العدائي العنيف الذي كانت تقفه الشيعة من السنّة تعود اسبابه الى قرون من الاضطهاد والضغط اللذيْن كانت السنّة تمارسهما . ويمكن وصف شعور السنّة نحو الشيعة في العراق بأنه كان شعور تسامٍ وتعاظمٍ غير شخصيّ ولكنه كان شعوراً من شأنه ان يضيف وقوداً الى وضعٍ قابلٍ للانفجار . وبصورة عامة أرى ان السياسة التي اتبعها كوكس في اقصاء الشيعة عن الحكم في العراق لم تكن سياسة حكيمة . وكان يرى كوكس شخصياً ، ان وزيراً شيعياً واحداً من اصل تسعة وزراء لم يكن ليرضي الشيعة (٢) . هذا فضلاً عن ان هذه السياسة حدّدت موقف الشيعة من فيصل ومن بريطانيا . فقد كان فيصل ، في نظرهم ، رجلاً رفيع النسب سامي الخلق مؤهلاً لأن يكون « موضع آمال العرب» ولكنه كان رجلاً افسدته علاقته مع البريطانيين وارتباطه بهم . وكانت خطبة التتويج التي القاها فيصل ، والتي اشار

(١) I.O. L/PS/10,301, Sir p. Cox's Intelligence Reports, no. 19, p.4.
(٢) I.O. L/PS/10, 301, Sir p. Cox's Intelligence Reports, no, 21, p. 131.

فيها الى صداقته مع الانكليز وثقته بالحكومة البريطانية الحجة القاطعة والدليل الصارخ — كما يقول السيد حسن الصدر (ابو محمد) الذي جعل منه شخصاً غير مرغوب فيه لدى الشيعة (١) . ولو ان الشيعة اعطيت قسطاً اوفر من المشاركة في حكومة فيصل لكان في الأمكان تجنب كثير من الاختبارات المرّة ، وكثير من الاضطرابات الدامية.

(١) I.O. L/PS/10, 301, Sir p. Cox's Intelligence Reports, no 21, p. 19

الملاحق

١ ـ بلاغ الجنرال مود .
٢ ـ رسالة السير ارنولد ت.ولسن الى المجتهد الاكبر .
٣ ـ اسماء بعض النجفيين الذين نفوا .
٤ ـ بلاغ كربلاء .
٥ ـ رسالة المجتهد الاكبر الى فيصل .
٦ ـ عريضة المندوبين .
٧ ـ رسالة المجتهد الاكبر الى الموظف البريطاني المسؤول عن اسرى الحرب .
٨ ـ رسالة المجتهد الأكبر الى قائمقام الحاكم المدني العام .
٩ ـ رسالة شيوخ القبائل الى عبدالله بن الحسين .
١٠ ـ تأسيس مجلس الدولة .
١١ ـ إعلان العفو العام .
١٢ ـ التعليمات التي وجهت الى مجلس الدولة .
١٣ ـ اقالة السيد طالب النقيب من الحكومة ونفيه .
١٤ ـ رسالة مزاحم الباجه جي الى الشيخ خزعل
١٥ ـ رسالة نوري السعيد وجعفر العسكري الى الشيخ خزعل
١٦ ـ برقية النقيب الى الشريف حسين
١٧ ـ اعضاء وزارة الملك فيصل الاول .
١٨ ـ خريطة تظهر مواطن القبائل العراقية .

(ملحق رقم ١)
بلاغ الجنرال مود

الى سكان ولاية بغداد

باسم جلالة ملكي ، وباسم الشعوب التي يملك عليها ، اخاطبكم بما يلي :

ان غاية عملياتنا العسكرية هي قهر العدو وطرده من هذه الديار . وفي سبيل انجاز هذه المهمة قد أوليت سلطة تامة عليا في جميع المناطق التي يقوم فيها الجيش البريطاني بعملياته العسكرية ، ولكن جيشنا لم يدخل مدنكم واراضيكم كجيش فاتح ، او كجيش عدوّ ، بل جاء محرّراً لكم .

منذ زمن هولاكو والمواطنون عندكم يقاسون ظلم الغرباء ، واصبحت قصوركم أطلالاً ، وجناتكم قفراً يبابا . وكان اجدادكم يئنون من الجور والاستبداد كما انكم انتم ايضاً تعانون من الظلم والبلاء . وقد كان ابناؤكم يؤخذون الى ساحات الحرب التي لم يكن لكم فيها مأرب . وكان أناس ظلاّم ينهبون ثرواتكم ليبذّروها في أماكن بعيدة .

ومنذ زمن مدحت باشا والاتراك يتكلمون عن الأصلاح ، ولكن انظروا الآن الى الخرائب والاراضي المقفرة المجدبة ، ماذا تجدون ؟ أليست دليلاً قاطعاً على وعودهم الكاذبة ؟

وليست هي ارادة جلالة ملكي وشعبه وحدهما ، بل انها ارادة الشعوب العظيمة المتحالفة معه ان تكون امّة متقدّمة مزدهرة كما كنتم في سالف الزمن عندما كانت ارضكم خصبة معطاء ، عندما اعطى اسلافكم العالم أدباً عظيماً وعلماً وفنّاً ، عندما كانت بغداد يوماً من عجائب الدنيا .

ولقد قامت علاقات ودّية وثيقة بين شعبكم وشعوب امبراطورية جلالة ملكي ، وظلّ تجّار بغداد والتجّار البريطانيون يتبادلون التجارة والمنافع المشتركة طوال مئتي سنة . من جهة ثانية لقد جعل الالمان والاتراك الذين نهبوكم وسلبوكم اموالكم ، من بغداد مركز قوة لهم يهاجمون منه بريطانيا وحلفاءها في ايران والجزيرة العربية. ولذا لا يسع الحكومة البريطانية ان تظلّ مكتوفة اليدين إزاء ما يجري في بلادكم الآن ، او ما سيجري في المستقبل، لانه، نظراً الى مصالح الشعب البريطاني وحلفائه، لا يسع الحكومة البريطانية ان تسمح مرّة ثانية باستخدام بغداد مركزاً لمحاربة المصالح البريطانية كما فعل الالمان والاتراك في اثناء الحرب .

واما انتم ، اهل بغداد ، الذين تُعنى الحكومة البريطانية بازدهار أعمالكم ، وتهتم بتجارتكم وبتحرّركم من الظلم والاعتداء الخارجي ، فلا ينبغي ان يتبادر الى اذهانكم

ان الحكومة البريطانية ترغب في ان تفرض عليكم انظمة ومؤسسات غريبة لا ترضون عنها . بل الأمر على نقيض هذا فان الحكومة البريطانية تأمل في ان تتحقق يوماً الأماني والآمال التي كان يحلم بها مفكروكم وادباؤكم . وسيزهو اهل بغداد وسينعمون بثرواتهم واموالهم في ظل انظمة ومؤسسات منبثقة من شريعتكم المقدسة ، ومنسجمة مع سجاياكم وخصائصكم القومية . ان عرب الحجاز قد طردوا الاتراك والالمان الذين ظلموهم واعلنوا الشريف حسين ملكاً عليهم ، وها ان جلالته الآن يحكم البلاد حراً مستقلاً ، وقد انضم الى صفوف الامم التي تحارب الاتراك والالمان . وهكذا فعل اشراف العرب ونبلاؤهم في نجد والكويت والعسير

عديدون هم العرب الاشراف النبلاء الذين استشهدوا في سبيل الحرية على يد الحكام الاتراك الغرباء الذين أذاقوهم من الظلم والبلاء الواناً. وقد وطدت حكومة بريطانيا العظمى ، بالتعاون مع الدول العظمى من حلفائها ، العزم على ان استشهاد العرب النبلاء الذين ضحوا بحياتهم لن يذهب عبثاً . ان الشعب الانكليزي وشعوب الدولة المتحالفة معه ترغب وتأمل في ان تنهض الامة العربية النبيلة ، وتعود الى سالف عزها ومجدها امةً عظيمة بين امم الارض ، وان تتحد في سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل .

يا اهل بغداد ، تذكروا انكم قاسيتم العذاب والظلم طوال ستة وعشرين جيلاً في ظل حكم طغاة غرباء كان دأبهم تحريض قوم منكم على قوم وإثارة عشيرة ضد عشيرة كي يجنوا الخير من انقساماتكم . ولذا فاني مخول ان ادعوكم ، بواسطة شيوخكم واشرافكم وممثليكم، الى الاشتراك في تصريف شؤونكم المدنية بالتعاون مع الممثلين السياسيين لحكومة بريطانيا العظمى الذين أتبعوا بالجيش البريطاني ، فانضموا باخوان لكم في الشمال والشرق والجنوب والغرب كي تحققوا الأماني الجسام التي تحلُم بها امتكم العظيمة .

ف.س. مود

القائد العام للقوات البريطانية في العراق

صدر عن مركز القيادة في بغداد، في ١٩ آذار، ١٩١٧ الموافق ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ هجرية .

(ملحق رقم ٢)
رسالة السير ارنولد ت. ولسن الى المجتهد الاكبر

الى حضرة حجة الاسلام السيد محمد كاظم الطباطبائي وحضرة العلماء الاعلام في النجف والى اهاليها ، وصلنا كتابكم فامعنا فيه النظر وانكم لمحقون في وضعكم بان الحكومة البريطانية رؤوفة ، واسطع برهان على ذلك تلك الرأفه التي عومل بها النجفيون في الحادثتين اللتين وقعتا في الستة الشهور الماضية. وبرهان اخر تلك الخطة السليمة التي سنتبعها في تنفيذ الشروط المشترطة عليكم ، فاننا لن نتوقع العقاب بالاهالي الذين لم يخالفوا القانون بل أولئك الذين خرقوا حرمته ومن ساعدهم على ذلك وفي استطاعة النجف ان تخرج سالمة من مأزقها الحالي اذا خضعت للشروط التي سبق وعرضناها ففي امكان حضرة المجتهدين والعلماء الاعلام لا بل الاحرى بهم ان يطهروا بلدتهم من مفسديها كما وعليهم مساعدتنا على اتباع العقاب باولئك الذين اقترفوا تلك الجريمة وعلى من حرضوا على ارتكابها ، وسوف لا تقصر الحكومة في منح الصفح متى آن الوقت المناسب فليتأكد سكان البلدة المسالمون من اننا سنعاملهم بالحسنى اذا اظهروا بأعمالهم انهم يستحقون منا تلك المعاملة ولقد مضت سبعة ايام على مقتل القبطان مارشال ومع ذلك فلم يعبر لنا اهالي النجف عن خضوعهم ولم يقوموا بعمل ما لارجاع القانون والنظام الى نصابيهما والسلام .

٢٦–٣–١٩١٨م .		الحاكم العـام

أ. ت. ويلسون

(ملحق رقم ٣)
اسماء بعض النجفيين الذين نفوا

اسماء بعض المبعدين

١ – السيد محمد علي بحر العلوم
٢ – الشيخ محمد جواد الجزائري
٣ – سعد الحاج راضي
٤ – مفيظ الحاج راضي
٥ – راضي الحاج سعد
٦ عطيه ابو كلل
٧ كردي ابو كلل
٨ – هندي ابو كلل
٩ – حاجم ابو كلل
١٠ – جاسم ابو كلل
١١ – الحاج حسين ابو كلل
١٢ – كريم ابو كلل
١٣ – احمد الصراف .
١٤ – محمد آل جبير العامري
١٥ السيد ابراهيم السيد باقر
١٦ – محمد بن مطر عكايش
١٧ – طلال عكايش
١٨ زاير عكايش
١٩ – خطار العبد
٢٠ – الحاج محمد ابو شبع
٢١ – عباس حسن ابو شبع
٢٢ – هادي ابو شبع
٢٣ – عبد يوسف ابو شبع
٢٤ – خليل ابو شبع
٢٥ – رشيد هادي كرماشه
٢٦ – زيد قاسم كرماشه
٢٧ – صالح كرماشه
٢٨ – كريم كرماشه
٢٩ – عبد كرماشه
٣٠ – علي كرماشه
٣١ – عبد الرزاق عدوه
٣٢ – تومان عدوه
٣٣ – عطيه فيتاكس
٣٤ – محمود الحمار
٣٥ – مصلط الحمار
٣٦ – سعد الحمار
٣٧ – مهدي الحمار
٣٨ – عطية صبر
٣٩ – حامض صبر
٤٠ – تومان بقر الشام
٤١ – فنجان بقر الشام
٤٢ – متعب بقر الشام
٤٣ – حسين بقر الشام
٤٤ – محمد الحاج الصتم
٤٥ – الحاج رديف ثالثه
٤٦ – محمد الحاج ثالثه
٤٧ – عبد الله الرازقي
٤٨ – علي العبد الرازقي
٤٩ – جدوع الرازقي
٥٠ – علوان الملا
٥١ – حسوني الطوان
٥٢ – جواد مطرقانه
٥٣ – حسن .كصراوي
٥٤ – عباس الحاج نسيم

٥٥ ـ كاظم عـلي الدعلوش
٥٦ ـ خضر عباس الصـراف
٥٧ ـ السيد هـادي سلطاني
٥٩ ـ عـزيز الاعـم
٦٠ ـ غازي طـويه
٦١ ـ حميـد آل مكـر
٦٢ ـ حسـين الصـراف
٦٤ ـ ابراهيـم المرنـي
٦٥ ـ عبـد حميـمه الثداف
٦٦ ـ حبيب ابو الجاموس
٦٧ ـ نجم العمود العامري
٦٨ ـ حسون ابو حجيـفه
٦٩ ـ طمـاطه سعيدان
٧٠ ـ عبـود صـخيله
٧١ ـ عـبد المحامـجي
٧٢ ـ حسـاني المختـار
٧٣ ـ مجيـد المختار
٧٤ ـ حسـون بادرنـك

(ملحق رقم ٤)
بلاغ كربلاء

بسم الله الرحمن الرحيم

بمنه تعالى حسب تبليغ حاكم المحلة لنا عن الدولة المفخمة بريطانيا العظمى انها قد تفضلت على العراقيين بطلب انتخاب اي امير يختارونه وقد امرنا ان نجتمع ونتداول الرأي في ذلك ثم نقدم النتيجة الى حاكم الكربلاء فتلقينا امره بتمام الرغبة وقد سبق الوعد من الدولة المفخمة بريطانيا بالاتفاق مع الدولة الفرنساوية بالعباره الاتية (ان غرض الحكومتين من الحروب في الشرق تحرير الشعوب تحريراً تاماً نهائياً وانشاء حكومات وادارات وطنية في سوريا والعراق تقوم بها الشعوب بذاتها من خالص رغبتها ومحض اختيارها) كما نشرته جريدة العرب نمره ١٤٠ الصادر ١٥ تشرين الثاني ١٩١٨ م وقد اجتمعنا نحن اهالي كربلاء امتثالاً لامركم وبعد المداولة وملاحظة الاصول الاسلامية وطبقاً لها تقرر رأينا على ان نستظل بظل راية عربية اسلامية فانتخبنا احد انجال الشريف حسين ليكون اميراً علينا مقيداً بمجلس منتخب من اهالي العراق لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الامة وما تقتضيه شؤونها .

تحريراً في ١٥ شوال ١٣٣٧ هـ .

(ملحق رقم ٥)
رسالة المجتهد الاكبر الى فيصل

الى حضرة صاحب السمو الامير فيصل نجل جلالة ملك العرب خلد الله ذكره وملكه . بعد الدعاء لدوام عزكم وبقاء مجدكم نبدي لكم اننا لا زلنا نسمع انباء تفاديكم العظيم في سبيل احياء الجامعة العربية التي هي عنوان المجد الاسلامي ذلك المجد الرفيع الذي رفع قواعده اجدادك الطاهرون وحمى حوزته اسلافك الماضون فحيا الله نخوتكم الهاشمية وغيرتكم الاسلامية وادمكم ملكاً تقرّ به العيون الاسلامية وتفخر به ائمة الدين . هذا ولا يخفاكم ما تكابده الامه العراقية المظلومة في كل لحظة من انواع الظلم الفاحش والوان الحكم الغاشم مضافاً الى الاستهانة بمكانتها التاريخية والازدراء بتقاليدها الاسلامية ولا زالت تئن من التحكم الباطل والاعتداء على حقوقها المشروعة وقد بلغ الظلم مبلغاً لا يجوز معه الصبر وحيث ان هذا المحيط العراقي مضغوط عليه كل الضغط من كل الجهات حتى انه لا يمكنه رفع صوته مباشرة الى الامم التي ترأف بالضعيف وتشفق عليه فقد اعتمدنا الشيخ محمد باقر الشبيبي ليوقفكم على الاعمال القاسية الجارية في العراق ويكشف لكم عن المظالم التي ما زالت تستعملها حكومة الاحتلال فترفعوها للصحافة الحرة في كل انحاء العالم وتظهروها صريحة الى الحكومات الاوروبية والامريكانية حتى نتمكن بواسطتها من تحصيل مقاصدنا العالية وتيقنوا ان السكوت عن الضيم امر لا يستطيع العراقيون تحمله فاسرعوا وساعدوا اخوانكم الذين اعتمدوكم للمطالبة باستقلال بلادهم ولا تجعلوا سبيلاً للتشبث الاجنبي كيفما كان وامتداد نفوذهم الى هذه الديار الاسلامية ودوموا مؤيدين ظافرين .

٧ رمضان ١٣٣٨ هـ　　　　محمد تقي الحائري الشيرازي

(ملحق رقم ٦)
عريضة المندوبين

الى سعادة الحاكم الملكي العام المحترم .

تعلمون ان الشعب قد انتدبنا بمظاهرته التي اقامها ليلة ٧ رمضان الحالي الموافق ليلة ٢٦ مايو للنيابة في مطالبة السلطة المحتلة ومفاوضة رجالها بشأن تنفيذ ثلاثة مطاليب جوهرية يرى جمهور الشعب ومعظم قادة ارائه ضرورة تنفيذها حالا وهي :

اولا – الاسراع في تأليف مؤتمر يمثي الامه العراقية ليعين مصيرها فيقرر شكل ادارتها في الداخل ونوع علاقاتها بالخارج .

ثانياً – منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وافكاره .

ثالثاً – رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين انحاء القطر اولا وبينه وبين الاقطار المجاورة له والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم .

فبصفتنا نواباً عن اهالي بغداد والكاظمية نطلب اليكم ان تصادقوا على تنفيذ هذه المطالب الثلاثة بكل سرعة ممكنة وان تهتموا حالا بمراجعة حكومة جلالة الملك في ما تلزمكم المراجعة به من تنفيذ المطالب المذكورة . ولا يعزب عن بالكم ما في قبول هذه المطالب واحلالها محل الاجراء والتنفيذ من صيانة الامن وحفظ النظام والسلام العام وانا ننتهز هذه الفرصة فنقدم الى سعادتكم فائق الاحترام والاكبار .

٢ حزيران ١٩٢٠ م   تواقيع المندوبين .

(ملحق رقم ٧)
رسالة المجتهد الاكبر الى الموظف البريطاني المسؤول عن اسرى الحرب

بسم الله الرحمن الرحيم

«سلام عليك وثناء على اخلاصك وبعد فغير خفي عليك وعلى نباهتك ان للاسرى في الشريعة الاسلامية مكانة عالية فالعناية بهم والتوجه الى اكرامهم حتم واني اوصيك اطال الله في حياتك بتعهدهم على الاتصال وتفقد احوالهم وصحتهم ومعاشهم ما داموا وديعة مقدسة وامانة محترمة فيلزمك البذل والتوفير عليهم ويجب تصديك لتحقيق راحتهم اكثر من الايام الماضية واني قوي الامل بانك تنشط الى هذا التكليف لانه شرعي مدني انساني مواظب على الانفاق عليهم حتى يتعين الى نفقاتهم مورد خاص فقد اعتمدت واوكلت ذلك الى عهدتك والزمتك به ولا عذر لك ردم مؤيداً».

شيخ الشريعة الاصفهاني
(الختم)

(ملحق رقم ٨)
رسالة المجتهد الاكبر الى قائمقام الحاكم الملكي العام

حضرة صاحب الفخامة قائمقام الحاكم الملكي العام في العراق دامت دولته .

اخذنا مكتوبكم المؤرخ ٢-٧-١٩٢٠م وفهمنا مقاصدكم وما يريد القائد العام لجيوش الاحتلال وقد اظهرت لكم سابقاً في لزوم اتخاذ التدابير السليمة وارجاع المنفيين واظهار الشفقة على سواد الناس من الحاضر والبادي قبل تفاقم الامر وقبل ان نجر الى ما يخرج علاجه من مقدرتنا والان قد بلغ الامر الى ما كنا نكره وقوعه بين الناس وجعل الناس يقولون بان حضرة اية الله الشيرازي دامت بركاته يأمرنا بالسكون والمحافظة على الامن العام والحكومة كل يوم تلقي القبض على جماعة منا بلا ذنب ولا سؤال وجواب حتى مقتضينا من اخرنا وما ذكرتم من فساد وتخريب الشمندوفر (القطار)فهو بعد القبض على من قبضتم من المحلة و كربلاء ويشهد بذلك مسيرهم الى البصره بالقطار، وبالحقيقة هذا التخريب وبعض القلاقل مستند الى سياسة ضباط الانكليز فقد القوا القبض على رئيس الظوالم شعلان بلا ذنب فصار سبباً لاراقة الدماء في الرميثة وقد كانت عشائر الشامية ورؤساؤها عازمين على ملاقاة الحكومة قبل ما بلغهم القبض على الحاج مخيف وابن اخته صلال تشوشت افكارهم فان احوال الحاج مخيف وسكوته والتزامه للسلم والطاعة للحكومة معروفة لدى العموم واماغلبة السراق من القوافل فهو امر عادي اذا انشغلت الحكومة واهملت المحافظة والسبب الوحيد في هياج الناس انهم يعتقدون ان القبض على من قبض عليهم ليس الا مطالبتهم بالحقوق الشرعية وهو امر يشترك فيه العراقيون فاذا قبض على نجل اية الله الشيرازي دامت بركاته وهو بريء من كل ذنب خال من كل فساد فمن الذي يأمن بعد ذلك على نفسه ؟ وما ذكرتم انه لا يمكن الكلام في الحقوق المشروعة وانجاز ما وعدتم من اول الامر ما دامت تشويشات بهذه الصورة فهم يقولون انا عالم وكل شاعر بطمه انه في وقت طالبت الامة بحقوقها المشروعة حدثت من جانب الحكومة المحتلة الحركات الموجبة للتشويش حتى تعتذر عن اعطاء الحقوق بهذه الاعتبارات وفي هذه المدة الطويلة قد عرفتم مسلكي ان اطلب دائماً راحة العباد وتأمين البلاد والارتباطات الودية بين الحكومة المعظمة والامة العراقية والذي اراه طريقاً وحيداً في تسكين التشوشات وضبط الامن العام واعادة الاحوال على سابقها ان تساعدونا وتقبلوا شفاعتنا في اطلاق سراح المنفيين واستعمال المودة لسائر المتظاهرين حتى من يتسبب

بالتشويشات حتى يسعنا التسكين ومطالبتهم جميعاً بالتنفيذ والطاعة ومراجعة الحكومة متى ارادت مواجهتهم فاذا رأينا ورأوا من الحكومة احترام الحقوق القانونية ومعاملة المسلم معاملة مودة وشفقة صار لنا كل الامل بقدرتنا على اعادة الاحوال على سابقها وتسكين الناس على الطاعه والانقياد.

٢١ شوال ١٣٣٨هـ شيخ الشريعة

(ملحق رقم ٩)
رسالة شيوخ القبائل الى عبد الله بن الحسن

الى صاحب الجلالة ملك العراق الاعظم عبد الله الاول دامت سطوته ،

يا صاحب الجلالة ان الامة العراقية التي هتفت بجلالتكم ملكاً دستورياً عليها قد طرق سمعها نبأ وصول ركابك الملوكي العالي الى مصر ومقابلة رجال الحكومة البريطانية لعظمتك زاعمين انهم ينالون اطماعهم فيحققون احلامهم بتقرير الوصاية التي ترفضها الامة رفضاً باتاً ولا تقبلها بأي شكل كانت فنحن سادات رؤساء قبائل السماوة ورميثة وسواد العراق كبقية رؤساء العراق وممثلي الرأي العام فيه نرحب بموكبك المفخم بالجلوس على عرشك الرفيع المنزه عن كل ما يمس كرامته من التدخل الاجنبي ودم للتاج والصولجان

تحريراً في ١٥ شوال ١٣٣٨هـ

رؤساء الاعاجيب	عبد العباس بوخشه ، حسين الصندوح
رؤساء البوحسن	ناصر الحسين ، علي العبد الله
رئيس بني زريج	عبد العباس الفرهود
رؤساء الظوالم	ساجت الثويني ، غثيث الحرجان ، شعلان ابو الجون ، سلطان شتابه .

(ملحق رقم ١٠)
تأسيس مجلس الدولة

بناءً على البلاغ الصادر في ١٧ حزيران ، ١٩٢٠ الذي أعلن فيه ان حكومة جلالته قد اقرت الدعوة الى انشاء مجلس نيابي عام لوضع دستور للعراق ، والى ان يتم انعقاد مثل هذا المجلس الذي سيضع الدستور فانه من المناسب ان تقوم في البلاد حكومة وطنية موقتة تعمل في اشرافي وتوجيهي .

ولذا فاننا نحن ، الجنرال برسي كوكس ، بما أولينا من سلطة وبصفتنا المندوب السامي للعراق أعلن ما يأتي :

(١) يشكل مجلس دولة يتألف من رئيس وزراء للمصالح الآتية : الداخلية ، والمالية ، والعدلية ، والاوقاف ، والتربية والصحة ، والدفاع ، والاشغال العامة ، والتجارة ، ومن وزراء دولة بدون حقائب وزارية يعينون بحسب الحاجة الى خدماتهم .

(٢) الى ان يتم وضع الدستور والى ان يصبح نافذ المفعول يكون مجلس الدولة والوزراء مسؤولين عن سير الادارة الحكومية بأشرافي ومراقبتي ، باستثناء الشؤون الخارجية والعمليات العسكرية والشؤون العسكرية العامة ، باستثناء الشؤون العسكرية التي تتعلق فقط بالقوات المجندة من البلاد .

صدر في بغداد في ١١ تشرين الثاني ، ١٩٢٠

برسي كوكس
المندوب السامي في العراق

(ملحق رقم ١١)
اعلان العفو العام

يسرّ سعادة المندوب السامي ان يعلن ، باسم حكومة جلالته ، العفو العام عن جميع المحكومين لاسباب سياسية على الأساس التالي :

١ – يشمل العفو جميع الذين اشتركوا في ثورة ١٩٢٠ بالنسبة الى الجرائم التي ارتكبوها ضدّ الدولة لانجاح الثورة . ويفرج عن الموقوفين والمسجونين ، ويسمح للذين غادروا البلاد هرباً بأن يعودوا من دون خوف من الملاحقة . يستثنى :

(١) الافراد الذين ، عندما اشتركوا في الثورة ، كانوا موظفين في إدارة الاراضي المحتلّة وتدفع لهم اجور ومرتّبات . هؤلاء سينظر في امرهم كل على حدة وبالنسبة الى سجلاّتهم :

(٢) الأشخاص الواردة اسماؤهم ادناه والذين يعتقد انهم كانوا مسؤولين عن جرائم وحشية او حرّضوا عليها ، وهم الآن فارّون من وجه العدالة . وهم :

اولاً : ضاري وولداه خميس وسليمان .

مرب وسلوني من ابناء عجاس .

دحام ابن فرحان .

جميع افراد قبيلة الزوبع ، وجميع الذين اتهموا باغتيال المرحوم الزعيم ليشمان او حرّضوا على قتله .

ثانياً : جميل بك وحامد (حميد) فندي ديبوني المتّهمان بانهما كانا المحرّضين على اغتيال المرحوم النقيب برلو (Barlow) والملازم ستيوارت وغيرهما من الموظفين البريطانيين في تل عفر .

ثالثاً : جاسم المعيلو من قبيلة المهدية المتّهم بقتل المرحوم النقيب رغلي (Wrigley)

رابعاً : محمد المُلاّ محمود من البهاهسة المتّهم بقتل المرحوم برادفيلد (Bradfield)

وحسن العبد وجاسم العوض من بني تميم المتّهمان بقتل السيد بوخنان (Buchanan) .

خامساً : ناصر ابن اريضير (عريضير) وعليوي الجاسم وابن دريميدي ، وهم جميعاً متهمون بقتل أسرى بريطانيين .

سادساً : بسبوس ابن مهوّس ونعمة ابن ضعينة ، وهما من قبيلة الجوابر ومتهمـــان بقتل ضبّاط تابعين للقوة الجويّة الملكية .

سابعاً : فالح ابن حاجي سفر العجيرب من قبيلة الجوابر المتهم بالتحريض على قتل الملازم هدغار (Hedgar) وخمسة من البريطانيين التابعين للمدفعية على السفينـــة غرينفلاي (Greenfly) .

٢ ـ اما بالنسبة الى الأشخاص الذين لم تكن لهم علاقة بثورة ١٩٢٠ ، بل حبسوا ونفوا او هم هاربون بسبب جرائم سياسية اقترفوها قبل نشوب الثورة المعهودة ، فان سعادة المندوب السامي مخوّل مبدئياً ، ان يشملهم بالعفو ، على ان يُنظر في كل قضية على حدة ، عندما يتقدم الواحد منهم بطلب رسمي يبحث به الى اقرب ممثل بريطاني ، أو الى المندوب السامي مباشرة .

الامضاء

برسي كوكس

المندوب السامي في العراق

في ٣٠ ايار ، ١٩٢١ .

(ملحق رقم ١٢)
التعليمات التي وُجِّهت الى مجلس الدولة

اولاً : ينبغي لمجلس الدولة ان يدرك انه الى ان يتم عقد مجلس وطني لاقرار دستور للعراق ، فاننا ، نحن المندوب السامي مسؤولون شخصياً ومباشرة تجاه حكومة جلالته عن ادارة البلاد ... وعليه فان اي خلاف يقع في وجهات النظر بيني وبين مجلس الدولة حول شؤون مطروحة لدى المجلس فان القرار الأخير في شأنها يعود اليّ .

ثانياً : انه بالنظر الى ان انتخاب مجلس وطني وعقده يتطلبان بعض الوقت ، فقد قرَّرت ان اتخذ تدابير اولية لتسيير شؤون الادارة (باستثناء الشؤون السياسية الخارجية والاعتبارات العسكرية) وفي اشرافي ، بتشكيل مجلس دولة في رئاسة معالي النقيب. وسيشمل هذا المجلس عدداً من الوزراء بعضهم يتولّون مصالح الدولة المختلفة ، وبعضهم الآخر يكونون اعضاء في المجلس ولكن من دون حقائب وزارية .

ثالثاً : ان رئيس كل مصلحة من مصالح الدولة سيكون الوزير المسؤول عن تلك المصلحة ، ويُعهَد في ادارتها وتصريف شؤونها اليه شريطة :

(أ) ان يراقب المجلس اعمال الوزراء .

(ب) وان تؤخذ الآراء التي يبديها الموظّف البريطاني الذي اعيّنه أنا كمستشار لمختلف المصالح في الاعتبار .

اما في ما يتعلّق بهؤلاء المستشارين فان وظائفهم ليست تنفيذية بل استشارية. ولكن لي ملء الثقة بأن المجلس ، والوزراء المسؤولين عن مختلف المصالح ، يدركون ان هؤلاء الموظفين الذين اخترتهم مستشارين بفضل ما لهم من اختبار واسع في الشؤون الادارية ، وبفضل معرفتهم بسير الامور في مختلف الدوائر التابعة للوزارات ، ولذا ينبغي ان تراعى وجهات نظرهم وان تؤخذ استشاراتهم بعين الاعتبار .

(ج) وان يبقى معلوماً لدى المجلس ان القرار الأخير يعود اليّ .

رابعاً : يبدو لي ان افضل طريقة لتصريف شؤون دوائر الدولة المختلفة هي إحالة جميع المعاملات المتعلّقة بوزارة ما على الوزير بواسطة المستشار . وينبغي للمستشار ان يرفع جميع المراسلات والأوراق التي يتسلمها الى الوزير من دون إبطاء كي يتمكّن الوزير المختص من اتخاذ الاجراءات القانونية في صددها ، بعد ان يكون قد استشار المستشار في الأمر. كذلك اذا اراد الوزير ان يتخذ اجراء ما في صدد قضية تتعلّق بوزارته يتوجّب عليه اولاً إما دعوة المستشار لأخذ رأيه في الأمر ، وإما اصدار اوامره الى الدائرة المختصّة بواسطة المستشار كي يتمكّن هذا المستشار من إبداء رأيه في الأمر قبل أن تتخذ القضية المنظور فيها شكلها النهائي .

خامساً : فاذا كان الوضع هكذا ، ينبغي اخذ احتياطات لاحتمال وقوع اختلاف طارىء في وجهات النظر حول قضية ما بين الوزير ومستشاره كما يلي :

(أ) في حالــة إبداء المستشار نصحاً او رأياً لوزيره وشعور هذا الوزير بأنه لا يستطيع الأخذ برأي المستشار او نصحه فينبغي ، عندئذ، للوزير ان يستدعي المستشار للتداول في الأمر . واذا لم يتمكنّا ، بعد التشاور ، من الوصول الى اتفاق في الرأي ، واذا شعر المستشار بأن الأمر موضع البحث على كثير من الخطورة وان لا نفع مــن الاستمرار في النقاش حوله فان له الحقّ في ان يطلب الى الوزير إحالة القضية على مجلس الدولة لينظر فيها . في هذه الحالة على الوزير ان يرجيء اتخاذ اي اجراء حول القضية الى ان ينعقد المجلس عندما تُطرح القضية عليه لدرسها .

(ب) في الفترة التي تكون فيها القضية قد احيلت على مجلس الدولة لينظر فيها ، يُترك للوزير وللمستشار الحقّ الكامل في رفع القضية الى المندوب السامي . وهكذا يُتاح لي ان انقل وجهة نظري الى مجلس الدولة من دون ايّ انحياز الى احد الطرفين ، وذلك بناء على المادة العاشرة من هذا المنهج .

سادساً : اما في ما يتعلق بمجلس الدولة فيجب ان يعقد اجتماعات منتظمة مرّة واحدة في الاسبوع او اكثر اذا اقتضت الحاجة الى ذلك .

سابعاً : ولكي يسهل العمل على المجلس في تسييره دفّة الأدارة ينبغي ان يكون له امين عامّ ذو كفاءات ممتازة مع عدد من الكتّاب ينبغي ان يصير تعيينهم حالاً .

ثامناً : كلّ قضية تُرفع الى المجلس لدرسها ينبغي ان يبعث بها الوزير المختص الى الامين العام للمجلس الذي عليه ان يُعدّ جدولاً بالاعمال المطروحة لكل اجتماع يعقده المجلس يُوزّع على :

(أ) المندوب السامي ،

(ب) وجميع اعضاء المجلس والمستشارين البريطانيين . وذلك قبل انعقاد المجلس بما لا يقل عن ٢٤ ساعة. ومن القوانين المتّبعة الاّ يبحث المجلس في أي قضية لا تكون مُدرجة في جدول الاعمال . ولكن ينبغي الاّ يُوضع قرار خاصّ في هذا الشأن ، اذ قد تُطرح على المجلس قضية خطيرة مستعجلة يجب بتّها فوراً .

تاسعاً : للأمين العام ان يحضر جميع الجلسات التي تعقدها الوزارة وان يُسجّل جميع وقائع الاجتماعات فيثبتها في شكل جدول ويذكر الامور التي اتُخذت في شأنهــا قرارات . وهذه الوقائع توزّع في خلال ٢٤ ساعة من انعقاد الجلسة ويوقّع عليها الأمين العام ، ويبعث بنسخة منها الى :

(أ) المندوب السامي ،

(ب) كلّ من الوزراء والمستشارين . ويكون كلُ وزير مسؤولاً عن تنفيذ

القرارات التي يتخذها مجلس الدولة والمتعلقة بوزارته . والوزير المختص يبعث بتقرير الى الامين العام الذي بدوره يطلع المجلس على ما نُفّذ في اجتماعه التالي . ومن الامور المتبعة في المجالس الرسمية ان تبقى المداولات التي تجري في شأن القضايا المطروحة للدرس سرّية ولا ينبغي إفشاؤها خارج المجلس .

عاشراً : ان جميع قرارات المجلس تكون مبرمة نهائية بعد موافقتي عليها بصفتي رئيس الحكومة . وبصفتي المندوب السامي احتفظ بحقي في نقض اي قرار يتّخذ في المجلس او تعديله بناء على المصلحة العامة .

البند الحادي عشر : ولكي يبقى المجلس على اطّلاع على الامور المتعلقة بالمواضيع الواردة في جدول الاعمال ، فانه ينبغي حضور المستشار المختص اجتماع المجلس عندما يُبحث في القضايا العائدة الى الوزارة التي هو فيها مستشار . وله الحقّ في أثناء المداولات في ان يبدي رأيه في القضية المطروحة على بساط البحث ، ولكنه لا يشترك في التصويت .

البند الثاني عشر: هذا ولي ملء الثقة بأن هذه التعليمات المتعلقة بسير العمل في مجلس الدولة وفي الوزارات المختلفة ، والتي تحدّد علاقاتها بي من جهة ، وبالمستشارين من جهة ثانية ، ستؤدّي الى تيسير ماكينة الأدارة في القيادة العامة . اما في ما يتعلّق بالدوائر المركزية التي تعمل الآن في الأدارة ، وبالنظر الى انها لسنوات خلت كانت تعمل في يسر وكفاءة فان إلحاقها بالحكومة التي انشئت ، بعد ادخال بعض التعديلات عليها ، لن يكون امراً صعباً . اما في ما يتعلّق بالأدارة في الألوية فمن المحتمل ان تجابه بعض الصعوبات ، ولكن — ان شاء الله — لن تكون صعوبات لا حلّ لها .

البند الثالث عشر : تعلمون ان إدارة الألوية المختلفة والأقضية في العراق لا تزال ، كما كانت الى وقت مضى ، تخضع لنظام يديره ضبّاط بريطانيون سياسيون ، وفي تصرّفهم موظفون اداريون من الدرجة الثانية كقائمقامين ومدراء ... الخ. وتعلمون ايضاً ان الأدارة في بعض الألوية لا تزال تعاني بعض الفوضى والتشويش ، كما ان الجنود البريطانيين هناك وجوداً . ولذلك فانه من العسير ، في بعض المناطق ، تغيير نظام الأدارة البريطانية العسكرية وتسليمه الى موظفين عراقيين في الاحوال الراهنة . ومن جهة ثانية هناك الوية يمكن اتخاذ خطوات فيها لنقل الأدارة من ايدي البريطانيين ، كما هو مرغوب فيه ، الى ايدي الوطنيين العراقيين عندما يتوافر لدينا موظفون ذوو كفاءات .

البند الرابع عشر : بما ان من المهمات الملقاة على عاتق مجلس الدولة اتخاذ اجراءات ادارية للتعجيل في تهدئة الوضع في الألوية ، فان على المجلس المذكور ان يهتمّ فوراً باختيار مرشحين وطنيين لائقين من ذوي الاختيار لتعيينهم تدريجاً في هذه المناصب

حيث يعود تعيينهم بالخير والنفع . وعندما يتمّ هذا الأمر فان على اعضاء المجلس ان يضعوا مقترحاتهم مع اسماء المرشحين ويرفعوها الى للنظر فيها واصدار ما يلزم من قرارات .

(ملحق رقم ١٣)
إقالة السيد طالب باشا من حكومة بغداد ونفيه

الاثنين في ١٨ نيسان « ١٩٢١

ان المندوب السامي يرى انه من المناسب اطلاع الشعب على الأسباب التي يعتبرها اسباباً موجبة لأقالة السيد طالب باشا من الحكومة وابعاده عن بغداد .

قبل ان يغادر المندوب السامي الى القاهرة كان قد أعلن مراراً وتكراراً ، الى العامة وفي احاديث شخصية مع الموظفين واعيان البلاد انه يرغب ، كما ترغب حكومة جلالته ، في ان يضمن للشعب العراقي حرية التعبير عن ارادته ورغباتـه في شكل الحكومة العتيدة التي يتطلـع اليها ، وفي الشخص الذي سيتولى حكم البلاد .

وعندما عاد المندوب السامي من القاهرة كرر على مسمع سيادة رئيس مجلس الدولة السيد طالب باشا هذه التأكيدات والتطمينات وذلك نزولاً عند اسئلتـه عن مستقبل البلاد .

وفي صباح السادس عشر من الشهر الحالي أخبر المندوب السامي مضمون خطاب القاه لسيد طالب باشا في جمع من الوجوه والأعيان بعد حفلة عشاء اقامها في منزله يوم الرابع عشر من الشهر الجاري تكريماً لزائر بريطاني قدم لزيارة بغداد لمدة قصيرة .

في خطابه هذا ، وبعد ان كرّر الاسئلة على زائره البريطاني عمّا اذا كان هذا الزائر يستطيع ان يؤكّد التطمينات والتأكيدات التي قطعها المندوب السامي على نفسه في شأن موقف الحكومة البريطانية من هذا الأمر ، وبعد ان طرح عليه السؤال اذا كان يستطيع لإزاحة بعض الموظفين البريطانيين الذين يعاونون المندوب السامي ، أولئك الموظفين الذين لم يكن يوافق على مواقفهم وسياستهم ، اقول ، بعد هذا التساؤل راح السيد طالب يقول انه بالاتفاق مع مواطنيه قد وطّدوا العزم على ان يضمنوا ان حكومة جلالته ستنفّذ هذه السياسة في أمانة واخلاص على اساس التأكيدات والضمانات المُشار اليها آنفاً . ثم التفت الى الشيخ ربيعة والشيخ سالم خيون ، اللذين كانـا من جملـة المدعوين ، وقال انه اذا بدر عن الانكليز ما يخالـف هذه التأكيدات فان على الانكليز ان يأخذوا بعين الجدّ ما للأمير ربيعة ورجال قبيلته المسلّحين البالغ عددهم ٢٠ الفاً ، وما للشيخ سالم خيون ورجال قبيلته من شأن في الأمر . وبلغ به الطيش والتهور ان شملت تهديداته هذه سيادة الرئيس النقيب .

ان المندوب السامي لا يخامره أدنى شك في اخلاص الشيخين المذكورين وولائهما ، كما انه لا يخامره ايضاً أدنى شك في نبل مقصد سيادة النقيب وعلو خلقه ، ولكـن

المندوب السامي يرى انه اذا كـان سيادة النقيب يتغاضى عن اقوال كهذه فيهـا تهديدات غير لائقة باللجوء الى استعمال القوة المسلّحة ضدّ حكومة جلالته يطلقها رجلٌ مسؤول في المنصب الذي يشغله السيد طالب ، اقول انه اذا تغاضى سيادة النقيب عن هذه الأمور فانه يكون قد اخلّ بواجبه نحو شعب العراق ونحو الحكومة البريطانية .
ولهذا فاني ، حفاظاً على القانون والنظام والحكم الصحيح ، قد شعرت بأن من واجبي ان اطلب الى القيادة العامة ان تتخـذ التدابير الفورية لتنحية السيد طالب عن مسرح السياسة . وقد غادر السيد طالب بغداد ليلَ السادس عشر من الشهر .

ملحق رقم ١٤
رسالة مزاحم الباجه‌جي الى الشيخ خزعل

« البصرة ٩ مارث ١٩٢١ م »

حضرة مولاي السردار ، بعد التشرف بلثم انامكلم الشريفة اعرض اني وفقاً لامركم ذهبت الى بغداد وحكيت مع المعلومين فوجدتهم كما سبق مني التنبوء بحقهم ورأيت الاحوال متغيرة للغاية واقناع احد بالمطلوب من اصعب الامور بل يكاد يكون من المستحيلات واحضرت من الشخصين مكتوبين ارسلتهما مع الحاج مصطفى واخبرني بمندرجاتهما وهذا الذي كنت اتوقعه منهما كما عرضت لسموكم ذلك قبل سفري . اني اختبرت الحالة جيداً وعرفت بواطنها وظواهرها وصدقي مع سموكم يجبرني ان اقول ذات القول الذي قلت قبل شهر وهو ان المسألة اصبحت منتهية والسعي فيها لا ارى فيه اقل نفع اذا لم يكن فيه بعض الضرر ولا يبعد ان يكون هذا الضرر على مثل اذا حاول تبديل ما وقع عليه الاتفاق ورضاه به اهل الحل والعقد . قبل سفري الى بغداد حضر عندي الحاج حسين العطية والشيخ غضبان وطلب التوسط السعي عند الحكومة لاجل ترخيص الشيخ ان يذهب الى بغداد ويعرض مسألته المعلومة فكتبت له بعض التوصيات ولا ادري اذا كان ينجح في مهمته او لا .

هذا واني لا ازال العبد المخلص الصادق لسموكم اطال الله بقاءكم ومتعنا بعمركم وجعلكم فخراً وذخراً .

الداعي
مزاحم الامين الباجه جي

ملحق رقم ١٥
رسالة نوري السعيد وجعفر العسكري الى الشيخ خزعل

بغداد ٢٧ نيسان ١٩٢١ م

مولاي صاحب السمو ، بعد تقديم واجبات الاحترام والاجلال الى مقام سموكم العالي اعرض انني اجتمعت بصديقي مزاحم بك البلجه جي وبلغني ما تفضلتم باظهاره نحو العاجز من الاحساسات الشريفة واللطف الزائد الذي لا استطيع الا ان اقابله بخالص ومزيد الامتنان . وقد فاتحني حضرة الاخ المومىء اليه بالمسألة المعهودة فاسفت جد الاسف لعدم تمكني من القيام بها لاننا تعهدنا عند انتظامنا في في سلك الجيش بعدم الاشتغال في الامور السياسية وانني اغتنم الفرصة واقدم لسمو الامير فائق الاحترام واخلص الاماني

الداعي
نوري السعيد

المعروض بعد الدعاء المفروض ،

هو اني بعد ان ارفع احتراماتي الفائقه وتعظيماتي اللائقة الى سموكم اعرض ان صديق الطرفين مزاحم بك الباجه جي بلغني بالطافكم واحساساتكم الشريفة فاشكر سموكم من صميم القلب على ذلك واما المسألة المعهودة فاعتذر عنها حيث سبقت مني العهود بعدم الاشتغال بالسياسة لانتسابي للجيش .

هذا وتقبلوا يا سمو الامير فائق الاخلاص والاحترام .

مني في ٢٧ نيسان ١٩٢١م

الداعي
جعفر العسكري

ملحق رقم ١٦
برقية النقيب الى الشريف حسين

ابتهجنا سروراً من هذه البشارة ودعونا له بالسلامة وصرنا ننتظر قدومه ساعة فساعة شوقاً للقياه فيمنه تعالى عند قدوم سموه نبادر الى القيام بواجب علينا من خدمته حيث اتحاد النسب والحسب القديمين يقضيان بذلك على الداعي .

٢٠ حزيران ١٩٢١م . عبد الرحمن النقيب

(ملحق رقم ١٧)
اسماء اعضاء وزارة الملك فيصل الاولى

وزير الداخلية	حاجي رمزي بك
وزير المال	ساسون افندي حزقيال
وزير العدل	ناجي بك السويدي
وزير الدفاع	جعفر باشا العسكري
وزير المواصلات والأشغال العامة	عزت باشا
وزير التجارة	عبد اللطيف باشا منديل
وزير التربية	عبد الكريم افندي الجزائري
وزير الصحة العامة	الدكتور حنا خياط
وزير الاوقاف	السيد محمد علي الفاضل

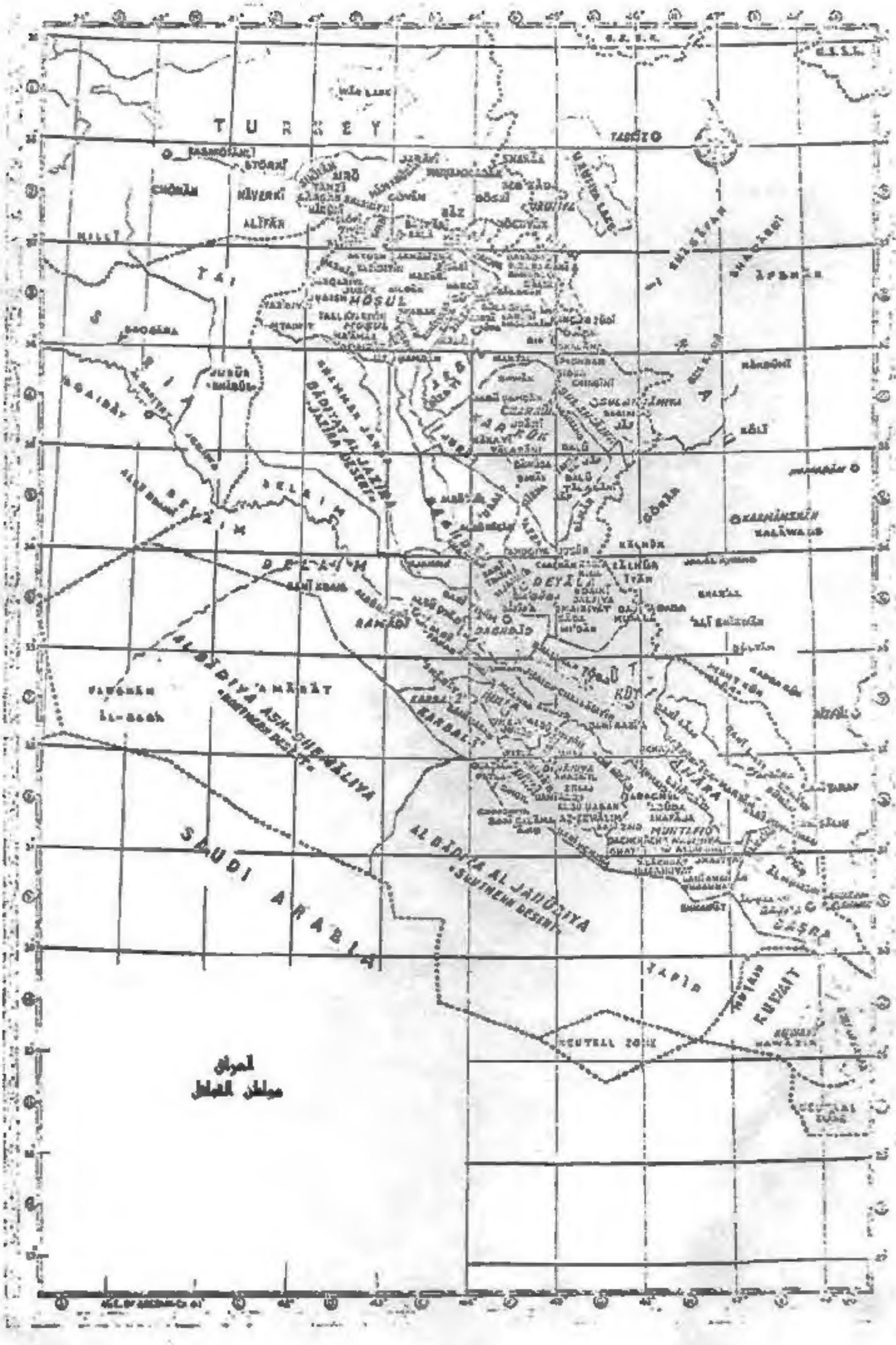
T U R K E Y
S A U D I A R A B I A
AL BĀDIYA AL JANŪBIYA
«SOUTHERN DESERT»
KUWAIT
NEUTRAL ZONE
DEYĀLA
KARBALĀ
العراق
موطن القبائل